

نسوة علىّ

نسوة على	عنوان العمل:
رواية	نوع العمل:
سمير الشحات	تأليف:
سامح كاشف	تصميم الغلاف:
عبدالقادر فايز الهندي	إخراج داخلي:
أتيليه تاتش - المحروسة	الطباعة:
الدار للنشر والتوزيع	الناشر:
محمد صلاح مراد	المدير العام:
01125800467	تليفون:
eddar_press@yahoo.com	البريد الإلكتروني:
www.facebook.com/eldarpublish	فيس بوك:
٢٠١٦/١٠٢٦٣	رقم الإيداع:
I.S.B.N.: 978-977-702-140-1	الترقيم الدولي:

نسوة علىّ

رواية

سمير الشحات

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٦

إهداء

إلى الذى لم أكتشف عبقرية روحه إلا متأخرا ..

متأخرا جدا؛ بعد الرحيل.

إلى الذى تمنيت لو أن الحياة منحتنى مبكرا بكاره

الاكتشاف؛ اكتشافه

.. لكنها - كعاداتها - لم تفعل ..

وها أنا ذا أفعل!

إلى أبى!

المحتويات

تقديم أول

تقديم ثان

الكتاب الأول: بيت العجوانى

الفصل الأول: عفريت مريم

الفصل الثانى: صاحب الجمل

الفصل الثالث: ديستيفانو الرهيب

الفصل الرابع: المناطق السبع المحرّمة

الفصل الخامس: المحوّجة الطازة

الفصل السادس: مصاص الدماء

الفصل السابع: إيفون

الفصل الثامن: الذبيحات

الفصل التاسع: أبلّة بشرى

الفصل العاشر: التوتة

الكتاب الثاني: بيت العطار

الفصل الحادى عشر: القصر المسحور

الفصل الثانى عشر: حكاية العطار

الفصل الثالث عشر: درب الآلام

الفصل الرابع عشر: الشطرنج

الكتاب الثالث: بيت الأسطى

الفصل الخامس عشر: مزاد اللحم

الفصل السادس عشر: هنيّة

الفصل السابع عشر: وادى الجنّيات

الفصل الثامن عشر: العيد

"فى الزاوية العليا من المرأة.. على يساره.. رأى بقعة ضوء
خضراء صغيرة فى حجم رأس الدبوس.. أمعن النظر فيها.. سرح
بخياله.. راحت البقعة تكبر وتتسع وتتمدد.. إلى أن ملأت كل فراغ
النصف العلوى من المرأة.. ومن وسط الضياء الساطع المنير.. أنتت..
من بعيد أنتت.. سارت على مهل.. اقتربت.. فارتعش قلبه وانبهر..
كانت فى رداء أبيض من نور أخاذ.. تهالت عيناها بالفرحة.. ومن
زجاج المرأة البلورى.. مدت كفيها ففرشتها له بساطا من سكينة
وسلام.. أراح رأسه فوق الكفين.. بكى وضحكت هى.. ضمته إليها
بحنان.. وهمست: "مبروك يا حبيبى" .. ثم تلاشت.. فبكى من جديد..
كانت تلك هى مريم!"

تقديم أول..

"كفر الفلايحة" .. بلدة عجيبة بصورة خارقة.. لا هي قرية ككل القرى.. ولا هي مدينة كبقية المدائن.. هي مزج من هذه وتلك. تسير في جانبها الأيمن الشرقى الفقير فتفجؤك رائحة الروث "الصباح" الحى لبهائم تركت تهيم على وجهها فى الشوارع والطرقاب بمنتهى الحرية فلا يعترضها أحد.. ولا يعاتبها إنسان على هذا "الإخراج" الحر المسترسل.. فى أى وقت.. وفى كل مكان!

وسياخذك خيط الروث إلى شوارع ضيقة مظلمة مكتظة بالكلاب- التى لا أب لها- وبالعيال الحفاة العراة فى النصف الأسفل من أجسادهم الصفراء الممصوفة، المهلهلى الأثمال والهدوم، ذوى الأسنة الحداد والألفاظ النابية الحارقة.

فإن رغبت فى تتبع خط الروث حتى نهايته فسيقودك إلى منازل بناها أصحابها من طين نيء، وعرّشوها بقش الأرز والبوص البلدى وحطب سيقان أعواد القطن.

فإذا تجرأت واتخذت قرارك بالولوج إلى صحن إحدى تلك الدور، فسوف تلاحظ نمطا واحدا فى تصميم البيوت؛ دهليزا ممتدا مظلما ينتهى بحظيرة تؤوى بهائم أصحاب الدار.. وعلى جانب الدهليز سترى أبوابا خشبية ذوات فتحات ضيقة تتغلق على غرف غاية فى الضآلة.. بكل غرفة منها طاقة صغيرة تطل على الدهليز .. فلا تدخل من الضوء إلا أيسره.. فيختلط ظلام الدهليز بظلام الغرف بظلام العقول الهاجعة فى كسل تهذى وتهلوس وتطرّد الريح بانتظام!

وكما لابد وأنك تعرف؛ فى الظلام تنقشى المخاوف وحكايات
العفارىت وامتدادات الأيدى المرتعشة بالشبق تسافر فى وجل إلى الأعضاء
الحميمة تكمشها وتلذذ. وفى الظلام أيضا تنتشر الكائنات القارصة القارضة
للدّاعة اللدّاعة مصاصة الدماء سارقة الراحة.. المتناهية الصغر كبيرة
النذالة.

فإن كانت لديك فسحة من الوقت.. وجلست تتسمّع لحكايا الجدات
الطيبات، متساقطات الأسنان والشعر والذاكرة، فإنك حتما سينتصب فيك
شعر الرأس.. وتتهيج منك المشاعر.. لأنك ساعتئذ ستكون قد سمعت مالا
أذن سمعت من قبل.. ولا خطر على قلب بشر!

تترك المنازل ذات الأفران الواطئة المبنية من طابقين بالطين-
والتي ستكون قد أغرقت عينيك وفتحتى منخارك وصدرك بدخان الخبز
والدموع ورائحة الخبز الطازج المبهجة البهجة الخالصة- وتسير لا تلوى على
شئ.. لتجد الغيطان.. وآه من سحر الغيطان وأسرارها المخفية.

أما فى الجانب الأيسر الغربى من " الفلاحة" .. على يسار التربة-
وأنت آت من طريق المعاهدة الفسيح- فثمة دنيا ثانية من الضوء الكثيف
والكهرياء وماء الحنفيات المتدفق فى يسر دون انقطاع أو عفونة.. وستدهش
ناظريك منازل الطوب الأحمر المطلية بالأصفر والأزرق والبرتقالى.. وستشم
رائحة نظافة أبدان أولاد المدارس المغسولة بالصابون المعطر.. لكنك حتما
لن تخطئ الكآبة الرابضة على القلوب هناك!

" الفلاحة" .. لا هى بالمدينة ولا هى بالقرية.. هى " بين بين"!

وصاحبنا- على عبد الكريم سيد الفلاحي- هو الآخر نشأ هكذا..
بين بين" .. فلا هو متمدّن ذلك التمدين التام المصحوب بالميوعة ونعومة

الجلد واعوجاج اللسان.. ولا هو فلاح"قرارى". إنه ابن لموظف هو أصلا ابن
لفلاحين.

لعلّ هذا حكاية تروى مع "الفلاحة" وأهلها وحارة العجوانى ومريم:

تقديم ثان..

أشرفت الأرض بنور ربها.. واحتلت الشمس كبد السماء.. فانتشر الضياء.. ولملم الظلام أشلاءه ومضى.. مفسحا الميادين والشوارع والحواري والزقاق والبيوت لأجناد النهار المنتصرة.. تدخل رافعة رايات الانتصار.. تلاشى الليل.. وزحفت الشعاعات الدافئة المدفئة الحنون.. هذا نهار جديد! تسالت أشعة الشمس من خصائص الشيش الموارب، فزارت أول ما زارت وجه زوجته الغارق في السبات العميق.. مال برأسه قليلا فوق الوسادة ولامس بحنان مرتعش خصلات الشعر المبعثرة.. رغب في لثم الفم المنفرج قليلا ويتنفس بانتظام إلا أنه تذكر أن اليوم ليس كأي يوم فامتنع عن تقبيل الوجه الجميل.. فضّل التأجيل خوفا من عواقب ما بعد التقبيل.. تمتم لنفسه: الليل قادم وهل الليل ببعيد؟ الليل موعدا وساعتها سوف يطول العناق.. أغلق عينيه إذ فاجأهما الشعاع الزائر على استحياء.. اهتز طربا عندما استرجع وقع الخبر السعيد على قلبه ووجدانه.. كان ذلك بالأمس.. ورغم أنه كان يتوقع القرار إلا أن القرار مع ذلك فاجأه!

" أنت يا علىّ بيه أصبحت رئيسا لمجلس إدارة الشركة!"

قطب جبينه، زمّ شفثيه، كاد أن يسمع وجيب قلبه، وانتفاضات النبض المتسارعة في عروق عنقه.. رئيسا لمجلس الإدارة أصبحت إذن.. فهل تستطيع؟ هز رأسه ينفض عنها مسحة الخوف المباغثة.. سحب جسده بالراحة كي لا يوقظ الزوجة النائمة تحلم.. تمتم: نعم أستطيع! يعرف أن سيارة رئيس مجلس الإدارة الفاخرة تنتظره الآن لدى الباب.. فليتأخر.. لن يكون للمنصب الجديد معنى ما لم يتأخر في النزول.. المواعيد المنضبطة

خلقت للصغار فقط أما الكبار فلا مواعيد لهم.. إنهم فوق المواعيد.. وليذهب كل سائقى الشركة إلى الجحيم. طوال عمرك يا علىّ وأنت تنتظر الآخرين واليوم آن الأوان لينتظرك الآخرون.. ألا فلينتظر السائق ما شاء له الانتظار. فتح خزانة الملابس. آآه.. هاهى البدلة الجديدة الغالية الثمن ترغد لك زغرودة الفرحة.. فرحانة البدلة بك يا علىّ.. بالأسم اختارتها الزوجة العاشقة: " كحلى غامق يا علاوى يا حبيبى.. أنت الآن رجل مرموق.. والمرموقون لا يرتدون سوى الكحلى". آآه .. وها هو القميص الزهرى ذو الياقة المنشأة الواقفة فى شموخ كالسيف: " الزهرى ها ياكل منك حبة يا روحى!".. آآه .. وها هى ربطة العنق الزرقاء بالأقلام السوداء الللى بالعرض: " حرير صافى يا علىّ.. موش خسارة فى حبيبى!" و .. آآه من الجورب النعسان فى استرخاء على كتف الجاكت: "يا عيني يا سيدى.. قطن مائة بالمائة.. ثلاثون جنيها مرة واحدة يا عم.. ياللا يا حياتى.. هيص!" " زى القمر ياناس؟ عاوزاك بكرة تكون أشيك واحد فى الشركة كلها.. أنت رئيسهم وتاج راسهم الآن يا علىّ.. ما تنشاش!"

دلف إلى الحمام.. تعرّى.. صوّب فتحة" الدوش " إلى رأسه فانهمر الماء زلالا باردا. كان الماء أعذب وأرق وألذ من أى وقت مضى.. الماء يعرف أن عليّا اليوم ليس كعلىّ بالأسم.. تحتك يا ماء الآن رئيس لمجلس الإدارة.. فحنانيك يا ماء! ارتدى ملابسه على مهل.. نظر إلى هيئته فى المرآه فلمح فى المرآة أيضا جزءا من المؤخرة الرائعة النائمة باسترخاء فى الفراش فانهسر عنها قميص النوم الوردى.. " موش وقته يا عم علىّ.. خلىنا هنا!" ابتسم لنفسه" كله تمام يا معلم.. هيا بنا". خرج من المصعد ففوجىء بالسائق" عم عرفة" ينتظره أمام الباب.. لاحظ أن السائق يرتدى بدلة أفخر

من بدلته.. تضايق قليلا فغمغم بصوت تعمدّه غير مسموع: " صباح الخير يا عرفة!" سارع الرجل إلى حقيبة أوراقه فحملها عنه ثم تأخر خطوتين إلى الخلف وهمس بحياء: " بعد سيادتك يا افندم". أراد أن يفتح الباب الأمامي للسيارة ليجلس كما اعتاد دائما فعاجله عرفة: "ما يصحش يا افندم.. سيادتك مكانك هنا".. وانحنى ففتح له باب المقعد الخلفى على مصراعيه ثم انحنى من جديد. ابتسم علىّ فى خبث.. قال لنفسه: ما كل هذا الاحترام الزائد.. هل ذلك من دواعى المنصب الجديد؟

وصلا إلى باب الشركة فشعر كأنه سلطان.. كلهم يعاملونه كسلطان فلماذا لا يتسلطن فيكون سلطانا.. السلطان علىّ! صعد به المصعد.. ثم توقف.. فترجل هو.. لم يكد يسير خطوات معدودات حتى اصطف أمامه المهندئون.. صافحهم بتواضع مزعوم.. ودّعهم بشموخ.. ثم جلس إلى المكتب.. نظر إلى أعلى.. إلى السقف .. إلى السماء.. تتمم بصوت مسموع: " يؤتى الملك من يشاء.. وينزع الملك ممن يشاء.. ويعز من يشاء.. ويذل من يشاء.. ويرزق من يشاء بغير حساب". بعد خروج الجميع خلا إلى نفسه فمد سبابته والإبهام إلى ما فوق شفته العليا.. سوى شاربه وبلل السبابة بلعابه فمر بها على الشارب المقصوص بعناية.. سحب المرأة المعلّقة على حامل على يمينه وتقرس فيها وتابع تفاصيل الوجه.. هاهو احمرار العينين الذى لازمه طوال الأسبوعين الماضيين انتظارا للقرار قد زال.. ها هي الشعيرات البيض فوق الفودين قد غمرها السواد المصبوغ.. وها هي شعيرات فتحتى الأنف النافرة قد ولّت إلى غير رجعة بعد أن أعمل فيها الحلاق الحاذق مقصه الصغير بمنتهى الحرص.. ها هما الحاجبان متساويان يرقصان فوق عينين شعّ منهما بريق الزهو والشفتان مفعمتان بنعيم الصحة

والعافية.. هذا حقا وجه إنسان مرموق! ابتسم.. ركن المرأة على جنب وضغط
لوزة ربطة العنق بكفه اليمنى .. نظر إلى البدلة الجديدة الغالية الثمن " شاطرة
يا فتحية والله.. الكحلى مناسب جدا". .. ابتسم ابتسامة رضا فرأى الضوء
الأحمر ينبعث من هاتفه الداخلى.. ضغط الزر الأقحوانى فأثاء صوت هبة
السكرتيرة المغرد:

مجلس الإدارة اكتمل يا افندم.. ينتظرون سيادتكم.. تفضل!

نهض متباطئا.. سار الخطوات التى تفصل بين مكتبه الفخم والباب
الجانبى المؤدى إلى غرفة الاجتماعات الملحقة بالمكتب.. تتمم بالدعاء
الأبدى الذى يردده دائما قبل الإقدام على أى عمل: "بسم الله.. توكلت على
الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شئ فى
الأرض ولا فى السماء..". فتح الباب الصغير.. دخل عليهم فوقفوا جميعا
ووجوههم فى خشب المكتب.. ساد الصمت.. جلس فجلسوا.. " سلام عليكم
يا جماعة".."وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا افندم". كان قد قرر منذ
ليلة الأمس سيناريو الاجتماع؛ سيبدأ بتحيتهم، وها هو قد حيا.. ثم يأخذ فى
توبيخهم جميعا.. لا ينبغى أن يسمح لأى منهم بأن يعتقد أنه الأقوى.. أنا
الأقوى هنا.. مفهوم؟ بعد ذلك سـيلجأ إلى تخفيف النبذة قليلا قليلا إلى أن
ينتهى بتوجيه الشكر لهم فى نهاية الاجتماع على أدائهم الممتاز فى الشركة
التي حققت أفضل النتائج هذا العام.. وأخيرا سيفاجئهم بالخبر السار: مكافأة
سخية لكل واحد منهم.. ومكافأة مماثلة لكل العاملين " تلك هى الإدارة الصح
يا عم على.. سيف المعز وذهبه!"

وبدا فى تنفيذ السيناريو:

- عفوا يا جماعة.. تأخرت عليكم!

- لا أبدا يا أفندم.. لا تأخير ولا حاجة!
- كيف الحال؟
- بخير وزى الفلّ بنفس سيادتك يا أفندم!
- هكذا نطق إبراهيم أفندى عبد العزيز ممثل الإدارة فى المجلس فعاجله علىّ بالجملة التى ألجمت لسانه:
- فلّ إيه وهباب إيه يا راجل.. إيه حكاية التذمر اللى فى الحسابات ده يا أفندى؟
- أعود بالله.. تذمر إيه كفى الله الشر؟
- طبعا ما انت نايم على ودانك.. شوف الموضوع ده بسرعة يا أفندى!
- مال برأسه بسرعة فى حركة مسرحية مخطط لها بعناية.. وثبت عينيه فى عينيّ شحاتة السائق ممثل العمال.. وصرخ:
- رجالتك موش عاجبئى يا شحاتة! إيه حكاية السيارات التى يأخذها السائقون إلى منازلهم دى يا مولانا؟ الموضوع ده يجب أن يتوقف فورا.. مفهوم؟ سيارات الشركة كلها يجب أن تبيت فى جراج الشركة.. مفهوم؟
- قبل أن يجيب الرجل شخط هو بصوت قاس:
- خلاص .. خلصنا.. خلص الكلام!
- أتى الهجوم المباغت بثماره على الفورفاشرأبت أعناق الرجال تنتظر المقصلة.. مقصلة رئيس مجلس الإدارة الجديد.. هيا إلى الفصل الثانى من السيناريو؛ "الترضية".. هيا نعيد السيف إلى غمده. ابتسم وهذا من نبرة الصوت:

- على فكرة.. الشركة السنة دى كسبانه جامد.. لكننا سنسعى للأفضل..

أخرج لفافة الورق من حافظة أوراق كانت بجواره فوق المكتب.. راح يقرأ عليهم الموقف المالى للشركة.. كان فى قمة الإحساس بالفخر.. ولم لا وهو نفسه كان رئيس الحسابات قبل ترقيته رئيسا للشركة؟ كلهم يعرفون أنه أبرع من أمسك الدفاتر فى تاريخ الشركة.. لا يباريه أحد فى لعبة الحسابات.. بدأ يلعلع وهو يسرد الأرقام التى يحفظها عن ظهر قلب. أراد أن يتشامخ أكثر إلا أن جرس الهاتف الداخلى دق بجواره.. رفع السماعه بإهمال المتكبرين.. جاءتة الكلمات ففز واقفا واسودّ وجهه وغامت عيناه.. كانت هبة السكرتيرة.. اتسعت حدقتا عينيه.. وفغر فمه:

- بتقولى إيه؟

- ماتت؟ إمتى؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.. الله يرحمك يامّا!

بجوار كومة من روث البهائم الجاف أوقف عرفة السيارة عند مدخل

البلدة:

- إلى هنا وينتهى الأسفلت يا افندم.. السكة ضيقة.. ماذا أفعل؟

- إسمع يا عرفة.. خذ السيارة أنت وارجع.. أنا سأتصرف.. وعندما

ينتهى الدفن تعالى لى..

- موش ممكن يا افندم لازم افضل معاك!

- إسمع اللى باقول لك عليه.. يالّا يالّا ..

ترجل من السيارة فانطلقت عائدة. لم يرغب فى أن يراه إخوته ولا

أهل "الفلايحة" بالسيارة الفاخرة.. إستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان! آه..

ها هو شريط القطار.. وها هو الشارع الكبير.. من هنا سندخل إلى الحارة..

ملأته الدهشة.. أين البيوت الواطئة المبنية من الطين؟ أين الحواري الضيقة؟
أين الخرابات؟ هنا كانت سراية العطار.. وهنا بيت الصقاروة، وهناك خرابة
البغدادى.. آآآآآ.. وها هنا كان بيتك يا مريم. ما هذا؟ عمائر وبنائات
ومحال تبيع كل شىء وسيارات من كل نوع تمرق فى استعجال عشوائى؟ ما
هذا الزحام؟ وما تلك الفوضى؟ أين بيت أمى؟ قالوا لى إنها طلبت أن ندفنها
بجوار أبى.. فى البلد.. وها نحن فى البلد.. فاين البلد؟ شعر بالتعب.. فجلس
فوق حجر وهاجمته الذكريات.. ذكرياتك يا مريم!

الكتاب الأول

بيت العجوانى

الفصل الأول

عفريت مريم

.. "وكانت تتأوه.. تنظر إلى السقف وتتألم بسعادة..
عيانة؟ جائز.. إلا أن هذا لم يكن أبدا ألم العيانيين!"

١

طلب العجوة كان طلبا عاديا. يشعر أبوه بنشfan الريق، فيسعل سعلته المعتادة. لم يعد يحتاج إلى الكلام، تكفى النظرة، ليبدأ مشوار العجوة. يكون أبوه مستلقيا على جنبه الأيمن، عيناه شاخصتان إلى السقف، ينظر إلى الفراغ، حالة اللحاف الملفت حوله تشي بحالته النفسية. إذا كان اللحاف ملتفا بإحكام حول جسمه، ويغطي نصف الجسد فقط، والرأس بادية، فالمزاج معتدل، والفرصة حينئذ متاحة للأخذ والرد.

- "موش رايح".

- لأ.. هاتروح يا ابن الكلب!

- الدنيا برد.

- ولا برد ولا حاجة، يالآ البس شبشبك وانزل.. هات نصف كيلو.

- "موش رايح".

يستغرق الأمر عدة دقائق، تنتهي دائما بأن ينزل.

أما إن كان اللحاف ممتدا على استقامته، بدون كرمشة ويغطي الجسد كله، والرأس مدفوسة، فلا مجال إذن للتفاوض. لا داعي للغلبة وكثرة الكلام.

يعرف أن المزاج اليوم مقلوب، وأن تحت اللحاف الآن زهقا مهيمنا، وغضبا هائلا، وأن أى كلمة زيادة ستقلب الدنيا. سيرفس أبوه الغطاء بقدميه، ويطير وراءه حتى "يعكثه" .. سيقبض أولا على رقبته النحيلة بكف يده الجبارة.. وستكون الخطوة التالية صفة تدمى شفتيه. لا يعرف كيف ينشن هذا الأب الظالم دائما على الشفتين. حاول مرات أن يتجنب الضربة بحيث تسقط على القفا مثلا.. أو الظهر.. أو الكتفين. لا يمكن . كل مرة على الشفة نفسها؛ العليا. والألم فظيع. يسحب القرشين من فوق الترابيزة.. ينزل جريا. أبوه يعشق العجوة. تسخنها له الأم بسمن بلدى.. تعدل مزاجه.. وإلا فالضرب المبرح. لا داعى للمشاكل.. نجيب من الآخر أحسن!

المشوار - حتى بيت سكيانة العجوانية - محفوف بمخاطر ثلاثة للرعب: السلم. سيهبط الطوابق الأربعة على الدرج المتهرىء، والسلم "ضلمة". المسافة تستغرق دقيقتين إن هو أخذها قفزا، وأربعا إن هو تمهل، وغالبا لا يتمهل، وإلا نطت إلى ذهنه العفاريت. والسلم ضلمة. انتهينا من السلم.. ندخل على الكلاب. الطريق إلى بيت العجوانية مبدور كلابا. تطارده فى كل مرة، وفى كل مرة يصرخ.. ولا مجيب. وطبعا لن تعقره الكلاب. تعرفه.. ولا تريد إيذاءه.. فقط تلاعبه. يعرف أنها تلعب.. لكنه ما كف أبدا عن الخوف.. وما كفت الكلاب أبدا عن اللعب والجري وراءه. " يا واد.. وطى على طوبة وهوشها تجرى منك"، أمه تقول.. ومتى كان لكلام الأمهات أى فائدة؟ خلصنا من رعب الكلاب.. هيا إلى رعب جديد.. الواد سيد ابن الفاكهانية. بالأمس ضربه، واليوم سيضره، وغدا أيضا. حتى نهاية العمر سيظل سيد يضره، حتى فى أحلامه بعد عمر طويل سيظل سيد ينهال عليه ركلا بالشلايت والشتائم والبصاق. اشتكى لأمه غير مرة. "روح خذ حقك بإيدك .. ماليش

دعوة! "يعرف أن أمه "الذوق بنت الناس" تخاف من أم سيد "الشلق"، ربما أكثر من خوفه هو من ابنها سيد. شدّت الولية الشلق أمه من شعرها ذات مرة، فأسقطتها أرضاً، وجرجرتها، وهات يا تلطيش. الدنيا كلها تخشى أم سيد الشلق. الرعب الثلاثي سيعقبه رعب رابع، أنكى وأشد. الدهليز!

بيت العجوانية لم يكن بيتاً كأى بيت. كان مغارة، أو ما يشبه المغارة. باب طويل "مسكون"، مترب، مملوء بالشقوق التى يفوت منها الجمل، حتى أنك كنت تستطيع رؤية الظلام الحالك الرابض خلف الباب. كان باباً من درفة واحدة ممتدة إلى السماء. وللباب مزلاج فحل داخل فى سقطة خشبية. كان ينحنى تحتها ويمد ذراعيه كى ينجح فى رفعها لينفتح الباب المهول. لا ينجح ولا يفتح الباب. عليك أن تزقه بكتفك، الفتحة الضيقة- يادوب- تسمح له بالفوتان، ويفوت إلى حيث الدهليز. ظلام فى ظلام، حتى فى عز الظهر الأحمر ظلام. وكان أبوه الظالم لا تحلو له العجوة إلا بعد أذان المغرب. ويسير هو يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً. الدهليز كله حفر، وروث بهائم، وعفاريت رضيعة تلهو، ويا ويلك لو دهست قدم واحد منها، يلبسونك على طول. والدهليز مفتوح على أبواب ثلاثة، باب عم قناوى، زوج سكيّنة، الذى ما سمعت له الحارة صوتاً أبداً. كان رجلاً طيباً، بتاع ربنا، ولا يترك فرساً. لكنه كان يسافر كثيراً، ويترك زوجته وابنتيه. بعضهم قالوا عنه إنه "مخاو" للجن، وآخرون أكدوا أنه إنما يسافر إلى الحجاز طائراً على جناح جنى يسخره لحسابه. كان يذهب ليحج. والباب الثانى كان لغرفة مريم. والثالث لغرفة سكيّنة وابنتها الأخرى سنية. وفى نهاية الدهليز كانت "الزريبة"، التى تستأجرها عائلة صقر من عم قناوى لتبيت فيها بهائمهم، إلى جانب الزريبة الكبيرة الأخرى، هناك فى بيت أولاد صقر الكبير المجاور لبيت العجوانية.

كان يأخذ لفة العجوة من يد عم قناوى، ويرمى له القرشى صاغ، ، ويجرى
فيغرق عم قناوى فى الضحك، ويجرى هو، أبوه ينتظر، ويجرى ، وعيون
العفاريت النارية عليه، ويجرى.

- مين؟

- أنا يا خالة.

- خش يا وله.

ما كان لصوت العجوانية أن يكون أبداً أقل رعباً من بيتها. وكيف يكون
وقد كتب الله علينا العذاب؟ يمد رجله اليمنى، وفى كل مرة يمدّها كان يتوقع
أن شيئاً واحداً سوف يقع، سيلتھما الغول الذى يسكن البيت، والذى لا يسمع
كلام أحد، أو يستجيب لأحد.. إلا لمريم. وكانت مريم تحبى، وربما كان ذلك
هو السبب فى أن الغول لم يأكل رجلى ولا مرة. مريم حذرت الغول العاشق:
كله إلا على..! كانت مريم تحبه هو دون أولاد الحارة الآخرين. كانت تبتھج
كلما جاء للعجوة وتمد له ذراعيها على امتدادهما وتحضنه بلهفة وتبوسه بين
عينيھ.

- "عينيك حلوة يا على، واخدهم من أمك."

- "ها تخنقيني يا مريم،" فتفلته ببطء. لم يفهم إلا فيما بعد لماذا كانت
تغلق عينيها وهى تحضنه. مريم كانت عاجزة، لا تتحرك. "يا واد
مشلولة عندها انزلاق"، هكذا كانت أمه تردد دائماً. وكان يحب مريم
أكثر مما تحبه هى. دخل عليها مرة، وكان الباب موارباً. دفعه
ودلف، رآها كما لم يرها من قبل. كانت "ملط"، مستلقية على
الظهر، وساقاها منفرجتان على اتساعهما، ومثيتان عند الركبتين.
وكانت تتأوه، تنظر للسقف وتتألم بسعادة. "عيانة؟" جائز.. إلا أن

هذا ليس ألم العيانين! عندما رأيته أصبح وجهها وعيناها وأذناها في لون الدم خجلا وغضبا، وصرخت صراخا لم يعهده فيها أبدا: "إمش بره يا وسخ!" ظل يجرى مذعورا حتى انتصف النهار. تذكر في هذه اللحظة ما قالت أمه له ذات مرة هامسة: "ياوليه.. مريم راكبها عفريت!" هل كان العفريت عندها في هذه الساعة، فجعل عينيها دما؟ لم تقل له أبدا من قبل يا وسخ. في اليوم التالي أخذته مريم في حضنها وعصرته: ماتزعلش منى يا على..أنا غلبانة! بعدها بشهور رأى على عفريت مريم، وراه العفريت.

السر وراء الصفع واللطمات والبصاق اللزج والركلات الموجهة وضربات الحزام المؤلمة كان الفقر والحرمان والزهقان واليأس والخنقة. المنزل شقة صغيرة، غرفتان وصالة ضيقة، ومطبخ تم اقتطاعه على عجل من مساحة الصالة. وجوار باب البيت كان الحمام. والحمام ضيق أيضا .. متران في ثلاثة. ليست الصالة صالة بالمعنى المتعارف عليه. فالصالات عادة تكون مربعة التكوين، أما تلك فمجرد "زيق" مخنوق يكفى بالكاد لمرور شخصين إن هما تلاصقا وهما يمران. وكان المطبخ فى نهاية ذلك الزيق المقتطع، والمظلم فى غالب الأحيان. مظلمًا كان المطبخ لأنه لم تكن به لمبة، وتم الاكتفاء بالنور المتسرب إليه من لمبة الصالة، التى كانت بدورها خافتة أيضا - لمبة ٢٥ - .. الظلام هو سيد المطبخ بلا منازع. صباحا ومساء تقشّرت فى المطبخ الظلمة. وعندما يغيب الضياء تنتشر الصراخير وتعربد المخاوف. فإن أنت أضفت إلى كل ذلك روائح الثوم المهمل، والبصل المخزون المصنن، وبقع السمن المدلوق الذى لم تمتد إليه يد التنظيف لدهور، فأنت حينئذ أمام مطبخ مأساة. مطبخ.. هو مرتع للخوف والآلام والأخطاء غير المتوقعة التى تستوجب - إن هى وقعت - أقسى العقاب. وكانت الأخطاء دائما تقع، فبيدأ ضربك المبرح. وأنت داخل إلى المطبخ فسترى - إن كانت عيناك قد تعودتا على اختراق الظلام - صندوقا مستطيلا يكاد يبلغ السقف. " النملية". خزانة خشبية من طابقين: الطابق الأول مخزن يغلقه باب من درفتين تراكمت به الحلل والصحون والصوانى وطاسات قلى الطعام. و الطابق الثانى أرفف متوازية تراصت فوقها الأكواب الزجاج والألومونيوم والصينى والخزف والبرطمانات التى أكثرها فارغ. وأما السطح - سطح

النملية- فكان عالما آخر من الفوضى والارتباك والعبث. كل شىء فيه مهمل، وكان كل شىء هناك.. لكن أين بالضبط هناك؟ الله وحده يعلم!

- ناولنى يا واد برطمان السمن من فوق النملية!

- حاضر يا مّه..

تمد أنت- المقروض القامة واليدين والساقين - ذراعك القصيرة تتحسس الأشياء بأناملك. الدنيا ظلام، ويصبوص الضوء المتسرب من وابور الجاز الموشك على الشحار لا يسعفك لترى. تصطدم الكف بالأشياء المتناثرة؛ أوان قديمة ألقتها أمك هناك فركب الواحد منها الآخر.. خرق قماش مشبعة بالزيت والدهون.. كسرات من الخبز الجاف تركت فسكنها العفن الأزرق المائل للسواد، زجاجات خل وملح وتوابل وأكواب شاي انشق زجاجها فلم تعد تصلح لشىء.. ملاعق صدئة كبيرة الحجم وصغيرة.. وما خفى كان أعظم. تتوغل كفاك، فتتعثران بكيس ضئيل من الخيش المهترىء محشو بالأسمنت الأبيض كان أبوك قد أعدّه لإصلاح كوع الحوض المتسرب منه الماء ثم نسيه، فرموه فوق النملية. تتجنب أنت الكيس. ولأنه لا ضوء هناك فلن يكون أمامك إلا أن تعتمد على حاستك السادسة لتتعرف على كنه الأشياء. ينتقل الكف بحذر فتكمشه قطعة من اللوف كمنت منكمشة على نفسها فى ركن ناء على سطح النملية كقنفذ شائك الظهر خائف يدفعه خوفه إلى تشويكك وإيلامك. كوز اللوف المقفّذ، الذى تستخدمه أمك فى دكك جسدها ساعة الاغتسال، يأبى إلا أن يلمسك فيبعث فى أعطافك كلها تيارا من الرعشة المباغثة كالكهرياء. تكتم ألمك وصرختك فى بطنك وتمضى تبحث عن برطمان السمن.. لا برطمان هناك.. إذن فلنفتش فى الجانب الآخر من سطح النملية. أنت- الواقف فوق كرسى الحمام الواطئ القصيرة أرجله وتستخدمه أمك للجلوس

ساعة الاستحمام وهاهو الآن يهتز من تحتك- تنقل الكرسي إلى زاوية أخرى
ثم تعتليه من جديد وتعيد رحلة البحث. ها نحن الآن على الجانب الأيسر من
سطح النملية نمد الأكف. آه .. ها هي الكرة الجلدية الصغيرة التي غضب
أبوك منكم ذات يوم فصادرها فلم تعرفوا أين راحت. هل تأخذها؟ إياك.. الويل
لك لو فعلت .. سيعلم أبوك أنك أنت من أعادها للحياة، وعندها سوف يسلبك
الحياة . يا عم .. الطيب أحسن! تترك الكرة وتواصل البحث. أين يا ربي
برطمان السمن الزفت هذا؟

- ما فيش حاجة يا مَه!

- دور كويس يا وله .. دوران يقلبك!

تسهو فتأتيك الوخزة من حيث لا تحتسب. تلسعك الوخزة الجبارة فيرتعد
جسدك النحيل من شدة الألم. آ آ آ آ آ آ .. الألم نار تشعل كيائك كله. إنها
كرة الخيط التريكو التي ألقته أمك فوق النملية من زمن هناك.. فوق السطح،
وبها الإبرة ذات السن المدبب المسحوب. تتوغل الإبرة اللعينة في لحم إصبعك
الخنصر قتهز كيائك، فتصرخ. لا تشعر بنفسك. تنتشت يداك فتخطان كل
شئ، تطيحان بكل شئ، يسقط كل شئ .. يالللغربة.. هاهو برطمان
السمن البلدى الغالى الثمن طاح على الأرض أمام قدمي أمك التي التف
فخذاها حول البابور، ووجهها اللاهب ينضح بالعرق. انتشرت بقع السمن فوق
أرضية المطبخ القذرة. اختلط السمن الغالى بالجاز وحلقات البصل وقشر
الثوم.. وبالتراب. ضاع السمن وحانت لحظة ضياعك. "تهار أبوك إسود ..
دلقت السمنة يا وله؟" تصرخ أنت.. وتصرخ هي.. تلطم صدغيها المحمرين
من أثر الوهج والغضب وتلطم.. تضرب بكفيها على الصدر المكبوس بالحنق
والياس المتراكمين عبر السنين.. تخبط رأسها الملفوف بالتربيعة السوداء في

الجداروتصرخ: "يا ابن الكلب .. يا ابن الكلب!" يفز أبوك من قيلولته .. وآه من فزة الأب حين يفز مفزوعا وهو مستغرق فى نومه. يهرول دائخا كثور عاجلوه بسكين حاد فى موضع القلب. يدور الأب كالأعمى، أو كدجاجة مذبوحة بسكين بارد الشفريات. يقتحم المطبخ فيرى المأساة؛ الأم تلتطم.. والسمن الغالى مدلوفا على الأرض.. والزجاج المهشم قطعاً صغيرة تدمى أصابع قدميه العاريتين..ثم.. يراك..أنت الكامن ترتعش فى ركن المطبخ ينزف إصبعك الخنصر دما.

يمد يديه الغليظتين يسحبك من شعرك إلى أعلى .. يتجاوز بك جسد أمك .. ويهبط عليك يحملك كجزار يحمل كبشا ليذبحه. يجرجرك فيمسح بك تراب الصالة. يصل بك إلى الحمام . يرميك هناك ويجرى يلهث يأتى بحزام الجلد . تتخيل أنت السيناريو الذى سيقع الآن وتستدعى فى ذاكرتك حفل التعذيب الذى كم أهلكك من قبل فتصرخ صرختك التى تسمعها الحارة كلها. أنت تعرف ما ستلقاه الآن. سيأمرك بخلع البيجاما ثم الفانيلاً ثم الكيلوت. تصير عاريا كيوم ولدتك أمك. سيمد يده فيفتح صنبور "الدوش" ليغرقك ماء الدوش وسينهاك على كل جارحة من جوارحك بالحزام المشرشر الحافتين كسكين. سيقبض على عنقك كأرنب بين فكى نمر جوعان. سيسقط الحزام على لحمك وعظامك ووجهك وفخذيك ومؤخرتك وأطراف أصابعك وسيركلك هو فى أجزاءك الحميمة بظهر قدمه المفلطح. الليلة ليلة موتك يا على. تريد أن تصرخ فلا يخرج من حلقك إلا الهواء كالفحيح.. ثم تأتى نجدة السماء: يا أم على.. يا أم على.. قولى للأستاذ بتاعك لو حط إيده على على موش ها يحصل له طيب .. فاهمة يا وليّة؟

كانت تلك كلمات مريم التى لا يقدر عليها إنسان .. ولا حتى أبوه. تتجمد
يدا أبيك فى الهواء مشلولة من الغيظ والخوف.. الخوف من غضبة مريم..
وآه لو غضبت مريم!.. يكتم الأب الهائج ثورته فى بطنه وينفخ كبركان
ممغوص بالحمم وأن أوان انفجاره.. يركلك ركلة خفيفة فى بطنك ثم يرحل
مبرطما:

ملعون أبوك لأبو مريم بتاعتك!

" خرابة البغدادي" .. كانت لصق بيت العجوانية. مساحة كبيرة مترامية الأطراف. مملوءة بالروث والقش النتن والمتعة. كانوا يقصدونها فى العصارى يلعبون الكرة الشراب. وفى الليل تسمى مسرحا لألعابهم العنيفة. "ركبتوا خيولها" - أو نط البصلة- كانت الأعنف بين الألعاب. تجرى بينهم القرعة، فيتم اختيار واحد منهم ليركع، واضعا كفيه على ركبتيه آخذا هيئة البصلة المقلوبة، ويروحون يقفزون فوقه الواحد تلو الآخر، ويتوالى القفز. فى الدور الأول كان هذا " البصلة" ينحنى فيقرب رأسه ووجهه من الأرض ويسند كفيه فوق الركبتين فى وضعية الركوع حتى يسهل على الأولاد النط. ومع تتابع الأدوار يزيد هذا "المنحنى" من ارتفاع جسده تدريجيا، حتى ينتصب واقفا. وكان أحد الأدوار يتضمن أن يرفس الأولاد ذلك الطفل البصلة المنحنى رفسة خفيفة فى المؤخرة بكعب إحدى القدمين وهم يقفزون. وكانت الرفسة تأتى دائما قاسية جدا، والويل لمن يقول "آى"، ساعتها سيعرف العيال نقطة ضعفك، ويكشفون "لبتك"، وتتحول رفساتهم إلى جحيم لا يطاق، خاصة رفسة سيد ابن أم سيد الشلق. كان يعتمد- ابن الجزمة- أن تكون رفسته فى الخصية مباشرة. ذات مرة أفقد أحد العيال وعيه واضطربنا لتشميم "البصلة" الملقى على الأرض بصلة حقيقية كى يفيق. ثم بعد القفز والشجار والشتائم المنتقاة بالألم والأب، وأجزائهما الحميمة الملونة، يحل الليل، ويأتى السكون والهددان وحكاوى العفاريث. وكانت مريم ابنة العجوانى تسليتهم الأهم. كنت فى البداية أتصنع الصمت، وبداخلى شبق هائل للحكى، كى أكون البطل الذى تتجه إليه كل الأبصار. أصمت و كأن ما بينى ومريم سرا لا ينبغى لأحد أن يقف عليه.. لكن متى حفظ العيال الأسرار؟ وعندما كانوا يضغطون لأحكى كنت

أذهلهم وأحكى ما حدث وما لم يحدث فكانوا يرتعدون من الخوف. حتى سيد ابن الفكهانية الشلق كان يرتعد. بياضها- كنت أقول لهم- ليس كأى بياض رأيتموه من قبل. كيف ونحن نراها سمراء؟ لا..لا.. مريم ليست كما ترونها. بالليل مريم التى أعرفها غير مريم التى تعرفون بالنهار. مريم الأخرى جسمها كالثلج وجلدها ناعم وفى الظلام تشع نورا يضئ الغرفة كلها. يبتلعهم الصمت وتشتعل أعينهم ببريق الفضول وأتحول أنا إلى سيد الجلسة بينما ينزوى سيد ابن الشلاقية يقضم أصابعه من الغيظ والرغبة. يريد أن يسمع المزيد. كنت أتمنّع فيزمرجر فأبدأ الحكى: هل تعرفون شعر مريم كم طوله؟ كم؟ حتى كعبي الرجلين. وهل رأيتم من قبل بياض عينيها؟ لا. إنه فى الظلمة يصير نارا محبوسة بين الجفنين، والدموع قطع صغيرة من اللؤلؤ تظل تتدحرج تتدحرج إلى أن تتعلق بالنهدين. وهل رأيتم النهدين؟ هل لامست النهدين؟ لا أجيب فيغرقون فى الصمت واستطرد: والشفتان آآآآآآ.. أصمت قليلا مستمتعا بالدم المتجمد فى وجوههم انتظارا للوصف ثم أقول: تقطران بالعسل كلما فتحتهما لتحدث. عند هذا الحد أتوقف عن الكلام وأسرح ويلهثون هم. يعرفون أننى أتوق لقول المزيد. يأخذنى "السرحان" إلى ما رأيتم بالأمس.. فأحكى ذاهلا:

الردهة الممتدة من باب بيت العجوانية حتى حظيرة البهائم كانت نورا على نور. لم يكن ضياء عاديا كالذى ترونه كل يوم. كان نورا أخضر كالنور الذى يعمى أبصاركم عندما يشق البرق كبد السماء إلى نصفين فى الشتاء إلا أنه نور دائم السطوع لا ينقطع. وكانت مريم تتأوه، وبعينيهما بياض كبياض أعين الموتى، أو كبياض الرغبة المتأججة! رأيتى بطرف العين فأومأت أن اجلس فتوقعت القرفصاء فى الركن. ثم انشقت الأرض وجاء. رآنى فصرخ: إخرج

الآن. قالت بصوت كالغياب: بل يبقى. زمجر هو، غضبت هي، فرضخ ..
ثم بدأ العناق. العين في العين، والشفتان في الشفتين لهيب مستعر، صارا
معا- هي وهو- جسدا واحدا يتلوى صعودا وهبوطا. ومن صخب اللقاء طرت
أنا في السماوات العلا، ثم هبطت، فتبخر هو فكان كأن لم يكن، تاركا جسدا
مريم يتقلص عذوبة وعذابا وينضح بالعرق المدوّخ وبالعبير. كانت رائحة لم
يعهدها أنفى من قبل فأطبقت عيني حتى أحتمل الارتجاج بداخلي. همست
مريم كالغائبة عن الوعي: اقترب فاقتربت. ضمنتى. لم أفهم. وبصعوبة بالغة
تدحرجت الكلمات من شفتيها. قالت: إياك أن تخبر أحدا بما رأيت!

يوليو انقضى وحلّ أغسطس.. وفي أغسطس تنحصر الحارة بين نارين؛ نار تبخها السماء كتنين غاضب ينفث اللهب من منخاريه، ونار تنفضها عن نفسها الأرض رغبة في الخلاص من الحرّ. تلتقى الناران فيهرع صبية الحارة إلى هناك.. إلى التربة الكبيرة على أطراف الغيط. يهرعون وعلى بينهم. التربة في ذلك الوقت من العام تملؤها الحكومة بالماء الدافق لزوم رى الأراضى المتعطشة للرى. يعلو الماء ويعلو فيبلغ الحافة ويكاد يقفز إلى الزراعات المجاورة. ساعتها تكون التربة في منتهى الخطر.. غير أن صبية الحارة أبناء الشياطين لا يحفلون أبدا بالخطر. الأطفال لا يموتون هكذا بسهولة.. هذا ما وقر في أذهانهم الصغيرة.. إلا أن الكبار كان لهم رأى آخر: بل الأطفال هم أكثر من يموت في هذا الموسم! وأنا- دون بقيتهم- أعرف معلومة أخرى لا يعرفونها هم. قالتها لى مريم.. وأوصتني بها:

يا على.. ضعها حلقة في أذنك.. إذا اشتد القيظ تستيقظ العفاريت من مرقدها، ومعها أطفالها يلعبون في الماء.. فحذار يا على من ولوج الترع المترعة بالماء ساعة القيظ.

وقالت لى مريم أيضا:

أنتم يا على- وانتم تسبحون- تركلون أطفال العفاريت بأقدامكم الهوجاء.. وقد تصيبونهم بعاهات مستديمة.. بل وقد يموتون!

أسألها مندهشا أرتعش: وهل تموت العفاريت مثلنا يا مريم؟

فتجيب.. وهى المجربة صداقتهم:

يموتون يا على.. فلكل أجل كتاب.. حتى لو كانوا عفاريت وعندها لن

ترحمكم أمهاتهم يا علىّ .. ستخفقكم جميعا.. سوف تسحبكم الجنيّات إلى القاع ثم تكتم أنفاسكم فتغرقون!

سمع علىّ النصيحة فاستجاب. لا ولوج إلى الماء أبدا في الحر حتى لو انطبقت السماء على الأرض. لكن كان ثمة سبب آخر للامتناع. أبوه. سوف يقتله أبوه إن هو علم بالأمر. وهكذا لم أكن أقرب الترع أبدا.. لا صيفا ولا في الشتاء. ثم جاء هذا الصيف وحيكت المؤامرة ووقعت الطامة الكبرى. تجمّع الصبية الماكرون معا عند شاطئ التربة الفائضة بالماء. تأمروا عليه واستدرجوا سناء إلى المؤامرة. خلعوا ملابسهم فأصبحوا عرايا تلمع جلودهم السمراء تحت وهج الشمس الحارقة. قفروا في الماء.. وقفزت سناء معهم. كالسمكة تسبح سناء أو كدرفيل وضعت أمه الحبلى تحت الماء فأدمن الماء. تغطس سناء ثم تطفو فترسل من شفيتها خيوطا من الماء تغريك بالغطس معها. تغلق عينيها باستمتاع وتستلقى على الماء وتفتح ساقها الطريتين فتبتهج أنت لمرأى الأعضاء الحميمة النابتة كالزغب. تنظر إليك في تحد:

- ياللاً يا علىّ نط!

- لا يا ستى .. مالمش فيه!

- طيب خليك .. ها تفضل كده عيّ طول عمرك!

توخزك الكلمات.. تؤلمك الكلمات.. تحفّزك الكلمات.. وتتركك البنت المغربية العاشقة لتغوص في الماء. ينقح فيك عرق رجولتك المأمولة فتغضب لكرامتك وتقرر النزول: أنا راجل من ضهر راجل يا بنت رجب .. وها تشوفى! تنسى غضبة أبيك المرتقة ووصايا مريم. تخلع عنك البيجاما والفانيلا والكيلوت تكومها معا فوق العشب على حافة التربة وتضع فوقها حجرا كي لا يطيرها الهواء وتقفز فتتلاقى السمكة الناعمة الملمس بين

ذراعيها تسحبك من يديك أنت الذى لا تجيد العوم. تغطس فلا تستطيع العوم. تخال نفسك مت فإذا بيديّ سناء تمتدان تنتشلائك. تحتضنك وتسبح بك تعلمك أول دروس العوم: ما تخافش يا على.. سيب نفسك خالص.. خلى الميه تشيلك وخبّط بأيديك. تطيعها فيحملك الماء كالريشة. تستهويك اللعبة فتكررها. ودلوقتى يا على مد ذراعك وافرده وبعدين شد الميه لتحت. تفعل فتعوم.. وتعوم. إخبط الميه برجليك جامد يا على. تخبط ويأخذك الهيام.. ها أنت تعوم. تهمس وأنت تطرد الماء من فمك فى وجهها كالنافورة وتضحك: راجل ولا موش راجل يا بنت رجب؟ يسرقكم الوقت والمرح وتتأهب الشمس للمغيب فتتسحبون من الماء. تصعد لتجد المصيبة فى انتظارك؛ أبوك عند حافة الماء! لقد سرق ديستيفانو اللعين ملابسك وذهب بها إلى أبيك فأتى لاهثا. يغار ديستيفانو منك على ابنة عمه التى تعشقك وهاهو يكيد لك.. فهيا تلق جزاءك يا فتك. يقذفك أبوك بالبيجاما فى وجهك: أين ملابسك الداخلية يا ولد؟ لقد ألقى بها المأفون ديستيفانو إلى الماء فأخذهما التيار وطار. ضاعت الفانيلا وضاع الكيلوت.. وسوف تضيع أنت الآن! يأمرك الأب الغاضب بعينيه فتتبعه صاغرا مرعوبا إلى البيت. فى البيت حبل سميك مجدول الخيوط سيشد به الأب المحموم بالغضب وثاقك وسيربطك فى ساق السرير وسيأمر أمك المغلوبة دائما على أمرها المطيعة له دون نقاش بأن تحمى السكين على النار.. وستفعل.. سوف يتمزق قلبها عليك لكنها ستفعل وها هو السكين قد احمرت حافته من الوهج. يقترب ملاك القسوة منك. يثبت عينيه الحمراوين- كاحمرار السكين الساخن- فى عينيك.. ويصرخ:

- ها تعملها تانى يا ابن الكلب؟

- أبدا أبدا يا بابا!

- رحت التربة ليه .. موش قلت لك ما ترحش؟

- خلاص والنبي يا بابا خلاص.. آآآآآآآآى!

كان السكين المحمى قد مس باطن قدمك فأطار الألم عقلك فلم تدر ما تقول. نسيت أنه أبوك.. شتمت أباك: حرقنتى بالنار يا ابن المرة الوسخة .. حرقنتى بالنار آآآآآآآآه! تصعقه مفاجأة الشتم فيضع السكين المحمى فى بطن القدم الأخرى. تصرخ كالمجنون فيزداد هو جنونا فوق جنونه. تحس بالسكين فوق بطنك.. وفوق فخذك.. وفوق الإليتين..ولسوف تظل يا على- حتى سنوات العمر المتقدمة- تشعر بالحرق.. وبالضربات المؤلمة.. وبلسعات الكراهية الرهيبة تحرق روحك .. ليس فى يقظتك فقط.. بل وفى كوابيس منامك أيضا.

الفصل الثانى

صاحب الجمل

".. لم يكن يصحو من النوم ليصلّى.. بل كان يمضى
الليل يغزو أحلام نساء الحارة وهن نائمات.. يمر
عليهن الواحدة تلو الواحدة.. ثم يمشى إلى المسجد الكبير
يغتسل من الجنابة!"

٥

أترك غرفة مريم سكرانا بالعرشة والرائحة الفذة المثيرة فى الأنف. صورة
مريم العارية تتأوه متلذذة لا تغادرنى. أمشى فى الدهليز مسحورا مسكونا
بدوامات الأسئلة: ماذا بالضبط كانا يفعلان؟ هذا نشاط محموم لا أعرف
أسراره. يفاجئنى الباب، ويكون الظلام آنئذ سيد الكون، فتتدلّق إلى الذاكرة
أساطير هذا الباب، وأعدو لا ألوى على شىء. كنت أهرب. باب بيت
العجوانى باب عجيب. كتلة صماء من شجر الكافور الصلب. سميك لا
يمكن إلا لعشرة رجال أشداء أن يزقوه فينفتح. باب غريب، لم يحركه أحد من
دهور. وكان مفتوحا على فتحة واحدة ضيقة تسمح فقط بمرور شخص واحد.
ورغم الفراغات الهائلة بين ألواح الخشب المرصوفة بالعرض إلا أن كائنين
اثنين، كائنا من كانا، لا يمكنهما المرور معا. فى منتصف الباب كان ثمة يد
نحاسية على هيئة كف بشرية مضمومة صنعت لطرق الباب. لم يستخدم أحد

أبداً تلكم الكف، كما لم يطرق الباب أبداً أحد. فهل وضع صانعو الباب الكف حتى لا يستخدمها أحد؟

قال القائلون - فيما قالوا- إن الجن هم صناع الباب، غير أن إنساناً لم يرههم وهم يفعلون. قالت الأساطير إن في أسفل بيت العجوانى مستعمرة للجن شاسعة شهدت في الماضي قتالا مريرا بين فريقين من الجن، أحدهما مؤمن والآخر كافر.. فلما سقط في القتال مئات آلاف الجن من الطرفين، وسالت الدماء الزرقاء بحورا، نزل شيخ الجن من السماء السابعة إلى أرض المعركة لفض القتال، وأمر ببناء هذا الباب العتيق ليفصل بين العالمين، عالم الزناديق وعالم العابدين. وحفر لنفسه سردابا مظلماً أسكنه محظيات له انتقاهن من أجمل نساء العفاريت، وما هذه الكف النحاسية المضمومة إلا المدخل لهذا السرداب السرى المخبوء. وكنت تجد فوق الكف النحاسية المضمومة- على مسافة نصف المتر تقريبا- تمثالا نصفه وجه امرأة آدمية ، والنصف الآخر وجه ذئب غاضب فاتحا فاه مبرزاً نابيه اللذين يقطران دما. كنا نسمى التمثال "المسخوط" . والغريب أنني كنت- كلما تأملت النصف الآدمي- كنت أرى صورة مريم وهى فى لحظات الاشتهااء المجنونة التى كم فاجأتها متلبسة بها. قالوا: إن شيخ العفاريت، عندما نزل إلى برجاس الحرب، وأمر المتقاتلين بالكف عن الاحتراب، رفض قائدا الجيشين الرضوخ لإرادته، وواصل القتال، فغضب، ومسح أولهما قردا، والآخر خنزيرا، وقطع عنقيهما، وعلق الرأسين فوق الباب وراء تمثال المسخوط. وقالوا: إنه مع انتصاف كل شهر عربى، واكتمال القمر بدرا فى كبد السماء، كان التمثال "المسخوط" يقطر الدم قطرة قطرة، ويصدر أنينا مكتوما. وقالت نسوة بالحارة: إن أى امرأة عاقر لو استقبلت تلك الدماء بداخلها لحملت فى ساعتها، وهكذا كنت ترى نساء أتين

من كل حذب وصوب، مقعيات، فاتحات سيقانهن فى أمل واستعطاف، ليستقبلن قطرات الدماء فى أرحامهن، فلا يجروا على منعهن أحد، وإلا سقطت فوق رأسه لعنة صاحب الدم، كبير قادة العفاريت. وقالوا: إنك إذا نظرت إلى العينين اللتين تقطران دما، فسوف تجد العينين تدوران يمينا ويسارا فى ألم رهيب، وكأنهما عينا سجين معذب يبحث عن الخلاص. وقال واحد منا، بل وأقسم: أن أباه حكى له أن جده ذهب يصلى الفجر فى الجامع الكبير، فنظر إلى الباب العتيق، ورأى نصفى الوجهين يتقاتلان قتالا مميتا، فلما توجهت عينا المسخوط والتقيتا بعينى الرجل، ظل الرجل مثبتا فى مكانه، ولم يتحرك حتى مات. والأمر العجيب، أن الوحيد الذى كان قادرا على دفع الباب فيفتح على مصراعيه، كان عبد الستار "صاحب الجمل". كان عبد الستار يدفع الباب بأصبعه السبابة بمنتهى الخفة، فيلين له الباب ويطير من أمامه طيرانا، حتى أنه كان يصططق فى الجدار فيحدث دويا هائلا.

ذات يوم انحشرت دابة سميكة فى فتحة الباب الضيقة، وحاولت التملص فانحشرت أكثر، وصرخت، فهرولت الحارة جميعها إلى الدابة، فلم يستطع تحريكها إنسان، فسارعوا إلى عبد الستار فى الحقل: إلحقنا، فأتى على عجل. لمس الباب لمسة واحدة فتحرك الباب، وانطلقت الدابة تجرى لاهثة فى طرقات الحارة وكأن بها مسا من جنون، فعاجلوها بالسكاكين، ووزعوا لحمها على فقراء الحارة. يومها أفتى عبد المولى شيخ المسجد بأن الدابة الممسوسة رأت ما ليس من حقها أن تراه، فاستحقت الذبح. صرخ شيخ المسجد: "هذا لحم ليس للبيع.. هذا لحم سكنته العفاريت.. والفقراء أولى به." وعندما اعترض صاحب الدابة، تقدم ثرى من الأثرياء فاشتراها منه ووزعها صدقة

على المحتاجين. ومن يومها صار عبد الستار صاحب الجمل أسطورة الأساطير، فعشقتة مريم!

وكان الباب يضىء كلما مرت به مريم !

قالوا: إن شيخ العفاريت يعشق مريم، إلا أننا جميعا كنا نعرف أنها إنما تعشق عبد الستار ويعشقها. قال بعضهم: إن شيخ العفاريت إذا ما أراد موقعة مريم كان يتلبس جسد عبد الستار، ويركبها. وتساءلنا: هل شيخ العفاريت من أصاب مريم بالنشل؟ وكان العارفون بالأمر يجيبون: إن عبد الستار - وهو فوقها - تكون في جسده قوة سبعين رجلا. تلك أبدا لم تكن قوة عبد الستار، بل كانت قوة شيخ العفاريت. وهكذا كان عبد الستار أقوى رجال الحارة، وأقدرهم على جعل أى امرأة تفقد رشدها، حبا وشهوة وألما، إن هى وقعت بين ذراعيه. وقالوا: ولا امرأة واحدة بالحارة لم يواقعها عبد الستار.. إلا أن الأمر كان يجرى فى صمت، وبموافقة كل الرجال. كان الرجال - فيما بينهم - يتضحكون ويتهايمسون:

يا رجل وهل تصدق؟ إن هذا إلا شغل العفاريت!

وزعموا أن عبد الستار، المدمن لصلاة الفجر كل يوم، لم يكن يصحو من النوم ليصلى، بل كان يمضى الليل يغزو أحلام النساء وهن نائمات، يمر عليهن الواحدة تلو الواحدة، يرعشن الرعشة المقدسة.. ثم يمشى للمسجد الكبير ليغتسل من الجنابة، فيتطهر، و يصلى بالناس إماما! طفل منا - وكنا جالسين بخراية البغدادى نسمر - تندر قائلا: أتعرفون .. إننا جميعا أولاد عبد الستار صاحب الجمل، حلمت أمهاتنا به على علم منهن، فأتينا نحن إلى الدنيا. فلما سألناه: وماذا عن آبائنا يا نبيه؟ أجاب فى ثقة: ربك يسبب الأسباب! وكنت - كلما أرسلونى إلى مريم لأجلب لأمى بعض الملح أو رأس

ثوم أو فحل بصل- أرى مريم تنتظر فى هيام من خلف قضبان النافذة الحديدية إلى عبد الستار وهو يجرى وخلفه الجمل حول الخرابة. كان يبادلها النظر، وبيتسم، ثم يصرخ فى الجمل: "إجرى يا حمار!"، فيضرب الجمل بالقلّة، ويهرول جذلانا، فيطفح اللعاب الأبيض الكثيف من فمه على هيئة كرة، وتضحك مريم. أقترّب منها. تحتضنى، وتهمس لى: "والنبي.. موش عبد الستار حلو.. بذمتك ودينك يا على؟" .. فكنت أخطف رأس الثوم، أو حفنة الملح، وأفر من أمامها هاربا، فتغرق فى الضحك، وتهتف متألقة من الفرحة:

- سلّم لى على امك!

فأداعبها:

- طيب يا عفريّة يا بنت العفاريت!

.. ثم كان أن أنقذنى عبد الستار من موت محقق ..

عندما كتب الله العذاب على علىّ قسمه نصفين؛ نصف من الصباح ويمتد حتى الظهيرة.. ونصف آخر يبدأ مع انتصاف النهار وحتى قدوم الليل. النصف الثانى مكانه الحارة.. وأما الأول ففي المدرسة. كانت المدرسة هي العذاب المقيم. ثلاثة عذبوا عليّا عذابا ظل يطارده فى أحلامه حتى بعد أن كبر و غادر الحارة وصار رجلا راشدا.. أبوه، وديستيفانو، والأستاذ "المحنكر".

مدرسة الناصرية الإعدادية التجريبية المشتركة؛ خن ضيق محشور بين بنايتين للحكومة؛ المحكمة الشرعية ذات الحديقة العتيقة التى سكنتها العفاريت ومبنى البلدية الذى بناه الإنجليز. فصول المدرسة كعشش الدجاج الذى تربيّه أم شفيق بائعة المحوّة. وفى المدرسة تحبس بولك وأنفاسك فلا تتنفس إلا فى "الفسحة". سبعون من العيال أو يزيد تجمعهم العشة الواحدة. نتكدس فلا تشمّ منا إلا رائحة التعرق وبقايا الغائط غير المغسول وأنفاس البصل والكراث والفجل والجبن القديم المسرل بالعفن. هنا.. لا تسمع إلا كل شنيع من القول ولا ترى إلا وجوها تثبها لدغ البراغيث والبق فأدماها. وكان الضرب على القفا هو النشاط الأبرز للجميع. الكل يضربون الكل - بالقلم وبالشلّوت وباللوكامية - وكان المدرسون يضربوننا جميعا إلّا أن الأستاذ المحنكر كان أطرشهم يدا وأغشمهم قوة وأكثرهم إيذاء وأشدهم إيلاما وأبرعهم فى ابتداع فنون التعذيب اليومية المبتكرة.

الرأس صلعاء إلا من فتلات نائثة نبتت على الجانبين على استحياء. البطن ممتدة إلى الأمام كبطن أم سيد الفكهانية الشلق الحامل فى العيال دائما. أصابع اليد منفوخة نام تحت أظافرها الوسخ من آلاف السنين. العينان

محمّرتان صغيرتان مضغوطتان كعيني بومة شاردة أو كعيني صقر متحفز
للانقضاض.. وللسان قذارة تعكر البحر المالح. يدخل فنصمت كلنا صمت
القبور. تبحث عيناه عن عليّ فتجده محشورا بين عملاقين جلسا فهرسا جسده
النحيل فبدا كأنه ظل إنسان لا وجود له. يعرف المحنكر ضعفه فيتخيره هو
دون سواه ويشخط في غضب: "اطلع يا ابن الجزمة على السبورة!" تطلع..
فيقبض رأسك المرتجف بكفيه الغليظتين ويخبط دماغك في اللوح الخشبي
الخشن الأسود الكالح فيغرق الدماغ في جير الطباشير وتدوخ فيرتج رأسك
وتزوغ عيناك لا ترى إلّا دوائر منملة.. فلا تكاد ترى:

- بتتكلم ليه يا ابن "الجزمة!"؟

- ما اتكلمتش يا افندى!

- وكمان بتقاوح؟ بترد عليّ يا ابن المرة؟ اعبطوه!

"العبطة" اليومية تزهق الأرواح وتجعلك "مسخرة" الفصل كله. يسحبونك
فيجرجرونك على الأرض ويجلس أحدهم في بطن "الدّكة" يمسك بيدك بكل
عنف المتربصين الراغبين في إزاحة قهر أنفسهم إلى الآخرين ويجلس الآخر
مقرفصا تحت الدّكة يقبض بذراعيه على قدميك يضمهما إلى صدره بكل
الغضب.. غضب الكارهين لحياتهم وللدنيا وللناس جميعا. تصبح محاصرا
مقيّد اليدين والساقين من فوق ومن تحت.. ومؤخرتك بارزة للمحنكر الهائج
كثور. يتذكر المحنكر جوع بطنه التي لم تقطر في الصباح وها هي تتلوى
فتمغص ويهوى بالخيزرانة الرفيعة الملساء على مؤخرتك يلسوعك. يتذكر
المحنكر زوجته التي ككيس قطن مهترىء انقطع عنه الطمث فبات المحنكر
يبيت لياليه محروما من تصريف شهوته المتأججة وينهال على مؤخرتك
لتنبتق منها النار تكويك. يتذكر المحنكر مثانته المختقة بماء البول المحبوس

المتراكم- والتي تكاسل هو عن إفراغها- وينزل على مؤخرتك يشويها بالخيزرانة شيّا.. وها هي المؤخرة الآن جحيم لا يطاق من الألم والسخونة. وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد. "آآآآآ هـ.. كفاية والنبي يا افدى.. حرّمت والنبي". يومىء لهم الثور فيتركوك ليركلك هو بقدمه فى بطنك ثم يرفع رأسه فى شموخ المنتصرين فينظر فى عينيك ليستمتع بهوانك ويتلذذ بلحظة الفوز المظفر المسكرة لروحه المكتّبة. يرى المحنكر الذل فى عينيك فيبتسم فكأنه فتح عكا. يلفظك فيتسلمك الزبانية الشياطين زملاؤك أبناء الحارات البائسة المنقوعة فى الغل والجوع والحقارة. يشبعونك ضربا على القفا وأنت عائد إلى "دكتك" متراقصا من الألم. تترنج فتبكي وتتمنى موتا لن يجىء بسهولة ولن تناله.. فتتظر إلى الساء معاتبا: "ليه يا رب كده بس؟".

عذاب بالنهار فى المدرسة على يد المحنكر.. وعذاب بالظهيرة بالبيت عل يدى أبيك.. وعذاب فى العصارى بالحارة على أيد ديستيفانو وعصابته الشامتة!

.. يدق "الجرس" فنهول كخراف صغيرة جاعت طوال الليل وهاهم قد فتحوا لها أبواب الحظائر لترعى. ندهس بعضنا بعضا ونحن إلى "الحوش".. وفى الحوش عذابات جديدة. الحوش شلل.. ولكل شلة سيد.. وآه يا حلو لو لم تكن لك شلة تحميك.. سيركلك الآخرون فتصبح "الهفيّة" والحائط المائل المتروك فى العراء لأى "محزوق" فى التبول فيأتى ليتبول عليك. تصير قربانا من القرايين التى يضحون بها فى سبيل إسعاد الزعيم. وكى تكون واحدا من شلة فلا بد أن تتوفر فيك شروط ثلاثة؛ إما أن تكون مفتول العضلات يهاب عضلاتك الجميع.. وهذا ما لم يكنه على.. أو أن تكون "لدولا" قابضا على فنون التذلف والحليطة فيرضى عنك "الفتوة".. وهذا ما لم يمتلكه على أيضا..

أو أن تكون" ابن حد كبير" يسعى كل من بالمدرسة لنيل رضائه وساعتها ستخشاك الشلل والمدرسون والدنيا جميعا.. وعلى ما كان أبدا ابنا لكبير فصار ملطشة للجميع والممسحة التي يدهسها أى مشتاق للدهس!

يمزقون أزرار "مريلتك" المخاطة من قماش ردىء؛ تيل نادية الأصفر الباهت.. تلك الأزرار الخلفية التي ستمضى أمك ليها كله تعيد تخطيطها لك ثم تشكوك لأبيك وهو يشوف شغله معك. وسوف يشنكلونك بسيقانهم التي ما إن تراك قادما من بعيد حتى تمتد عن عمد تكعبك فتسقط تنمرغ فوق التراب الناعم فيتضاحكون فى صخب ويسبّون أمك وأباك فلا ترد إلا ب" الله يسامحك يا عمّ أنت وهو!". يلعبون الكرة الشراب فلا تكون أبدا واحدا من اللاعبين.. وإن هم أشركوك- و نادرا ما كان يحدث- فإنك حتما ستقف حارسا للمرمى لتحمل أوزارهم كلهم عندما يحرز الآخرون الأهداف. سيصرخون فيك:" خرموك يا اهل!".. وتتهال على صدغك اللطمات والصفعات ثم يطردونك شر طردة فتجلس إلى جوار الحائط تبكى ضعفك وهوانك على الناس.

وليه الأذية؟.. ملعون أبو الكرة.. الطيب أحسن!

تخشى الجميع فتخرج من الفصل مرتعدا متلصصا تتربص فلا تجرؤ على الولوج إلى صحن الحوش بل تمشى تحك جسدك على الجدران كقط أجرب. تتجنب لقاء أى إنسان. يحط بك الرجال فى الحديقة الصغيرة التي لا يدخلها المشاغبون. "ممنوع دخول الحديقة كى لا تدهسوا الورد فيموت".. هكذا كتبوا على باب الحديقة التي لم يكن بها أبدا أى ورد. لكنك مع ذلك تدخل.. مجبرا تدخل فتختبئ تحت الشجرة وتخرج من جيب مريلتك" القرصة" وقطعة الجبن الصفراء والبلحيتين "السّماني" اللتين صرفوهما لك فى الفصل قبل الفسحة

ومذاقهما فى فمك كالعسل. تبدأ المضغ اللذيذ.. لكنك تلتفت فجأة فترى عينين تراقبانك فى حذر كعيني كلب برى أهلكه الجوع فأسرع نحوك يتلمظ. تلك نظرات تعرفها جيدا يا على.. تلك نظرات الجائعين.. أنظر للعينين فأرى فيهما عينيَّ عاطف. أعرفه ويعرفنى. منبوزان جرفهما تيار الحياة إلى الهامش فالتقيا.. تعارفا فالتقيا.. وجمعهما العذاب!

عاطف جاء من " الفلاحين" .. من إحدى القرى البعيدة على أطراف "الفلاحة". يأتى إلى المدرسة سيرا على قدميه الموحلتين. يمشى أربعة كيلومترات عند المجيء ومثلها فى العودة. يصحو مع الفجر وينام عند الغروب. ودائما معفّر معفّر مهلهل الثياب هش الشعر حافى القدمين تائه يتخبط.. ودائما جائع. انجذب "على" إلى عاطف انجذاب الذباب إلى القمامة. ذبابتان تافهتان لا ذكر لهما ولا قيمة هاربتان من لسعات الخيزران والضربات الموجعة ومن سخرية المدرسين والعيال. الحديقة المحرمة باتت لهما "الوجاء" والإنقاذ وواحة الأمان. يتسللان فيتخير كل منهما ظل شجرة يلقي بظهر جسده النحيل المهودود الجاف إلى جذعها وينظر إلى الأرض مبتئسا ويسرح.. أو ينظر نحو السماء فيهميم. ثلاث خصال شدّت عليا إلى عاطف؛ أولها رائحة الروث. عندما احتكّ به أول مرة شمّ علىّ الرائحة فعرفها. رائحة روث لكنه ليس كروثنا نحن فى الحارة. كان روثا مختلفا؛ كثيفا معتقا حادّا حيا.. ونقيا. عاطف يعمل مع أبيه فى قطع الزرائب. أبوه "كلّاف" ينظف لبقية الفلاحين حظائر بهائمهم بالأجر وعاطف فى صحبته فلا يتحمم. يأتى إلى المدرسة ورائحته فى كفيه، وفى مريّلتة، وتحت إبطيه، وفى أنفاسه.. فاعتزله زملاؤه: ريحتك وحشة يا ابن الكلب.. امش بعيد. يصرخ فيه المدرسون بل والفراشون القادمون مثله من " الفلاحين". الجميع ينهرونه.. يوبخونه..

يشتمونه.. وقد يصفعونه على قفاه فيهرب من أمامهم كجرو وحيد أجرب مهشم الساق دهست أمه شاحنة وصار يتيما لا يعرف أين يروح. يهرب إلى الحديقة فيلتقى هاربا مثله!

.. وأما الخصلة الثانية التي جذبتني إليه فكانت عيناه. لقد حصدوا الألم ثم طحنوه وهرسوه وعجنوه مع كثير من القسوة والوحشية وقطّروه.. فكانت عينا عاطف. أنظر بداخلهما فأرى الألم كائنا حيا يسير على قدمين. ينفطر قلبي ويتمزق - أنا المهان المضروب المستذل - كلما التقت العيون. وعرفت لماذا. عاطف لا أم له.. بل زوجة أب مجرمة شبيقة لا تشبع وأب خانع لها ضعيف أمامها قاسى القلب عليه متحجر الروح والوجدان. كنت أسمع منه "عماميل" أبيه فيه فأسأل نفسي: هل كل الآباء حقراء هكذا؟ وكانت زوجة أبيه ترسله إلى المدرسة جائعا يتلوى.. فأمنحه "قرصتى" يتقوّت بها.

.. وأما الخصلة الثالثة فصوته. أعذب صوت سمعت فى عمرى - بعد صوتك يا مريم - كان صوت عاطف. يسند ظهره إلى الشجرة ويغنى فأشعر بقلبي يرقص فرحانا من النشوة.. وآه من الفرحه عندما تكون منتبهة انتهابا. من وسط الآلام والمهانة والكرب العظيم يطلع عليك صوت شجى يغنى.. وَاَاَاَا.. من الجمال. "حسّك حلو.." قلت له.. فامتقع وجهه ببقع حمراء يتخللها الاصفرار الأبدى القاطن فيه منذ الأزل وقام يهرول متعجبا غير مصدّق يركبه الشك. وحين سألته فيما بعد: لماذا هربت منى يا عاطف؟ قال: خفت تضربنى!

ما هذا الكلام الفاضح المكشوف الذى يردده هذا الولد فى أغانيه فلا يشعر معه بالغرابة؟ من أين أتى بالكلام الصريح؟ كيف بأسماء الأعضاء الحميمة تتطلق سهلة هكذا من فمه كالنهر الجارى دون خجل ويحسب أن

هذا هو الشيء الطبيعي؟ الحاجة دى اسمها كده.. يبقى خلاص.. نحن ننطقها كده.. فى قريتنا يقولونها كده.. فلا ندم ولا إحساس بالخزى.. تلك أغانيهم.. وتلك حياتهم.. وما هو الولد يردد ما سمع.. وحسّه حلو. أول أغنية سمعتها منه أرعشت روحى.. فتلفت حولى أرى إن كان أحد قد سمع. الحمد لله لم يسمع الأغنية إلا أنا. كان يدندن منسجما فى صوت خفيض كعصفور يغرد بما أمرته به الطبيعة غير معتقد أنى أتابعه. تسربت الكلمات إلى مسامعى فتذكرت بشرى وسناء وارتبكت وانتشيت وتمددت أعضائى.. سمعت فلم أصدق: "قلّعها الحرير واتكل على الله!" عشقت أغنياته فلما تصادقنا واطمئن إلىّ وأحببني وعرف منى أن كلماته لها معنى فانتشى كما انتشيت غناها لى فغسلت أغنياته روحينا من الهم. أغلق عينيّ وأهمس: غنى يا عاطف.. فيغلق عينيه هو أيضا ويغنى بصوت خافت جميل:

"هيصه.. هيصه

هيصه ع السرير

هيصه

قلّعها الحرير

هيصه..

واتكل على الله"

أهتز طربا فأتمايل وأمدّ يدي ببقايا" القرصة" التى كنت قد قضمت منها قزمة واحدة. يتلقفها سعيدا على استحياء فأتوسل إليه مستعطفا: غنى يا عاطف.. فيغنى:

هيصه.. هيصه

هيصه فى الحمام

هيصة..

شمّر وقام

هيصة..

قلع الحزام

هيصة..

مسك اللجام

هيصة..

واتكل على الله!

أسمع أسماء الأعضاء الحميمة والألفاظ العارية الحارقة تخرج من فمه
منسابة رقراقة صافية كجدول يسرح حرا بين الصفصاف فأطير على أجنحة
الخيال.. غنى يا عاطف.. فيغنى:

هيصة.. هيصة

هو ضربنى..

هيصة

وانا ضربته

هيصة!

هو ضربنى بورك الديك

هيصة..

وانا ضربته بورك الديك

هيصة

طول الليل يحضن

و "ي....." هىء هىء.. يا دلعو

دلعو يا دلعو..

الحب ما حدّش منعو

واتكل على الله!

أخبط رأسى فى جذع الشجرة فلا أشعر بألم.. كمّل كمّل يا عاطف..

فيكمل:

دخل الحوّاس

هيصة..

حضن.. وباس

هيصة..

قلع ال "ل...."

هيصة

واتكل على الله!

يخرب بيتك يا عاطف. أقترّب منه ظمّانا للمزيد فألتصق به وأنسى

الرائحة. تطربه تلك الحركة حتى الانتشاء فتلمع عيناه بالفرحة والفخر وأرى

فى عينيه الامتتان. أهتبل الفرصة وأمره: غنى يا عاطف فيغنى:

هيصة هيصة

هيصة ع المحطة

هيصة..

حطّة يا بطّة

هيصة

لعبّها النطّة

هيصة

وطّت.. ووطّى

هيصة.. هيصة..

واتكل على الله!

.. يأخذنا الهيام فننسى أنفسينا ونزعم بالغناء فيسمعنا عفاريت الإنس
الذين أنهموا للتو "ماتش الكورة" فى الحوش. يسارعون نحونا بحثا عن صيد
سهل يكملون به الفسحة. أراهم فأحضن يده وانهض معا ونجرى. يلاحقوننا
فلا يستطيعون الإمساك بنا.. وكيف يفعلون مع أرنبين مذعورين أمضيا
عمريهما فى هروب دائم؟

طرت إلى مريم أشكو بؤس حالى بعد اللسعات الموجهة ووجع الروح والجسد . نظرت بحزن إلى الخيوط الدامية المتقاطعة فوق جسدى من أثر الحرق وإلى بقع الدم الموشكة على التجلط وإلى بلور الدمع يتجمع بين الجفنين الباكيين . ضمتنى إليها فى حنان وحاورتنى . قالت عيناها لى:
 قل لى يا على .. من أين ينبعث اللهب الكبير يشعل الأعضاء كلها؟
 قلت: من اللحم الرخو الضعيف المتناهى الصغر يا مريم!
 إذن قل لى:

فمن أين يشتعل أخدود النار العظيم؟
 قلت: من الشرر المتناهى الصغر يا مريم!
 فمن أين تأتى فيضانات المحيط الهادر يا على؟
 من قطرات المطر المتناهىة الصغر يا مريم!
 ومن أين يأتينا الدفء يا على؟
 من شعاعات متناهىة الصغر ترسلها لنا الشمس مع الصباح يا مريم!
 فلماذا تستهين يا على بالضالة التى فىك؟
 لا أفهم .. زىدينى يا مريم!
 قالت: لا تستهين بالضالة أبدا يا على .. فما الضئيل إلا نبتة من أصل كبير ممتد ومنتشر .

تقصدين البدايات يا مريم؟
 بدايات الأشياء تقود دوما إلى نهاياتها!
 .. لكننى أكره أبى يا مريم!
 دقق النظر فى كل صغير فىك تعرف مستقبلك!

.. يضربنى الرجل دائماً فيدمينى يا مريم!
إذن فاعلم أن مثلثات النار فى جوارحك الآن إن أنت أيقظتها فقد وجدت
لذتك الكبرى!

تحرضينى عليه يا مريم؟
لما تكبر ستعرف الإجابة .. فما الكراهية إلا بداية للحب الكبير!
تصحينى بمحبة من أكره؟
لا يا على.. إياك أن تدع" الكبير" يسرقك من أشيائك الصغيرة.
.. وتلك النار المضطربة فى روحى تطلب الثأر يا مريم؟
إذن لا تدع جوع النار يخطف منك الشبع.. وفى الحب الشبع!
هذا عن الشبع .. فماذا أقول للجوع؟
.. وهل تدرى ما الجوع يا على .. ليس الجوع مغصة بالبطن تؤلمها كما
تحسب!

فما هو يا مريم؟
الجوع أن تظل روحك تأكل فلا تشبع.. الحب يا على هو شبع الروح!
.. والحنان المفقود أين أجده؟
الروح أصغر ما فيك.. فابحث عن إشباع" الأصغر" فيك تجد حنانك!
.. وكيف؟
اقرأ.. اقرأ كثيراً يا على .. فكلما قرأت أكثر ستجد الإجابات.. وستأخذك
الإجابات إلى حنانك الضائع .. وإلى الدوامات الممتعة.. حيث الحب!
قلبى محزون يا مريم .. حاولت حب الرجل ما استطعت لكنه قطع كل
السبل إليه!

أبوك يحبك يا على.. إلا أنه غاضب من الدنيا والأيام.. فحاول معه من جديد..

يضريني!

إنس الإساءات ولا تتسلى أن حنانك فيك أنت ومنك.. فلا تطلبه عند الآخرين

ولا حتى عند أبي يا مريم؟

ستحب أباك إن أنت أحببت نفسك ولا تتسلى أن البرعم الصغير ننشأ منه الشجرة المورقة.

أكرهه يا مريم!

إزرع النبتة تجد الحصاد .. ولا تتعجل .. فإن أعينك الحيل تعال إلى.. وإياك أن تكرر لفظة الكراهية تلك على مسامعي بعد اليوم!

يتقرّس علىّ في الرسم الموشوم داخل البساط الممدود على الجدار خلف سرير مريم فيغرق في السحر والنشوة. العشب الأخضر الينع المرسوم في الرسم، يبدو كأنه عشب حقيقي، و تفوح منه رائحة الحقول، فكانت الرائحة تصل إلى أنف علىّ فتدوّخه. يسمع خرير الماء في الجداول الدقيقة الملتوية فكأن الماء يجري الآن في الغرفة. نضارة جلد الحور العاريات اللائى في الرسم ليس كمثلها نضارة. ينظر علىّ فيراهن يتجولن ببطء واسترخاء يغطيهن شعرهن من الرأس حتى القدمين. يملأ عينيه اصفرار الرمل في الصحراوات الهائلة فيكاد يحس بوخز الرمل في جفنيه. إلا أن ما كان يسلب لب علىّ فيتوه عن الوجدان، كانت تلك "المهرة" المطهمة البيضاء كالشمع والتي عيناها نار خامدة هدأت بعد طول اشتعال وفيها كل سكينة الدنيا وسلامها ووداعتها. كان قلب علىّ ينخطف كلما نظر في عينيّ المهرة. كانت تضحك له

فیتساءل: كيف تبتسم عینان جامدتان فی رسم صامت هكذا؟ ما هذا الرسم العجیب؟ ترى مریم تقلّب وجهه فی الرسم وتقرأ حیرته فتستدير للرسم وتلّوح للمهرة فتصهل المهرة ویسمع علی الصهيل فیرتّبك. أهذا صهيل حقا أم هی تهویمات خیاله؟ تبتسم مریم وتهمس له: یوما ما سأخذك وندخل الرسم یا علی.. لا يفهم ماذا تقول. یصمت.. فمتی كان علی يفهم كل ما تنطق به مریم ؟

على صرخات أُمى الملتاعة المرعوبة، وصيحات أبى اليائسة، استيقظت. كنا نسكن الطابق الرابع. كان أبى منزعا كما لم أره من قبل. وكانت أُمى تبكى وتلطم خديها. أفرك عينيّ مرعوبا نصف نائم. أمّه .. بتعيطى ليه يا أمّه؟ أبوك.. جايين يضربوه يا علىّ! يتملكنى خوف رهيب. ارتعدت. كانت الشمس قد توسطت السماء والحرارة قاتلة. وهاهم قد احتشدوا أسفل البيت وفى أيدى رجالهم الشوم وعصيهم الغليظة المشهورون بها. ورفعت نساؤهم "الشباشب!".. بيّتوا أمرهم ليل وهاهم قد اتوا ينفذون ما خططوا له.

- فيه إيه يا أمّه؟

- عاوزين يضربونا ويطردونا من الحارة يا علىّ!

ابنة أحمد الصقراوى الفاجرة "بشرى" اشتهدت أبى، كما اشتهدت كل رجال الحارة من قبل فلما رفض الانصياع زعمت كذبا أنه يراودها عن نفسها وهاهم الجبابرة- عائلة الصقاروة - تجمعوا للفتك به. صدّقوا فاجرتهم اللعوب وكذبوه. بلغ بى الذعر كل مبلغ فسال ماء بولى فوق فخذى يغرق السروال الضيق. شمّت أُمى الرائحة فلطمت صدغيها وارتفع نحيب أشقائى الصغار. وسارع أبى المقتول خوفا إلينا يضمننا إليه. ارتعش جسده فارتعد جسدى وقفزت الفكرة كالإلهام إلى رأسى: " ليس لك الآن يا علىّ إلا مريم!". تسللت من بين يديه فتعجب وتركنى أعدو فأخذت السلم قفزة واحدة.. كانت قفزة خوف. حاولوا الإمساك بى. نجحت فى التملص منهم وسارعت إلى بيت العجوانية. تسللت من فتحة الباب العتيق. طرقت باب غرفة مريم. كانت نائمة. لكزتها فاستيقظت مذعورة: مالك يا علىّ؟ أبويا! ماله؟ ها يموتوه يا مريم! سردت عليها القصة على عجل فابيضّ وجهها من الغضب. صرخت:

طيب يا بشرى يا بنت الكلب إن ما وريتك.. إسمع يا على! نعم! إجرى انده
لى عمك عبد الستار بسرعة! طرقت الباب فصحا: "مريم تريدك"، قلت
هامسا. وضع جسمه الممتلىء المقتول فى جلبابه وهروا إليها: ها يموتوا
الراجل الغلبان.. ده يرضى ربنا؟

عبد الستار الصامت المعتزل الجميع- وابن عمومته- هجم عليهم،
وشق صوته الفضاء، فتجمد الدم فى عروقهم: يالآ يا ابن الوسخة متك له من
هنا! حاول رجب الصقراوى الكلام فلكمه عبد الستار فأسقط أسنانه فهرب
يعوى كالكلب. كرر عبد الستار صرخته: قلت خشوا أنت وهو بيوتكم..
دلوقتى! تدافعوا مذعورين. انسحبوا ورؤوسهم إلى الأرض. وقبل بلوغ أبواب
المنازل هتف فيهم: الراجل ده فى حمايتى.. اللى ها يفكر منكم فى أذيته
يجهز كفته من دلوقتى. قالها ونظر إلى مريم فى خيلاء فهزت رأسها له فى
حب. مضى عائدا ومكتنا نحن فى الحارة لا يمسننا أحد. جريت إلى حضن
مريم، وبكيت فى حرقه، فأبكيتهام معى. ومن يومها وضعت "فاجرتهم" فى
رأسى فدفنتى هي فى صدرها!

أصعد الدرج خائفاً. سبع سلّمات عند مدخل المبنى الكبير. أبلغ الباب الزجاجي الكبير المفتوح على مصراعيه. أتجاوز الصالة فأدخل إلى اليسار حيث الغرفة الضخمة العالية السقف. يبهرنى المشهد فأنساني. الحوائط - من السقف وحتى الأرضية البنية الخشبية الألواح - كلها أرفف متوازية بشكل أفقى. المسافة بين الرف وأخيه نحو نصف المتر. فوق الأرفف تراصت الكتب. كتب من كل حجم؛ كبيرة عملاقة، ومتوسطة منتفخة، وصغيرة محدقة.. أغلفتها من كل لون.. كتب طويلة وأخرى قصيرة.. زرقاء وحمراء وخضراء.. وكتب غلافها أسود.. ما كل هذه الكتب؟ قالت لى بشرى: تحب القراءة إذن فاذهب إلى مكتبة المركز الثقافى بجوار محلج القطن هناك ستعثر على بغيتك وسوف تجد خلاصك. رأيتى أتصفح مجلاتها العارية الملونة بشغف ذات يوم فابتسمت: إنت بتحب القراءة يا على؟ أوصتتى بهذا المبنى الكبير.. وها أنا جئت. حافى القدمين، مهلهل الثياب، لا تستر جسدى سوى بيجاما مخططة الأقلام بالطول، أزراها سقطت من الشقاوة والقدم والبخل، وبنطالها مكرمش رجلاه مشمرتان حتى الركبتين. أقرأ الياطرة المعلقة على يسار الباب المكتوبة بالنحاس المترب: " مكتبة المركز الثقافى"..

دخلت مرعوباً ألتصص. تلك كتب لم أر لها مثيلاً من قبل ولا حتى فوق الرف الذى يعلو فراش الشيخ عبد المولى شيخ المسجد الكبير فى غرفته الضيقة التى يرفع منها الأذان. أمد أنفى نحو الداخل، ثم مددت رأسى. أشم رائحة الغبار. غبار الكتب العتيقة. يسكرنى الغبار. آه.. كم عشقت هذا الغبار. آه.. وسوف يلازمنى طيلة عمرى الغبار.. فمن هؤلاء؟ ثمة أناس جالسون يدفنون رؤوسهم فى الكتب فى صمت كأنهم فى محراب يتعبدون.

الصمت مطبق، فلا صوت إلا خريشات تقليب الصفحات. أخطو خطوتين متردتين فأجد نفسى أمام الطاولة الكبيرة التى حولها مقاعد متراسة. نحو خمسين مقعدا تم رصها فى صفين تفصل بينهما الطاولة. يتصاعد دم الخوف إلى رأسى فأزعم الفرار. أستدير بجسدى النحيل إلى الخارج فتفجؤنى الزعقة المدوية: خد يا ولد! أنوى الهروب. أستعد للانطلاق فتقبض يداه اليابستان على عنقى. أرتعد وانظر إليه مستعظفا: معلش والنبى يا افندى! عاوز إيه يا شاطر؟ عاوز اقرا! يهز رأسه فى تهكم مستتر وبيتسم. يريد أن يضحك إلا أنه يكتم ضحكته بسرعة كى لا يقطع صمت القارئین. يجول بعينيه فى كيانى كله. يرى الثياب الممزقة. تقع عيناه على كتل الطين الصغيرة اليابسة المتكورة بين أصابع القدمين الحافيتين. يشم رائحة التراب والعرق تفوح من الشعر المتسخ الذى بعثرته الشقاوة وعدم الاعتناء والإهمال. تزيد قسوة قبضته على كتفى فأحس بها يهرسها هرسا. يهمس مغتاظا: وانت بتعرف تقرا يا ابنى؟ آآآه! ها نشوف .. تعال! تخف القبضة قليلا على الكتف المعضوم. يسحبني حتى نهاية الطاولة حيث لا أحد يجلس هناك. يأمرنى: إجلس فأجلس. يمد كفيه نحو الرف فيسحب كتابا تعمده كبيرا. يدرج الكتاب الضخم ذا الغلاف الأزرق أمامى. يشير إلى العنوان المكتوب بلون الذهب.. ثم يهمس متوعدا: ورينى .. يالآ اقرا! تخرج الكلمات من فمى خائفة مهزوزة غائمة غير واضحة المعالم:

- أأأأ..ألف ليلة وووو..ليلة!

- على صوتك شويّه!

- ألف ليلة وليلة يا افندى!

يبتسم، فيقلب الصفحات دون ترتيب. تظهر الصفحة أمامي بحروفها الصغيرة فيأمرني: يا للاً .. سمعنى يا حبيبى.. إقرأ بصوت عالى. أقرأ:
" فقال الحمّال: والله يا سيدتى ما استقللت الأجرة، وإنما اشتعل قلبى
وسرى بكن،

وكيف حالكن، وأنتن وحدكن، وما عندكن رجال، ولا أحد يؤانسكن، وأنتن
تعرفن أن المنارة لا تثبت إلا على أربعة، وليس لكنّ رابع.. وما يكمل حظ
النساء إلا بالرجال.. كما قال الشاعر: "انظر إلى أربع عندى قد اجتمعت/
جناك وعود وقانون .. ومزمار".

وأنتن ثلاثة، وتحتجن إلى رابع يكون رجلا عاقلا ليبيّا حاذقا، وللأسرار
كاتما.

فقلن له: نحن بنات، ونخاف أن نودع السر عند من لا يحفظه، وقد قرأنا
فى الأخبار شعرا:

صن عن سواك السر لا تودعه

من أودع السر فقد ضيَّعه

فلما سمع الحمّال كلامهن قال: أنا رجل حكيم، وأعمل بقول الشاعر:

لا يكتُم السر إلا كل ذى ثقة

والسر عند خيار الناس مكتوم

السر عندى فى بيت له غلق

ضاعت مفاتيحه والباب مختوم"

سمع أمين المكتبة عليّا يقرأ فهتف متعجبا:

- الله الله.. أنت فى سنة كام يا بنى؟

- أولى إعدادى طالع تانية!

- اسمك إيه يا حبيبي؟

- على عبد الكريم سيد إبراهيم الفلاحي!

- أبوك بيشتغل إيه يا على؟

- أبويا موظف فى الرى..

تتغير ملامح الرجل. تلين نظراته فيصبح أطيب من رأت عيناى. يربت على كتفى بحنان: إسمع يا علىّ من بكرة تيجى لى هنا بس تلبس هدوم نظيفة شوية.. و "مداس" فى رجلك.. وابقى اغسل وشك قبل ما تيجى. يودعنى الأستاذ عثمان أمين مكتبة المركز الثقافى عند الباب بابتسامة حانية فلا يعلم أنه ألقى إلى طوق النجاة من جحيم السلخ الأبوى اليومى المتعمد وركلات ديستيفانو وخيزرانة المحنكر. فتح الرجل لى بابا للبقاء و للحياة وأدخلنى إلى عالم من السحر سيلازمنى طوال الزمان وسوف تظل حكاية الجمال والبنات تلاحق عليّا كلما راح وجاء!

الفصل الثالث

ديستيفانو الرهيب

"الروث.. كان حقيقة الحقائق.. وأصل الأشياء فى حارتنا..
ففيه.. وبه.. كنا نحيا صباح مساء.. ووسط أكوام الروث
الهائلة الارتفاع.. خرجنا من بطون أمهاتنا.. نصرخ
صرختنا الأولى فى الحياة!"

١٠

الحارة على مسيرة ربع الساعة من شارع السوق. كنت تمشي - وأنت قادم من شارع السوق - لنحو عشر دقائق لتجد الجامع الكبير، وبعد خمس دقائق أخرى تكون قد ولجت إلى قلب الحارة. "الصقاروة"، هكذا عرفنا اسم الحارة دائما. تقول: أنا من الصقاروة. من أين جاءت التسمية؟ لا أحد يعرف. ربما لأن عائلة صقر تمثل أغلب المقيمين بها؟ جائز.. إلا أن كبار السن هنا يؤكدون أن التسمية كانت هكذا من زمن بعيد قبل مجيء عائلة صقر. أحد العالمين ببواطن الأمور قال إن كبير عائلة صقر كان "ابن ليل"، لصا، يسرق المواشى من حظائرها، والمحاصيل من الحقول، والدجاج من الطرقات، والغسيل الذى نشرته النسوة فوق الأسطح وفى الأحواش ليجف. لم يكن اسمه صقرا، وإنما أخذت عشيرته الاسم بعد ذلك من اسم الحارة التى وفدوا إليها بليل فاستوطنوها. تتاسلو فتكاثروا وصاروا أسياد الحارة والمالكين لأغلب

بيوتها وبهائمها والحظائر. وأصبحوا جبارين. لا أحد يستطيع الجزم بشيء. هي حارة الصقاروة .. وكفى!

الحارة تتفتح على الباب الخلفى للجامع الكبير. باب خشبي صغير إحدى درفتيه دائما مغلقة والثانية مفتوحة على استحياء لتسمح بمرور شخص واحد. الباب ضئيل لأنه باب الميضأة ودورات مياه المسجد. وهكذا كان أهل الحارة يشمون رائحة الاستنجاء فاعتادت أنوفهم عليها ولم يعودوا يستتفونها. فإن أضفت إلى رائحة الاستنجاء رائحتين أخريين؛ رائحة روث البهائم، ورائحة اللبن الذي يمثل عصب حياة أهل الحارة ويدخل في كل أطعمتهم وبيعهم وشرائهم، فسوف تدرك كم كان لحارتنا رائحتها المميزة. هكذا عرفها أهلها وهكذا عرفتها الحارات الأخرى. إنها الحارة ذات رائحة الروث!

فإن أنت خرجت من الباب الخلفى الصغير ذى الدرفتين، اللتين إحدهما مغلقة ، ودخلت إلى مشارف الحارة، ونظرت بتمعن محاولا رسم صورة بانورامية شاملة للمكان، فسوف تجد الحارة على هيئة مربع. الضلع الأول للمربع- الذى أنت واقف فيه الآن بالفعل- هو ظهر المسجد، أو بالأحرى "بلاعات" المسجد، التى دائما ما كانت طافحة، تغرق الساحة المحيطة بها، فكنا نرصد قطعاً من الطوب الأحمر ، والحجارة، و " الشقافة"، متجاورات، وغير متجاورات، أو فى صفوف متعرجة، حتى يمكننا المرور، و كان واحد منا أو اثنان، كل يوم، تتزلق إحدى قدميه من فوق الطوب الأملس، فيسقط فى المخلفات الآدمية المميزة الرائحة، فتتلوث ثيابه، ويتلغظ وجهه ، فكنا نظل نضحك، وهو يبكي! وأما الضلع الثانى، الذى على يمينك، فيشغله بيت عبد الستار، ابن عم عائلة صقر، وبجواره بيت أم شفيق "بائعة المحوَّجة"، ثم بيت أم عزة، التى فارت ابنتها "عزة" قبل الأوان فتكوّر نديها فكانت تبرزهما

لنا نتفرّج عليهما ونلمسها لمسا خفيفا فتغمض عينيها وتزم شففتيها وتهمس همسا حلوا: "عيب يا واد انت وهو!"، ومع ذلك ظلت تلعب معنا نحن الذكور العفاريّ، وكانت فى العدو - حينما نتسابق - أسرع منا جميعا. كنا نلامس جسدها البض فتضحك غير عابئة وبالليل نلحم بها، ونغرق أنفسنا!

والضلع الثالث الأيسر - على يسارك وأنت مازلت واقفا بجوار الباب الخلفى للمسجد تتأمل - هو فيلاً فاخرة غامضة يحيط بها سور مرتفع كنا نسميها فيلاً العطار ولم نكن نعرف من بها.. أوماذا يجرى فيها. وكانت للفيلاً حديقة كبيرة مسكونة بالمانجو وبالشياطين . كانت شياطين عارية دائما، كثيرا ما كنا نلتصص عليها، فنها ترقص وتضحك ويحضن بعضها بعضا فى تهتك ساحر وتأكل غير ما نأكل ويقذف بعضهم بعضا بالشراب الأحمر النارى الذى كلما شربوا منه غابت منهم العقول. دخل "على" القصر المنيف ذات ليلة.. ورأى إسماعيل وعلاء وهدى.. فتغير مجرى حياته. ثم فى مواجهتك فى الضلع الرابع ، كانت "حارة البغدادى"، المسكونة ، ويلاصقها بيت العجوانى، ثم البيت الكبير لعائلة أولاد صقر، وبجواره مجموعة من البيوت الواطئة الضيقة المظلمة، التى تسكن كل غرفة منها أسرة بكاملها. وكان "بيتنا" فى مواجهة البيت الكبير لأولاد صقر، فأينا منهم ما رأينا!

وكانت المساحة الكبيرة المحيطة ببلاعات المسجد متروكة للإهمال والذباب والبعوض. وكان أهل الحارة يستخدمونها استخدامات عديدة، فمنهم من كان يخزن قش أرزه وحطب قطنه بها، أو غلاله والذرة فى وقت الحصاد، ومنهم من اجترأ جزءا معتبرا منها لإلقاء روث بهائم حتى يجف ثم يتم نقله إلى الحقول مرة أخرى كسماد.. سمّوه "الساباخ".. وهكذا كنت ترى تلال الروث، ما تكاد تختفى، حتى تعود تشق عنان السماء من جديد. وكان فى

روث البهائم لنساء الحارة منافع أخرى. كنّ يعجنّه بأيديهن بمنتهى الاستمتاع فيصنعن منه أقراصا يغطيها بالقش المفتت "التبن" ويستخدمنها كوقود للخيز. كنّ يسمين الأقراص الروثية بعد جفافها "مسكة"، نسبة إلى المسك المعطر المأخوذ من كبد الحيتان. وهكذا تحول الروث في حارتنا إلى مسك! كنا قد اتفقنا جميعا فيما بيننا على تناسى الاسم الحقيقي للأقراص، فإن أخطأت ونسيت نفسك ذات مرة، وقلت هات قرص "جَلّة!" كانوا يوبخونك غاضبين "عيب يا واد.. ما تقولش كده!"

"الروث".. كان حقيقة الحقائق، وأصل الأشياء في حارتنا، ففيه، وبه، كنا نحيا صباح مساء. لم يكن بيت بالحارة يخلو من حظيرة للبهائم، ومن ثم من الروث. من الروث كنا نخبز خبزنا، ونوقد أفراننا، وندفئ ليالينا، ونسمّد حقولنا. ووسط أكوام الروث الهائلة خرجنا نصرخ صرختنا الأولى للحياة.. وهكذا كانت تفعل حيواناتنا الأليفة!

تجتمع الروائح الثلاث معا، رائحة الروث، رائحة بلاعات المسجد المنفجرة دائما، ورائحة العرق الآدمي المبهرة، لتشكل معا وجدان أبناء الحارة. لم نعد نميز بين الخبيث منها والطيب، فكبرنا وعدم التمييز خيبتنا الكبرى.

لديستيفانو الرهيب قوة فى ذراعيه لا يقدر عليها أحد ولقدمه اليمنى الغليظة المفطحة العريضة الطويلة الأصابع قدرة لانتهائية على الركل المमित الذى يصيب الخصيتين مباشرة من أول ركلة.. وعنده تجارب. علمته كثرة خناقاته فى الحارة كيف يدير الصراع فيصرع منافسيه بضربة واحدة أو بضربتين على الأكثر. غريزته القتالية التى جبل عليها أنبأته منذ الصغر بأن صاحب الضربة الأولى هو الذى يكسب النزال دائما بشرط أن تأتى ضربتك فى مقتل. أولاد عمومته كثيرون وشرسون. عزوة متمرسة فى الملابطة والشجار والمضاجعة. فى بيت الصقراوية الكل يصارع الكل كبارا وصغارا وبالباغون اليافعون يسقون عيالهم الشراسة مع لبن الرضاع فيكبرون يعشقون حب المقاتلة. ديستيفانو بزّ أبناء عمومته جميعهم فتسيّد على أطفال البيت الكبير و من ثمّ دانت له السيادة على صغار الحارة كلهم.

كان يأتى أباه باكيا والدم ينزف من شفثيه وفمه فيصفعه الأب بظهر كفه فوق أنفه ليختلط دم الأنف بدم الفم بدم الشفتين. يغمس أبوه أحمد الصقراوى سبابته فى الدم المراق ويقحم السبابه فى الفم المضروب.. ويصرخ: "امضغ دمك المسفوك يا ابن الكلب ثم ابلعه!" اعتاد ديستيفانو مذاق الدم النازف إثر العراك فلم يعد يخشى طعم الدم.. ومن يشتهى طعم الدم لا يهزمه أحد. أصبح السيد المطاع بيننا. وكل فتوة كانت لديستيفانو عصابة من الخائفين منه أخافوا له الجميع. تسلطت العصابة علينا. وكان "على" أضعف الضعفاء فكان الجميع يغلبونه فى الحارة. صار بينهم الهفيه "الخيخة" ممسحة الأرجل والأقدام. حتى العزلة استكثروها عليه فسرّقوها منه فما كانوا أبدا يسمحون له بالبقاء وحده. أين المفر ولديستيفانو عيون فى كل شارع وبيت ووراء كل

حجر؟ كان علىّ هو الضحية دائماً؛ يضربه أبوه فى البيت ظهرا فتتلقفه يدا ديستيفانو عصرا لتكملا على البقية الباقية من سلام نفسه وهناءة طفولته. لا يكاد يمضى نهار إلا ويكون ديستيفانو قد طرحه أرضا وبرك فوقه وأمطر عينيه وشفتيه وأنفه بالصفعات المربعة واللكايم والبصاق اللزج. يحملق ديستيفانو فى الدم النازف فيبتسم فى زهو ويمد أصبعه فى الدم ويلبس فلا يكون أمام علىّ سوى البكاء والعيول.

.. وليت ديستيفانو كان يكتفى بل كان يفتح فمه على اتساعه فتبرز أسنانه المتوتبة وينحنى على أزرار البيجاما الملطخة بالطين وبالدماء والعار ويقضم الأزرار الوجد تلو الآخر. ديستيفانو كان يعرف أن البيجاما المقطّعة الأزرار أكثر ما يشعل غضب الأمهات فى البيوت إشعالا ويعرف أيضا أن الأمهات سوف يصرخن ويعرف أن الآباء - المدووشة رعوسهم بشقاوة العيال - سوف يسارعون إليك فيمزقونك يا علىّ تمزيقا، أولا.. لإسكات غضبهم هم - وهم المفجوعون فى خيابة وعبط وهبالة عيالهم - وثانيا.. لإسكات صخب الأمهات اللائى سينهّد حيلهن فى إعادة تثبيت أزرار البيجامات ثم فى غسلها بعد ذلك! " .. كل زرار أقطعه لك سيكون ثمنه علفة ساخنة من أبيك يا ابن الكلب" .. هكذا كان الشرر المتناثر من عينيّ ديستيفانو يصرخ فيك وهو يكيل لك اللكمات ويمزق أزرارك.. أين المفر؟

لا ملجأ لك الآن يا علىّ إلا لمريم!

الليل بالنسبة لك وحش كاسر ذو مخالب. مستعد دائما للانقضاض - الليل هو ديستيفانو وعصابته - وأما النهار فعصا من الخيزران وحزام مشرّع متأهب للّسع. النهار؛ أبوك وغضباته المجنونة.. وبين الاثنين - أبيك وديستيفانو - أصبحت حياتك جحيما لا يطاق. لا مهرب إلا لمريم. إجر إلى

مريم يا علىّ. تدخل عليها فترى عينيك المتورمتين وبقع الدم تلهو على صدر
بيجامتك التى هللها العراك غير المتكافىء ودمعك المنساب سيولا تحرق
الجفنين والكلمات شهيق لاهث فزفير غاضب وتأبى الكلمات الخروج من
الحلق. تثبّت عينيها فى عينيك فتدهشك الابتسامة الواثقة أنت المهشّم العظام
والكرامة. تضحكين لاهية وأنا أموت أمامك يا مريم؟ تراك تبكى فتتهوى عليك
تضمك إلى صدرها بكل حنان الدنيا: مالك يا علىّ؟ ضربنى..! لسه برضه
ابن صفيّة بيضريك؟ آه.....! إسمع يا علىّ.. إنتو عيّلين زى بعض والكف
سابق سابق خد حقك بنفسك! إزاي يا مريم؟ يأخذك العجب من كلامها الجديد
عليك. تمد سبابتها. ترفعها. تثبّتها بالجزء الأيمن من الرأس بجوار حاجب
العين الجميل.. تهمس: بالعقل يا علىّ.. بالعقل! عقل إيه وزفت إيه انت
راخرة والله ما انت فاهمة حاجة! تضحك لكلماتك فيفر الدمع من عينيها
ويزداد ضغطها عليك أنت المستكين فى حضنها. تمسح دموعها بظهرى
كفيها وتواصل: يا علىّ.. إنت أذكى من ابن صفيّة ألف مرة.. شغل عقلك
وانت ها تغلبه!

اللعبة كانت كالتالى:

نرص الشققات السبع فوق بعضها؛ الشقفة الكبيرة ثم الأصغر منها ثم
الأصغر. نمسك بالكرة الشراب. ننشئها على البلاط المرصوص، فمن ينجح
فى التششين بدقة، وإسقاط كومة البلاط، يصبح الفائز. يعلنون انتصاره
فيصير من حقه إصدار التكاليفات للمهزومين. كانت أوامر بالعقاب.. وكل
حسب نصيبه. ديستيفانو كان الفائز دائما.. ولد ليفوز وما كان لأحد أن
يجرؤ على مجاراته أو تحديه. كل الكرات تطيش عمدا له. البلاط المرصوص
لا تسقطه أبدا إلا "تشينة" ديستيفانو. وكالعادة سوف تكون أنت أول

المهزومين يا علىّ ويقع عليك العقاب الأليم دوماً. ويأتى العقاب: اخلع بنطلونك يا "له"! تخلع.. فتبقى بـ "الكيلوت" فقط، ويضحك عليك الصبية والحارة كلها. يضحكون فلا يرون دموع قهرك ومذلتك ونزيف روحك. يصرخ فيك ديستيفانو: يا لآ.. ورينا "البلبل" يا روح أمك!

تطن كلمات مريم فى عقلك كضربات النقرزان الصاخبة: "خذ حقك.. الكف سابق سابق!" طيب يا مريم.. سنرى. اليوم سأسقط أنا الشققات السبع.. وسأفوز.. وليس هذا فحسب.. بل وسوف أبطح ديستيفانو.. وليكن ما يكون. تعرف أنت جيداً أن مشكلة البلاطات السبع أنها ثقيلة، والكرة صغيرة خفيفة ولا تسقطها إلا يد مدربة قوية جبارة؛ يد ديستيفانو. حتى ديستيفانو نفسه ما كان يسقط البلاط من أول "حذفة" رغم عبقرية تشسيناته. اليوم يا علىّ سوف تتجح لأول مرة فى إسقاط الشققات المستعصيات كلها. كيف- يا "مهياص"- وأنت الضعيف اليدين والنظر والإرادة؟ تتذكر كلمات مريم: "بالعقل يا علىّ.. بالعقل.. وتذكر كلمات مريم: "أنت أذكى منه!.. وتذكر كلمات مريم: شغل عقلك!

آه.. ها هى الخطة إذن؛ نرصّ البلاط بحيث تصبح الصغرى فى الأسفل والكبرى فى الأعلى.. ساعتها ينهار البلاط من أول نفخة. لكن من سيسمح لك أنت أيها الفسل برصّ البلاط؟ لا يا علىّ أنت لن ترصّ أى شىء.. سوف تترك المهمة لسناء حبيبك تهض بها. سناء لا يعصى لها ابن عمها الرهيب أمراً. سناء تحبك يا ولد فاستخدمها وهيا اضرب ضربتك. تسمى الله.. و"هب".. تقذف بالكرة.. فيختل ميزان الشقافة حتى قبل أن تصل الكرة إليه وهاهو البلاط قد انهار فتبعثر هيببييه.. فزت يا علىّ.. فزت فهيا اصدر أوامرك للمستبد العتويل:

- خسرت يا عم ديستيفانو .. اخلع بنطلونك يالآ!

- بتقول إيه يا روح أمك؟

يسارع إليك ديستيفانو فيحملك بين ذراعيه كريشة حقيرة. يطرحك أرضاً ثم يبرك عليك. تأتي سقطتك بجوار البلاط المبعثر فتتذكر كلمات مريم: "الكف السابق سابق يا على". الآن أن أوان الثأر واللحظة الفارقة في عمرك يا على. من يضربني من الآن فصاعداً سوف أضربه حتى لو متّ. تزحف كفك كالثعبان الغاضب الراغب في الخلاص من كمين نصب له. تقبض على قطعة الشقاف الكبيرة بكفك. يمد هو رأسه لينطحك فتستقبل أنت الرأس المندفة بالبلاطة المشرشرة الحواف كسكين. ينبس الدم من فوق العينين نافورة فوّارة مجلجلة. يصعقه الألم المباغت فيتكوم إلى جوارك مدهوشاً باكياً مولولاً يغطي عينيه. أغرق الدم العينين فلم يعد يرى. ترتعد فرائصك المرعوبة ويهتف فيك خوفك الموروث: إهرب يا على .. إهرب! لا.. إن هروبي الآن فيه مماتى.. أنا ميت ميت.. سنكمل "العركة" وليكن ما يكون!

.. تتشقلب.. تتفلت من تحته.. تخرج جسدك الخائف حتى الموت فتتركب ديستيفانو الملهي في جراحه. تبرك فوقه وسط دهشة الجميع الذين ران عليهم صمت الموت. تقبض بقدميك على خاصرته كمخالبين وتنتظر في عينيه. ينظر في عينيك. ترى الرعب الساكن في العينين المستكينتين فتملوك دفقة شجاعة لا تدري بالضبط من أيت أنت. تكوّر قبضتك فتقذفها بين عينيه فينبثق الدم من الأنف. يصرخ فيسمع الكون كله صرخته وأهل الحارة. تتسرب الصرخة في الزقاق المعتمة وفي الدهاليز المظلمة وفي ذرات الغبار. يحملها الغبار إلى البيت الكبير.. بيت الصقراوية. ترفع قبضتك من جديد فتسددها إلى الشفتين بسرعة خاطفة فيتفجر من الشفتين الدم. صار الوجه "معجنة"

من الدماء والرعب والألم المبرح. لم تكن تعرف أنت أن الحارة كلها قد نهضت من سباتها تتابع انتفاضتك المحمومة. لم تكن تعلم أن حلقات من البشر والعفاريت والملائكة قد أنت تبارك ثورتك. ولم تكن تعلم أن مريم كانت أيضا هناك. ترفع قبضتك للمرة الثالثة تبغى غرسها فى الصدر الصاعد الهابط فإذا بيد من فولاذ قد أمسكت بيدك فشلتها. كانت يد أحمد الصقراوى أبى الولد المضروب. سمع استغاثات ابنه فأتى مهرولا ييغى البطش بك. ولكن..

.. قبل أن تصل قبضة الصقراوى الكبير إليك صعفته قبضة أخرى أكثر بطشا علقت يده فى الهواء وجمدت النظرة فى عينه. كانت قبضة عبد الستار: يا احمد يا صقراوى سييهم.. دول عيال مع بعض! تنهض أنت مجهدا متعبا تتعثر فى خطواتك فلا ترى الأشياء ولا الناس ولا السماء التى كانت فى تلك اللحظة ترقص طربا. توشك أن تنهاوى فتتلفك يد بضة ناعمة حانية محبة. تلتفت إلى اليد الدقيقة الأصابع فتراها.. مريم!

"الصقراوية" عشيرة شجرتها متفرعة جدا، فروعها كالتالى: الجد الأكبر "عم متولى صقر"، عجوز متهاك قارب المائة وحضر هوجة عرابى وتساقطت أسنانه ويعيش وحيدا فى غرفة منعزلة تحتل صدر البيت الكبير. يموت الرجل كل يوم مائة مرة ثم يصحو. يذهل عن نفسه فيدخن فيحرق نفسه فينقذونه فى اللحظة الأخيرة، قبل خروج السر الإلهى. "سأدفنكم جميعا يا ولاد صقر! .. هكذا كان يردد بعد كل مرة موت غير مكتملة ثم يطلب الطعام. لا أسنان له، ومع ذلك يأكل أكل عشرة من الخيل. يبلع كل ما يقدم له بسرعة ويطلب المزيد. تقول له صفية زوجة ابنه الأوسط أحمد: يا راجل امضغ على مهلك .. ما تاكلش فى آخر زادك. يلكرها فى حلمة ثديها الأيسر، فتموت من الضحك، ويدمدم هو : يا بنت الكلب .. كل أكل الجمال .. وانهض قبل الرجال! كانت صفية تحب العجوز. تعشق حكاويه. تموت فى رعشات جسده الضامر. "إحكى لى بابا عن خالتى أم السعد!". أم السعد هى أم العيال جميعا، ظلت تتجيب وتتجيب حتى رحلت وبقي هو حيا كالوتد. يظل يحكى. يتذكرها فيبكي وينام ثم فجأة يصحو. تضحك صفية: "ياااااه بابا .. ريحتك وحشة .. تعال أحميك!"

كل الحارة تعرف أن صفية هى التى تتولى الرجل الكبير. قلبها طيب؟ نعم، لكن ثمة سببا آخر لا يعرفه أحد غيرها وهذا العجوز. والغريب أن الرجل الفانى المضضع الذاكرة ما كشف السر أبدا لأحد. أدرك بفطرته أنه لو كشفه فستضيع منه تلك اللحظات الحميمة إلى الأبد. ساعة الاستحمام كانت سرهما الأكبر. أمتع أوقات الاثنين معا. تنتظر إلى "عريه" الجبار فى شوق، تتعجب وتشهق وتخاطب نفسها: "مائة سنة وأنت كما أنت؟ كل شىء فيك

أصابه الهزال إلا هذا؟ يا حومتى يا حومتى... إيه كل ده يا راجل يا شايب!.. هكذا كانت تتاجى نفسها وتظل تداعب "العدّة" بالماء وبمربع الصابون حتى تبلغ "العدة" مداها فتنتشر وتبلغ هى ذروتها الكبرى. هنالك تكف عن المداعبة وتتهره وكأنما قد غضبت منه.. تهتف فى سرها: يا ويله يا سواد ليله الراجل العايب لو عمل كده ولّا كده! تفاصيل اللعبة بينهما محفوظة بين الطرفين عن ظهر قلب. آخرك المداعبة أيها الرجل العجوز. أستمع أنا بالحلم وبالشبق الكامن، وتستمتع أنت بلذة الانتشار وبالتنظيف غير البرىء. حاول متولى ذات مرة من سنين أن يكسر القواعد ويحيد عن الاتفاق الصامت. مدّ متولى يده على مالميس له فغضبت صفيه غضبا عارما. صرخت فيه بحدّة: "عيب يا راجل .. اختشى!" فاختشى.. وكانت هى المرة.. لمتولى خمسة أبناء كلهم ذكور. ثلاثة منهم فلاحون يديرون أرض العائلة. رجب وإسماعيل وسعد ورابعهم أحمد زوج صفيه وأبو ديستيفانو وبشرى. ورث أحمد فحولة أبيه فصارت فحولته مضرب الأمثال. تاجر جوال يحمل "بؤجته" وبظل يدور على قدميه بين القرى والبلدات والنجوع البعيدة يبيع للنساء أقمشة ملونة وساعات من المتعة الحرام. لم يجمع أحمد من المال إلا أقلّه.. لكنه - من ناحية النساء - جمع الكثيرات فجعل منهن مسبحته الأثيرة. النساء يعشقن القماش ويعشقن أحمد. صفيه تعرف كل شىء. يأتيها آخر النهار مهدودا مهشما محمّر العينين زائغ النظرات. يحمل سرواله وشعر رأسه وعانته كل يوم رائحة امرأة. تعرف صفيه رائحة ماء النساء تشمه فى ألم وتتحسّر. أدركت منذ سنوات لماذا لم يعد أحمد يواقعها كثيرا. وكيف يفعل وهو الخائر القوى المستنزف دائما ويدخن بشراهة؟ تكظم غيظها وغيرتها فى بطنها وتجرى تحمم الرجل العجوز.. وتشتاق فتحلم.

الأخ الخامس عبد الفتاح. عامل منذ صباه بالسكة الحديد. لا يعيش معهم ولا يرونه إلا لماما. ينتقل مع القطارات يصلح عوارها. أينما ذهب القطارات ذهب فإذا توقفت القطارات توقف. لم يكونوا يعرفون له زوجة ولا ولدا إلا عندما هبط عليهم "شرقاوى" وقال لهم : أنا ابن أبى وأبى منكم. أنا ابن عبد الفتاح. صدّقوه فعاش بينهم وامتصّ دماءهم..

البيت الكبير صالة مستطيلة ممتدة تبدأ بالباب الخشبي العتيق المفتوح دائما على مصراعيه. لا ينغلق هذا الباب أبدا. الولوج إليه والخروج منه لا يتوقفان. رجال ونساء وأطفال ودجاج وبهائم وكلاب وقطط وزواحف وفئران وذباب وبعوض.. وعفاريت أيضا! كل شيء موجود منه زوجان اثنان فى البيت الكبير إلا أن البراغيث والبق والبعوض كانت سيدة المكان والامر الناهى فيه بلا منازع. الصالة المستطيلة- بعد أن تكون دخلت من الباب الكبير- ستجد على يمينها صفا من الغرف وعلى اليسار صف آخر مماثل. الغرف الثلاث الأولى على اليمين تشغلها أسرة أحمد الذى تأخذه الدنيا فى النهار فيعود مع الليل يجر قدميه من العناء. ثم ثلاث غرف أخرى مجاورة لأخيه رجب وعياله. وفى الجانب الأيسر غرفتان للرجل العجوز الذى كثيرا ما يحرق نفسه فلا يموت ويظل يمضغ الطعام ويتبول على نفسه إلى أن تأتي صفية زوجة ابنه الأوسط فتتنظفه وتلعب معه لعبتها الأزلية المحببة.

.. ثم غرفتان أخريان لإسماعيل وزوجته عنايات التى تملأ الدنيا صياحا وصخباً بذينا وتخشاها نساء البيت كلهن بل ونساء الحارة جميعا. " شلق.. ولسانها وحش!" هكذا كانت صفية تصفها وتتجنبها شراء لخطر زوجها إسماعيل " الأمير!" وثمة غرفتان أخريان لسعد، وهو أصغرهم وأبرعهم فى فلاحه الأرض. يستيقظ مع الفجر دائما فيسحب بهائمهم إلى " الغيط" فلا يعود

إلا مع انتصاف الليل وفى أكمّام جلبابه عفاريته التى أذهبت عقله فسميناه فى الحارة "سعد المجنون". كانت الغرفتان بجوار "الكنيف"؛ حيث مأوى العفاريث التى أحبّت سعدا فركبته واستعمرت روحه. تنتهى صالة البيت الكبير بالزريبة الكبيرة التى تجمع فيها العائلة بهائمها ليلا وفى النهار تسرح البهائم إلى الحقول.

وبجوار الزريبة من ناحية اليسار ثمة سلم خشبى عريض الدرج يأخذك إلى الطابق الثانى للبيت. هناك ستجد "المقعد"، وهى غرف صغيرة - الواحدة منها متران فى مترين - متناثرة فى غير نظام يمتلكها الأبناء الأربعة بالتساوى. وكان لكل منها مفتاح تضعه كل زوجة ابن فى صدرها. كانت "المقعد" تستخدم فى أغراض شتى؛ بعضها لمذاكرة الأبناء وبعضها ليبيت فيها الضيوف إن جاء الضيوف ومقاعد لتربية البط والأوز والدجاج والرومى وأخرى للعشق الحرام الذى تقضى بين أبناء العائلة وبناتها؛ عشق مكتوم سرى مسكوت عنه لم يتحدث أبدا عنه أحد إلى أن ظهر "الحمل" على سعدية ابنة سعد وعرفوا أن الأب هو ابن عمها عطوة فزوجوهما وأغلقوا المقعد بالضبة والمفتاح!

وكنّت، كلما مشيت فى الطابق الثانى، تتعثر خطاك فى بيض الدجاج أوفى صغار البط والأوز المفقوسة حديثا فتدهسها ويدب الشجار بين الجميع. وكانت فى هذا الطابق غرفة مظلمة دائما لا يقربها إنسى. قالوا إنها لعفريت البيت الذى لا يحب أن يدخل عليه بشر إلا إذا طلب هو ذلك بنفسه فيرسلون الشخص المطلوب إليه فوراً. ولم يكن عفريت البيت يطلب إلا "نجية" ابنة إسماعيل البلهاء الخضر العيينين. كانت تسارع إليه فلا تخرج من عنده إلا مع انتصاف الليل. أهل "نجية" لم يسألوها قط عما كان يدور بالغرفة

الضيقة المظلمة ولا هي أبدا تحدثت. كانوا خائفين. وظلت "نجية" صامتة صمت القبور إلى أن التقت مريم فحكّت لها ما كان منها ومن العفريت "الشقي". ضحكت مريم وحكت هي الأخرى لها عن عفريتها.. وكنت أنا آنذاك تحت سرير مريم أسمع وأتعجب!

تصعد السلم إلى الطابق الثالث فتجد سطحاً فسيحاً ممتداً بطول البيت كله قسّمه الأبناء فيما بينهم قسمة العدل. مساحات تجاورها مساحات. كان السطح مفروشا بقش الأرز الجاف وبحطب القطن وبالفجوات الرابضة بين الأكوام. فجوات عميقة. كنا نخلو إلى بعضنا البعض - صبياناً وبنات - في تلك الفجوات الغويطة نتحسس رجولتنا النابتة الوليدة و نتلذذ بانفجارات الشبق المذهلة التي مازالت بعد في مهدها تخطو خطواتها الأولى المتعثرة. كان سطحاً من المتعة الكاملة!

الفصل الرابع المناطق السبع المحرمة!

"فأما تلك المنطقة.. فمحرمة حتى على الأزواج يا على..
وآه يا على لو اكتشفها الرجل من تلقاء نفسه.. ساعتها..
ساعتها فقط.. ستهمس له المرأة همستها الخالدة: أنت
وحدك سيدى.. ولا سيدا لى سواك!"

١٣

" المعجنة" .. رمز من رموز حارة الصقاروة المميزة. منذ الفراعين
و"المعاجن" قدر من أقدار الحارة المسطورة فى الكتاب.. خاصة معاجن
صباحات الجمعة المعطرة!

.. تستيقظ النساء متصببات بعرق الليل المبذول بسخاء بعد الارتعاشات
المذهلة فى ليالى القىظ المنهكة. خلطة السوائل الفواحة الرائحة بعد الفجر
بقليل لا تحتلمها الأنوف رغم اعتياد الأنوف على الروائح. ضيق الغرف
السيئة التهوية يدفع الأجسام- المتلاحمة المتشابكة بحثا عن اللذة المغسولة
بالشبق- إلى دلق سوائلها من كل المسام؛ عرق فى منابت الشعر أينما كان
الشعر.. وعرق تحت الإبطين .. وعرق فى الشقوق الكامنة فى ظلمات
الثنيات المخبوءة الملتهبة بالشهوة والرغبات الجامحة.. ثم ثمة ذلك الماء
السحرى المدوّخ.. ينسال فى نهاية كل التحام.. فيطفح من الغابات الغويطة..
ويغرق الشعيرات النابتة هناك حول الشقوق.. وفوق الأفخاذ والسيقان. تصحو

المرأة منقوعة في العرق تنتشم الروائح المختلطة فتستعيز بالله وتهول في اتجاه الكنيف.

العادة حكمت بأن تكون ليلة الجمعة ليلة للعناق العظيم المستوجب التشطيف. تشطيف ليلة الجمعة ليس كمثله تشطيف. خطوات موروثه ورثتها الأمهات للبنات والبنات للحفيدات بترتيب محفوظ : تصحو المرأة الموجوعة العظام والشفقتين والعنق والصدر والحلمتين وعضلات البطن والسيقان فتتقلب في الفراش تصطدم بجسد الزوج الرائح في عاشر نومة بعد غزواته المظفرة وانفجاراته المدوية المرهقة في معركة الفحولة الليلية الدامية. تسمعه يطرد أنفاسه الثقيلة من الأنف والفم والحلقوم في " شخير " يوقظ الموتى. تعبر الجسد بساقيها بحذر حتى لا توقظ الفحل النائم. تتساعل في غيظ: ترى لماذا ينام الرجال دائما على حافة السرير بينما تتحشر النسوة في الداخل فيلتصقن بالجدار؟ هل هي الرغبة في زلق الجسد اللدن الرخو بين الزوج الهائج والحائط الأصم لزوم الدفء أم لأن " السيد " هو من ينام دائما على الحرف؟ تتحسس الأرض بقدميها بانتباه شديد كي لا تدهس اللحم النائم تحت الفراش. آخر ما تتوقعه الآن ولد تدهس قدمه أو ساقيه أو بنتا تدوس على شعرها فيستيقظان صارخين.. وتكون الفضيحة!

تخرج صاحبتنا إلى الدهليز الغارق في الظلام وفي حضنها كومة من مفردات أربع: جلباب نظيف ملفوف بعناية فائقة كونه يخفى في ثناياه القطعة اللاهبة.. لباسا داخليا ناري اللون محرما على الناس جميعا رؤيته ما عدا الزوج وحده. ثم كوز اللوف البلدى الذى نصفه ناعم ونصفه خشن وفى حضنه نام مكعب الصابون الإفرنجى المعطر المجلوب فى سرية تامة من البندر خصيصا لهذه التشطيفة المقدسة. والمشط الكبير ذو الوجهين اللذين

أحدهما واسع الأسنان والثانى ضيقها. وأخيرا.. سيدة الجميع ومملكة قلوب النساء غير المتوجة فى كل زمان ومكان؛ المرأة. لكل امرأة من نساء الحارة مرآتها. قطعة صغيرة صدئة مشرشرة الحواف بقيت من المرأة الكبيرة التى أحضروها لها مع الشوار عند زواجها. راحت أيام المرايا الكبيرة وبقيت تلك الشظية المحببة. شظية ستظل تشعرنى بأننى ما زلت امرأة. تحمل كنزها وتمضى. تمشى ببطء تكاد قدماها تطيران فوق الأرض فلا يشعر بها مخلوق. طقوس حمام الجمعة سر كونى بالغ الغموض فائق الخطورة لا يجوز أن يطلع عليه كائن من كان. وحدى الآن والطست النحاسى والللمبة الجاز نمره خمسة والمتعة.. فهيا إلى الجلسة الموعودة.

نساء حارتنا عفاريت. اكتشفن منذ الأزل سرا لا يعرفه الرجال. سر خاص بهن وحدهن؛ إن فى الكنيف- فجر الجمعة- حياة أخرى من النشوة التى لا تقدر بثمن.. متعة الحك اللذيذ. والنساء درجات؛ فمنهن الغشيمة الغرة قليلة التجربة التى ما إن تتعرى وتمسك بكوز اللوف حتى تذهب مباشرة إلى منجمها الحميم وهات يا دعك تزيل اللزوجة العالقة و ذلك هو الهراء الكامل عينه وتضييع لمراتب اللذة الخالدة. ومنهن "النصف نصف" التى ماتزال فى المراحل الأولى للاستكشاف وهاها تعليمها المتوسط إلى منطقتين آخرين فصارت مناطق اللذة ثلاثا تمر عليها "الهبة" مرور الكرام. ثم هناك المجربة "المددقة" سيدة جسدها ومالكتها التى جعلت من من كل قطعة لحم عارية بهذا الجسد بركان نار من الاشتهااء والرعشات المسكرة. كثيرات من نسوة الحارة- تحت وطأة الإنجاب المتتالى، بطن وراءها بطن، وتحت وطأة الملل الخالد لأزواج سئموا الليالى "الخميسية" فباتوا يستعجلون اللهاث، وتحت وطأة شظف الحياة ووجع الأرداف والمفاصل- فقدن متعة الضم الشهى أيام أن كن

زوجات جديدات.. "أهى ليلة وتعدى" كغيرها من الليالى. لم يبق لهن إلا لقاء
الكنيف. أنت وجسدك يا حلوة معا وجها لوجه فيها اسعدى به واسعدية ويا
خبيتك القوية لو فشلت فى إيجاد التعويض.. ساعتها لن يعوضك أحد.

وحتما ستكون المجربة القديمة فى ممارسة ألعاب الكنيف قد اكتشفت
المناطق السبع السحرية فى الجسد الطرى والتي غالبا ما يكون الزوج
الخنشور- المتعجل متعته هو وحده- قد فشل فى اكتشافها من تلقاء نفسه.
الويل كل الويل لأى امرأة تطرق هذا الموضوع مع ذكرها ساعة الفراش.
ساعتها سيركبه الشك.. و"عقلة ها يودى يا بتّ و يجيب " وتكون ليلتك
سوداء.. فما الداعى؟ غير أن "عليّا" شاعت له الأقدار أن تنكشف له- هو
وحده- "المناطق السبع السحرية".. أرشدته إليها بشرى فى ساعة صفاء نادرة.
حسبته "عيل" ولن يفهم.. فاندفعت تحكى:

قالت له:

- ألا فلتعلم يا علىّ أن لكل امرأة من بنات حواء مناطق سبع حميمة
لو عرفها الرجل فى امرأته لصارت المرأة عبدة له حتى نهاية
الزمان. لقد عرفنا مناطقنا تلك يا علىّ منذ الأزل ونحن نتحمم فى
الكنيف!

- وما هى يا أبلة بشرى؟

- خذ عندك يا سيدى.. قل هاتى!

- طيب هاتى!

- إعلم يا علىّ أن أذن المرأة لم تخلق للسمع فقط بل للمتعة أيضا.
أترى تلك القطعة الناعمة المدلاة من أذنى يا علىّ وأعلق فيها
القرط؟

- آه.. هذه شحمة أذنك يا أبلّة!
- براوه عليك.. إنها- إن أنت فركتها بإبهامك والسبّبة- تصبح ناراً موقدة.. هيا فلتفركها لى يا علىّ!
- لا.. ليس الآن يا أبلّة.. فأكملى!
- تدور بسبابتها فى دلال فوق بشرة الوجه الجميل فتتوقف غامرة بعينها عند الشفتين وتمسحهما "رايح جاى" وتهمس فى شبق:
- فتلك هى منطقتنا الثانية يا عفريت!
- آآآآه.. الآن عرفت لماذا تعشقن التقبيل!
- نعم يا علىّ!
- تقبض كفّاها كفىّ علىّ فتقودانهما نحو الصدر العامر النابض بالرغبة الموحجة:
- وهذه هى المنطقة الثالثة.. فإن شئت فاضغط!
- لا.. ليس الآن يا بشرى!
- نساء الحارة يعرفن أن المنطقة الرابعة نضّاحة بالتعرق وشائكة مشوّكة.. إلا أن فى ذلك الشوك نفسه تقبع الرعشة المبهجة. تحت الإبطين بئر من الشهقات إن أنت يا شاطرة أزلت منها الشعيرات المعوقة.. لا .. لا .. لا تنزعها بأصابعك هكذا يا عبيطة وإلا فقد فقدت المتعة. عليك بالحلاوة. تلصق الواحدة منا- يا علىّ- قرص الحلاوة اللزج بالشعيرات النابتة ثم تغمض عينيها وتجذب القرص جذبة واحدة. آه من الألم حينئذ يا علىّ لكن آه من شلال الاستمتاع. مع كل جذبة هنا ميلاد جديد للذة هناك .. تحت.. ألا ما أجمل اللذة مع الألم عندما يجتمعان معا فى آن واحد يا علىّ!
- زدينى يا بشرى.. فما المنطقة الخامسة يا ست الستات؟

تأخذ السبابة المرتعشة بالإثارة وتغمض عينيها كمن يحلم. تقبل السبابة ثم ترحل بها إلى الصدر حيث اللوزتين المستديرتين كحبتى عنب المحاطتين بهالتين من السواد الجليل والبثور المنمنمة. إلى بطن الثديين تقنادنى وتبتسم.. فيضحك على:

- آه.. أما هاتان فأعرفهما جيدا يا بنت الصقاروة.. وهل نسيت أنهما كانتا درسك الأول- من دروس العشق- منك لى؟ خذنى إلى منطقتك السادسة إذن يا جميلة الجميلات!

- لا يا على.. أما هذه فلا.. حرام يا حبيبى!

- ولم يا بشرى؟

- اسمع يا على.. تلك منطقة محرمة حتى على الأزواج ومسموح بمتعها لنا وحدنا فقط نحن النساء وآه لو اكتشفها الرجل لامرأته من تلقاء نفسه. ساعتها..

ساعتها فقط يا على.. ستهبط المرأة تقبل يديه وقدميه ثم تهمس له: أنت وحدك سيدى ولا سيدا لى سواك. غير أن كثيرا من الرجال ينئون بأنفسهم عنها اشمنزازا أو غفلة أو خوفا من عقاب الله..! عندما تكون رجلا ستعرفها وحدك!

- بل أنا أرجل منك ومن أبيك وأمك يا بنت الصقاروة.. فما السابعة؟ تضحك منتشية وتغمز بعينيها فى غنج سعيد. تهمس مصطنعة الخجل وقد احمرت وجنتاها:

- صحيح.. ألا تعرفها يا شيطانى الصغير؟

- آآآآه.. قصدك يعنى الـ(.....)؟

تضمنى بعنف فأسمع طرشرة الماء المدلوق على كل أبواب حارتنا. ماء
غسيل الأبدان الطرية اللدنة التى انتعشت قبل قليل بارتعاشات لعبة الحك
السرية المفرحة. لا يكاد الصبح يتنفس إلا وتكون شوارع الحارة ومدقاتها
المتربة الضيقة قد تحولت إلى معجنة كبرى من الماء المعكر الذى تطفو فوق
سطحه رغاوى الصابون المعطر الذى جلبته النساء خصيصا من البندر
لتشطيفات صباحات الجمعة المباركة. فإن أنت اقتربت بأذنك من الماء
الطاهر - رغم عكارتة - فلا شك أنك ستسمع هسيس الشبهقات الليلية الصاخبة
ساعة انبثاق السوائل المختلطة.. التى أصبحت وحلا الآن!

ما هذا بيمينك يا على؟

كتاب يا مريم!

يا حلاوة .. وماذا به؟

قصص وحواديت يا مريم.

وعن ماذا تحكى تلك الحكايات؟

ألف ليلة وليلة يا مريم!

طيب .. إحكى لى شوية يا على .. إحكى لى والنبى!

صلى على النبى يا مريم.

عليك أفضل صلاة وسلام يا نبى.

يقولون لك يا ستى، أنه كان هناك ملك يحب زوجته حب موت. لكنها

كانت زوجة خائنة يا مريم، تركته، وعشقت عبدا أسود عملاقا من عبيده!

بنت الكلب .. وبعدين يا على؟

أبدا يا ستى .. ضبطهما معا، فقطع رقبتيهما فى الحال.

والله راجل .. تستأهل القتل بنت الكلب .. وبعدين يا على؟

أبدا يا ستى .. دى حكايات فارغة يا مريم .. لا تشغلى رأسك بها!

لأ والنبى يا على .. قل لى .. وبعدين؟

أبدا يا ستى .. هذا الملك الغاضب صار يقتل كل ليلة فتاة جميلة عذراء

انتقاما من النساء جميعا.

والنبى " غلابة"، طب وهم مالهم؟

يا ستى أقول لك حدوتة .. حدوتة!

معك حق. بس تعرف يا على ممكن تكون الست دى مظلومة!

ليه بقى إن شاء الله؟

النسوان غلابة يا على .. أنت لا تعرفهن .. لما تكبر ستعرف!

نحيت الكتاب جانبا، ورحت أستوضحها:

تقصدين أن هذه الملكة الخائنة من الممكن أن تكون على حق؟

سرحت ببصرها بعيدا وبدأت قطرات صغيرة من الدموع تتلألأ في محجريها ثم بكت، فشهقت وأجهشت فى البكاء. مدت ذراعيها، وأشارت إلى أن اقترُب، فاقتربت. ضمتني وراحت تعصرني فتألمت. همست تكاد يخنفها الكلام: إوعاك تظلم واحدة ست أبدا لما تكبر يا على .. النسوان " غلابة" يا حبيبي. اختنقت بالدموع والألم فأشفقت عليها، أبعدتها بيدي، ونظرت فى عينيها. كانت تتألم ألما مبرحا. تدرجت الكلمات من شفيتها رغما عنها: " سامحنى والنبي يا رب!" فانشقت السماء فوقنا وانقسم السقف نصفين وهبط " هو " إلى الغرفة ناشرا جناحين من نار. نظر إلى فى غضب فهمست هى له : بل اتركه.. أريده أن يرى كل شىء. صرخ صرخة مروعة.. خبط رأسه الضخم فى الحائط، فتغيرت هيئته، ورأيت عبد الستار صاحب الجمل. بين صعودهما والهبوط والشهقات الصاخبة واللهاث المحموم رحت أتصعب عرقا فلمحنى بطرف عينه. نهض فارتدى جناحيه وتلقفنى بيديه. نظر إلى مريم وهمس: لا تخافى عليه.. سأصحبه فى رحلة ليتعلم. وضعنى بين جناحيه وطرنا معا وتحتنا السحاب!

كانت معجزة. كانت مدهشة. كانت تحفة.. تلك الغرفة التي آوت عليًا وإخوته الخمسة. لا مثيل لها. إلى جانب الأخوة الستة، ضمت الغرفة أيضا جدتهم العجوز "ستى كوكب". وليتها اكتفت- تلك الغرفة الأربعة أمتار فى أربعة- بل لقد فتحت ذراعيها وقلبها وشقوقها السرية المخبوءة لعائلات كاملة العدد والعدة من جميع الفصائل؛ قمل وبراغيث وبق وصراصير .. وليتها اكتفت. لقد منحت الغرفة سقفها، المعروش بألواح من خشب هش ضعفته السنون وتخللت الألواح كتل من القش وروث البهائم الذى تركوه فجف، لزوج وزوجة من الأبراص منتفخى البطنين والأوداج.. فكيف احتملت الغرفة كل هؤلاء الساكنين؟ بل كيف احتمل الساكنون بعضهم بعضا؟ حدث تقسيم تلقائى لمناطق النفوذ؛ البورصان لهما السقف.. كل السقف.. لكن هذا كان فى النهار فقط، أما حين يجن الليل، فمسموح للبرصين بالزحف فى أعلى الحيطان، فتصبح الحوائط محطات انتقال إلى المطبخ الملاصق للغرفة. وآه لو أن بورصا من البورصين تناسى بنود العقد فتدلى فلمس ساقا أو يدا أو وجهها من الأجساد المحشورة حشرا فى الغرفة. لو أن ذلك وقع- ونادرا ما كان يقع- لكان فى ذلك هلاك مؤكد لهذا الغازى المغامر المتبجح!

.. البق بدوره احتل الثغرات والفجوات الكثيرة المتناثرة فى بطون خشب السريرين الوحيديين بالغرفة، وأما البراغيث فكانت لها هدموم العيال والجدة التى مثلت للبراغيث المرتع والمأوى. بالغرفة سريران ينام فوقهما العيال الستة- لعلّى وشقيقه سرير.. والثانى للشقيقات الأربع. وثمة حاشية من القطن القديم البالى المكلكع المترب محشورة فى كيس من التيل كله بقع وفطائر بول ذى صنة، فرشت بجوار الحائط الذى على يمين الداخل إلى الغرفة. كانت

الحاشية فراشا للجدة العجوز المريضة المملوء فيها بالفراغ واللعب والثأثة المحشو رأسها بالهذيان والتهويمات والخزعبلات والأمثال القديمة والحواديت. الغرفة بالنهار ملعب للفوضى والشجار والصخب الدامى بين آدميين خنقهم المساحات المكسدة فسكنتهم الضغينة والخنقة والزهق. وبالليل هى ملعب للحشرات التى هجعت طوال النهار وهامى تخرج بالليل تقفات على دم الذين أرهقهم النهار فغاصوا فى سبات عميق كأنه الموت.

وكنت إذا سألت عليًا عن أكثر ما يزعجه فى دنياه- بعد أبيه وديستيفانو والمحنكر- كان سيقول لك: إنه البق! البق حشرة دموية اللون ثقيلة الظل غبية عمياء ومصاصة دماء أصيلة. لكن رغم غبائها إلا أنها كانت ذات فطرة فى غاية الدهاء. لم تكن "الحقيرة" لتهاجمك ألا وأنت فى سابع نومة. ولها استراتيجية معروفة لقاطنى الغرفة؛ إنها لا تتبع إلا الأنفاس الثقيلة الغاطّة فى نوم عميق.. حتى أنك بعد استيقاظك كنت تحس برائحة البق فى أنفاسك. وليتها تقررصك ثم تمضى، لا.. بل تترك بجلدك بقع دم جافة متجلطة إن أنت هرشتها فستؤلمك ألما مبرحا ثم تنزف. والويل لك كل الويل إذا تجرأت فقبضت على "المجرمة" بإبهامك والسبابة ثم فعصت.. ساعتها ستتبعث منها رائحة تقلب معدتك.. رائحة الدم المخزون النتن الأسود. رائحة البق أحالت الغرفة إلى قبر للأحياء. وكانت للبق مصيبة أخرى. إن مصرعها فعصا سيترك على بنطالك، أو جاكنته بيجامتك، أو ذيل جلباب أختك، بقعا مهما دعكتها أمك فى طست الغسيل بالماء المغلى والصابون والبوتاس ما كانت أبدا لتزول. يرتدى على بيجامته ويخرج فتعرف الحارة كلها أن فى بيتهم البق. يسخرون منه مع أنهم جميعا مبقوقون مثله.

.. وكانت البراغيث أبشع!

لسعته توفظك من أحلاها نومة. ولأنها ضئيلة الحجم جدا فمستحيل أن تستبين لها مقرا حتى لو حاولت. هي- ساعة- فى ثنية من ثنيات رجل بنطال بيجامتك، وساعة فى تقطبية جلباب أختك، ودائما هي فى "تكة" اللباس الداخلى المطوية على نفسها ألف طية. الظلام موطن البراغيث الدائم الآمن وبدونه لا تكتمل دورة حياة البراغيث. والبرغوث عفريت لا يمكنك الإمساك به أو فعصه مهما أوتيت من مهارة ودراية وصبر. فأما القمل فمعروفة ديتته. مكانه معروف للكافة. شعر البنات.. ذلك الشعر الوسخ المعبق بالتراب والعرق والتجاعيد. وهكذا كان قتل القمل أسهل. تدلق أمك نقطتين أو ثلاثة من "جاز" بabor الطهى على الرأس الملعبك الشعر، ثم تدعك، يهيج القمل طائشا فى كل اتجاه. وحينئذ يسهل اصطياده بينما أختك مستلقية فى دعة واستكانة تريح رأسها الغارق فى الجاز فوق فخذ أمك ساعة العصارى.. فكنت لا تشم من شقيقاتك الأربع إلا رائحة الجاز!

الجنة العجوز - دون بقية الأحياء بالرفة- تميزت بميزة نادرة، وهى أنها كانت تحب هذه الكائنات الدقيقة فبادلتها الكائنات حبا بحب، ولم تكن تقررص منها شيئا.. ربما لندرة ما كان بجسد العجوز من دماء. رائحة الدم ظلت فى أنف على حتى بعد أن أصبح يتحمم فى اليوم مرتين؛ مرة الصبح.. وأخرى فى المساء!

الفصل الخامس

المحوجة الطازة

"أم شفيق.. تلك الكتلة الآدمية المتسريلة بالسواد المصطنع..
والدمامة المدعاة.. والعوز الحقيقي أمام الناس.. من قمة
الرأس حتى أخمص القدمين.. كانت - بالليل - أجمل النساء!"

١٦

حارتنا، وإن كانت حارة للروث والرائحة، كانت أيضا حارة للجوع . كل من
فيها جياع، إلا أن بيت أم شفيق "بائعة المحوجة" كان بين بيوتنا الأجوع. عم
أبو شفيق مقعد كسيح ليس به إلا لسان وصوت من أقبح الأصوات. وفيما
بعد تبين للجميع أن بالرجل شيئا آخر مذهلا ما كان يخفى أبدا عن أعين
نسوة الحارة حين يرينه رافعا جلبابه ليتمخّط . وكان مصدورا مصابا بربو
مزمن فيظل يسعل حتى يمتلىء شدقاه بالدم الفوار فيبصقه في وجه من
يتصادف مروره بجوار البيت المهدم، فيشتّمونه ويشتمهم. أم شفيق كانت
تخبز " المحوجة الطازة" في البيت ليلا؛ طحين الذرة، وسمن، وعسل أسود،
و"تحويجة" تشتريها من الحاج العطار بعد أن توسعه شتائم وغمزا ولمزا
فيموت من الضحك ويقرصها في ثديها فتهاز ردفها في سعادة وتخرج له
لسانها ثم تمضى تتسائل: متى سيحتويني هذا الفحل فيجمد عيني في
محجريهما؟ وفي الصباح تخرج وفوق رأسها الصاج الأسود محمولا على
كعكة دائرية من القماش الخشن لفتها باقتدار وخبرة. كانت تسميها "الحواية"،
وتكون قد رصت بالصاج قطع المحوجة على هيئة مكعبات صغيرة. تجلس

بجوار باب المسجد الكبير تحلم بالحاج. عشقت أنا محوجتها فأحببتها وكانت أم شفيق تحبنى فلم يشتمنى أبداً عم أبو شفيق أو يبصق فى وجهى.

- هاتى قرص محوجة يا خالة

- إجرى هات "تعريفة" من أمك يا وله وتعال خد!

فرحة العمر كله كانت عند القضة الأولى. الشبع بعد الجوع يجعلنى سعيدا. تقرأ هى الفرحة فى عينى فتبتسم: أنت طيب زى أمك يا على. وكانت تضرب عم أبو شفيق بالنهار حتى يسعل ويبصق الدم من فمه ثم بالليل تحتويه فى حضنها فتحلق به فوق السحاب. يا رجل يا عويل .. ما فيش فائدة فيك.. قم شوف لك شوفة داهية تشيلك. أبو شفيق - رغم الضرب والإهانات والمرض - لم يكن عاطلا بل كان له عمل؛ كان يشحذ. يقف عند باب الجامع ويشحذ. يزحف أمام الدكاكين ويشحذ. يتطفل على أصحاب المخابز والطوايين وعربات السمك ويشحذ.. وكان أيضا يفاجئ الفلاحين بالحقول ساعة الحصاد ويشحذ. كان يشحذ كل شىء وأى شىء و يعود لها آخر الليل بجوال مملوء بالخبز الجاف والحبوب وبقايا لحم الجزارين والعظام النتننة. تدور هى بالخبز على أصحاب البهائم. تبيع الخبز المشحوت. تعود ومعها الطحين والعسل الأسود والسكر والسمسم وزغدة العطار المدوخة فى الصدر العامر. تبقى طوال الليل تخبز وفى الصباح تخرج لتبيع. عندما تقدم العمر بى قليلا رأيتهما تجلس بالمحوجة عند باب المدرسة و تصيح بصوت منعم: " المحوجة الطازة".

ولم يكن لعم أبو شفيق إلا جلاباب واحد؛ أزرق باهت ممزق لا يصل إلى قدميه بل يأتى عند الركبتين ويقف. جلاباب مزركش بالرقع وبقايا البصاق الدموى المنقيح. ولا يقص الرجل شعره إلا فى عيد رمضان. وله لحية عششت

فيها البراغيث وأسراب من القمل والنتانة. رائحته لا تطاق فكنت تعرفها على مبعدة أميال قبل أن تقترب منه فما كنت تجرؤ أبداً على الاقتراب.

ولكنى مع ذلك كنت أحب هذه الرائحة!

آه .. من الامتزاج المحبب بين الروائح والحكايات والألفاظ التي لم أسمعها إلا عندهم وطعم الطعام الذي لم أتذوق له مثيلاً قط إلا في بيتهم. وآه .. من المشاهد السرية المربعة في حلاوتها التي لم أرها قط إلا في دارهم والتي كنت أنا دائماً جزءاً منها. الرائحة إيهاها كانت تستدعى إلى العقل كل المتع التي ما بعدها متع فكنت أحب الرائحة. رغم الفقر المذهل - الذي لف حياتهم لفا كالأكفان تلف الجثث الحية فلا تسمع للأرواح أنفاساً إلا همساً - فقد كانوا يتقاسمون معي طعامهم. كان طعامهم مفاجأة يومية مدهشة من العيار الثقيل. " ربنا يا بنى بيحلى للفقير لقمته" .. هكذا كانت تقول لى أم شفيق عندما ترانى ألتهم طعامها التهاماً فأماً بطنى. لم يشبعنى فى حياتى قط طعام إلا طعام خالتى أم شفيق .. ربما لأننى كنت آكله " على جوع". طعام خالتى أم شفيق كان بقايا من البقايا التى شحذها عم أبو شفيق خلال نهاره الشاق المهين. كنا - نحن فى بيتنا - قد اعتدنا أن تطهو أمنا كل شىء على حدة وفى إناء منفصل. اللحم وحده والخضار وحده والأرز وحده والحساء وحده. وكنا نستخدم الملاعق لنقل الطعام من الأواني الكبيرة إلى الأطباق الصغيرة ومن ثم إلى أفواهنا. وكانت أمنا تلسعنا بالملعقة الساخنة، الخارجة لتوها من الإناء المغلى الضخم، إذا أحدنا تجراً فأخرج صوتاً وهو يعضغ أو مصمص أصابعه أو تفتف أو تششق وهو يأكل أو مد يده ليغرف غرفة من هنا أو هناك دون إذننا. الملاعق كانت مقدسة عند أمى قدسية الطعام ذاته: " إياك أن تدعو الشيطان ليأكل معنا .. الأصوات تجلب الشياطين! " أما فى

بيت أم شفيق فلم يكن الأمر على هذا النحو أبدا. كان الشيطان دائما هناك يصخب ويرقص ويأكل فيفتقتف.. وما أجمله من شيطان!

كانت أم شفيق تفرغ" جوال الشحاذة" فتبدأ فى تصنيف المحتويات بدقة متناهية. الخبز الجاف فى ركن، وقطع اللحم "الشغت" المدهن فى ركن، وعظام الدجاج وأرجلها فى ركن، ورعوس السمك وأحشاؤه وذبوله فى ركن، وأنواع الفاكهة المشحوتة فى ركن. فى مواسم البطيخ كنت تجد بطيخة باهتة القلب أو بطيختين فى الجوال فكانت أم شفيق تدرجهما إلى الظل بجوار الفراش الجاف المهترئ المسكون بالبراغيث. وكانت لها طريقة عجيبة فى الطهى. كانت تضع كل شىء معا فى صينية واحدة غويطة مع قليل من السمن وكثير من الملح والبهار ثم ترمى الجميع إلى الفرن بعد أن تحمى عليه لينهمك الكل فى الكل. كانت تسميه "طبيخ نى فى نى". بعد إنضاجه تدلفه كله فى إناء واحد مسطوح ثم تدعونى وزوجها لأأكل أشهى طعام فى الدنيا. لا ملاعق ولا سكاكين ولا أطباق ولا لسعة ساخنة مباغته تصعق فخذك فجأة لتحرقه. كان الطعام صينية واسعة بلا حواف بها أرز. إلا أنك لو مددت يدك فدفستها فى العمق قليلا فسوف تخرج وبها هبرة لحم كأنها الزيد، أو فخذ دجاج تملطه فى فمك بقضمة واحدة، أو رأس سمكة هشمتها السخونة فصارت عسلا مصفى، أو نصف بصله غزاها الشواء فحملت بداخلها مذاق الحمام المشوى، أو فص ثوم هذبته النار فصار "ملبن!" وكان لعابك يسيل على ركنى فمك فتقبل على الطعام كالمجنون - أنت الجائع الذى بدأت أصوات جوفه تظهر فتقعقع. تأكل كما لم تأكل من قبل. تنتظر أم شفيق نحوى وتبتسم فى فخر، ثم تسخر: كل يا وله واملا بطنك ما هو أكل شحاتين! تمنلىء بطوننا فنضحك عاليا ونفرغ الصينية عن آخرها. تنهض أم

شفيق ترجرج رديها المزهدين فى تكاسل. ترمق الكسيح بنظرة ذات مغزى يتلقفها أبو شفيق فى شوق ويحك أسفل بطنه فأدرك أنا أن النزال الكبير قد حانت بشائره. أفتح أنفى على اتساعه لاستقبال الرائحة الحميمة .. رائحة العشق!

كنت صغيرا. فكانت أم شفيق تنسى وجودى. وتتعرى!

أم شفيق- تلك الكتلة الآدمية المتسريلة فى السواد المصطنع والدمامة المدعاة والعوزالحقيقى أمام الناس من قمة الرأس حتى أخمص القدمين- كانت فى الليل أجمل النساء. وكان أبو شفيق- هذا الشحاذ الكسيح الخرب الصدر والروح وعنده أقبح لسان عرفته الحارة- أقدر الناس على ابتكار أفاعيل العشق وتفانيه. كان الليل ليلا لهما هما فقط.. ولى. أم شفيق تسحره فيسحرها حتى يذهب عقلاهما وترتعش أطرافه المشلولة من الإنهاك ثم يغطآن معا فى نوم عميق. ساعتها كنت أتلألأ مبهورا لاهت الأنفاس من عندهما وأتركهما نائمين. أخرج منتشيا أترنج من فرط اللذة المتخيلة فترانى مريم- الجالسة فى الشباك تنتظر ليلا- وتبتسم فى خبث.

بيت خالتى أم شفيق من الطين. دهليز ضيق ينتهى بمساحة يشغلها الفرن وجوار الفرن الغرفة الوحيدة. ليس بالغرفة إلا فرشاة من القطن البالى الممزق لكنها بالليل كانت تشتعل نارا. وجوار الفرن طست نحاسى ركبته الجزارة فازرق.. مسنود على باب الكنيف المفتوح دائما بعد أن تبيست فيه المفصلات وصدأت. تنظر إلى فى تحذير حازم وتهمس: إوع يا واد تبص عليا يا وله! تسحب الطست وتبدا فى خلع الأثمال البالية قطعة وراء قطعة، فتبرز الجواهر المخبأة من مكانها. ينزلق الماء على الفجوات الهاجعة يوقظها فإذا بالشعر الملموم على الرأس فى الصباح -كرأس المقشاة- ينفلت

من عقاله ويبلغ الكعبين. أسود كالليل لامعا كما النجوم و تدعكه بقطعة الصابون المخبوءة فى قماشة نظيفة وردية اللون تحت فخذها الأيمن. يلمع عاكسا ضوء القمر الذى تناسى حياؤه وراح يسترق النظر. تهبط الكف البضة فوق الهضاب البارزة تسحقها سحقا بالحجر الرمادى الخشن الملمس حتى تبرق الهضاب. يسعل عم شفيق ويزحف نحوها. تغمز لى بعينيها المغمورتين لتوهما بالكحل: خليك هنا يا على.. إوع تبص علينا من فتحة الباب.. هاموتك!

ينفجر بركان الشبق النائم منذ دهور. أرى الملحمة كلها وأشم رائحة الحمم وأبخرة الماء الذى يغلى ويكركر فى الضلوع والأحشاء والأوصال ثم أخرج مهرولا فى انبهار. فى الصباح أمد لها يدى بالتعريف. أخطف المحوجة وأجرى. تنتظر إلى فى تواطؤ وتبتسم. تقرص شحمة أذنى بالراحة وتهمس: إوع يا على.. هاموتك! فما كنت أنطق بكلمة لمخلوق ليس خوفا من "هاموتك".. بل رغبة فى امتصاص لذة المشاهدة حتى آخر قطرة!

غيوم، وسحابات ثقّال، وشمس حارقة كانت تطارد شمسا غاربة، وبرودة تكوى العظام ثم حر لافح. حقول خضراء تعكس أشعة الشمس الذهب، وحقول جرداء ذبلت فيها الزروع حتى ماتت، وحقول سوداء غمرها الوحل. مساحات لا حدود لها من الورد الأحمر والأصفر والأبيض فاحت روائحه التى لا طاقة لى بها، فأصابنى الدوار. قبور مفتوحة، برزت منها هياكلها العظمية التى كانت تبعرها الريح هنا وهناك فتحدث أنينا يملوك بالأحزان، وأفواج من البشر تحلقوا حول الجثث يلطمون الخدود ويتبادلون النواح. وصحراوات قاحلة تخللتها تلال متوسطة الارتفاع، انتصبت فوقها طيور سود تتزوج فى غلّ. مستنقعات وبرك آسنة تظهر فيها رعوس الزواحف من كل صنف ثم تختفى، فتخرج الفقايع الهائلة تكاد تبتلعنا فتتمايل نتجنبها ونبتعد. بحار ممتدة، موجهها كالجبال، يصدم بعضه بعضا، فيظهر لنا القاع، مكتظا بالوحوش المائية التى يلتهم كبيرها الصغير فى شراهة متناهية.

.. ودخلنا إلى الغابات. أشجار ذوات سيقان تمتد حتى عنان السماء، وتنتهى بأغصان وأوراق كثيفة اخضرارها المتشابك يناطح السحاب. وتحت الشجر جداول رقراقة، ينساب فيها الماء عذبا رائقا، طعمه عسل، فتوقفنا - أنا وعبد الستار - نعب الماء عبا، ثم طرنا من جديد. وبين الأشجار كانت الذئاب تطارد الغزلان صغيرة الحجم بضراوة، فتقبض أعناقها بأنياب كالسيوف، فينهمر الدم فوق الأشداق الجائعة. تمتلأ البطون باللحم الطرى المخلوط بالدهن والعرق والدماء، فكانت الذئاب تتجشأ فتهتر السماء. تنظر الذئاب لنا بتوعد غاضب، فنتركها ونطير.

.. وبلغنا وادى الأفاعى، فرأينا العجب. كان ثمة أفاع طولها مسيرة يومين، فكانت تبتلع كل ما يصادفها لتسكت الجوع المؤلم فى أجوافها. الأفيال الضخمة ما كان يستغرق ابتلاعها إلا ثوانى معدودات. وتعجبنا لأفاع لم يزد طول الواحدة منها على طول كف اليد، فإن هى سقطت بنابيهها الأزرقين على الأفعى الهائلة امتصت دماءها فى لحظات، فلا يبقى من الأفعى إلا كومة من الجلد المهمل تلمع تحت وهج الشمس، ومع ذلك ما كان حجم الأفعى الصغيرة يتبدل، فتساءلنا: وأين يا ترى ذهب أطنان اللحم والعظام؟ وكانت الحيات القميئة تتابعنا بعيونها الميتة، ثم ترمينا بالسم المصوب نحو أعيننا بإحكام كالسهام، فكان عبد الستار يتفادها بمهارة. وهناك، فى الطرف النائى من السماء، شاهدنا النزال الدامى بين أسراب الجراد والنسور الجارحة. كانت الكتلة السوداء من الجراد تسقط فوق سرب النسور، ثم تعلو، فلم نكن نرى إلا بقايا متراكمة من الريش الأسود المتألم المخلوط بالدماء. ملايين الجراد التهمت فى دقائق معدودة ملايين من النسور، فتملكنا الخوف أن يستهدفنا الجراد، فتعجلنا الرحيل.

أشار إلى عبد الستار، ثم همس: إياك أن تحدث صوتا، ودخلنا الكهوف المظلمة. أسراب من البوم كانت ترمقنا بعيون من نار، فينطلق الشرر. أرادت أن تطير نحونا فهجمت عليها وطاويط كالجمال فمزقتها إربا. صرخات البوم والوطايط استدعت قردة فضية اللون، لها مؤخرات شفقية حمراء كلون الغروب ، جرت نحونا، فهيرنا لا نلوى على شىء. فى زوايا الكهوف، هجعت إناث بشرية، هائجة الشبق، فاضحة العرى، فاتحة سيقانها العملاقة. كانت تصدر أهات جائعة تشتهى التزاوج، فتأتيها إناث أخرى تقضم أفواهها تقبيلًا، ثم تلتهمها التهامًا، ثم تبصق من خياشيمها دما ساخنا حرًا، فيصيينا رذاذ بطعم

الملح. كانت الأنثى تسقط على أسفل بطن الأخرى، وتمد لسانا شاهق الاحمرار، فيخرج اللسان وبه أجنة غير مكتملة النمو، ويقذفها اللسان نحونا، فكنا نشم رائحة الشهوات المحرمة. وعلى أسقف المغارات، تعلقت أقمار كالمصاييح على هيئة الأجزاء الحميمة للبشر، وأثناء نالها التعب من الانتظار فازرقق لونها. كانت تصدر فحيا خافتا كالفحيح الذى يسبق النعاس.

أصابنا النصب والجوع، فقال لى عبد الستار: هيا إلى الطعام! نقر عبد الستار بأصابعه جدارالمغارة القرمزى الطلاء، فانفتح، فدلفنا إلى القاعة الفسيحة، التى تراصت فيها موائد دائرية فوقها لحم طير مشوى وأرز وحساء وفواكه كثيرة. تقدمت نحونا حوريات كاللؤلؤ شفافة الجلد.. فكنت أرى هياكلها العظمية تحت اللحم الأبيض الممزوج بحمرة خفيفة، فتاه عقلى. اصطقت الحوريات المتسربلات بأثواب من الكتان الشفاف الأبيض ورحن يرقصن على أنغام موسيقى سماوية حاملة لم أدر من أين كانت تنبعث. كن يتقدمن ناحية عبد الستار فيسجدن ، ويزحفن حتى تلامس شفاهن أصابع قدميه، فيقبلنها فى وجد، ثم ينسحبن إلى الوراء، ويضطجعن على ظهورهن، مفرقات الكعوب والأفخاذ والسيقان، فيتسرب من ثنايا أعطافهن عطر يتلقفه عبد الستار بفتحتى أنفه، فإذا بشعر رأسه ينتصب! تقدمت إحداهن منى، وأخذت بيدي، وخرجت من بين شففتيها همسات خجلى كالأهات: أنت يا حبيب مريم.. هيا معى. طرقت الحورية طرقا خفيفا على باب من البلور المموج. دلفت ودخلت خلفها. كانت مريم هناك نائمة فوق سرير من الذهب الخالص تخطف لمعته الأبصار. كانت فى رداء من الحرير الأخضر المفتوح الصدر حتى منتصف الثديين. لم أكن رأيت هذا الجمال فى مريم من قبل.

عينان مكحولتان مسحوبتان لأعلى وليس إلى الجنبين. شديد سواد عينيها شديد بياضها. والأنف عاج. والشفتان فى لون التوت الأحمر ساعة نضوجه. رأيتى فابتسمت ومدت ذراعيها : تعال يا على. عندما هممت أن أرتدى بين ذراعيها شلتنى الزمجرة الصاعقة. كان عبد الستار قد اقتحم الغرفة السحرية، دفع الباب بقدمه بعنف، وجذبني من عنقي فكاد ينخلع، وصرخ: هيا يا ولد .. سنعود!

ما كدت أغلق عيني من الدهشة ثم أفتحهما حتى وجدتني هناك. فى بيت العجوانية، مقعيا فى الركن، بجوار سرير مريم. نظر إلى عبد الستار فى غضب. وضع جلبابه الفضفاض فوق جسده، ونفخ جناحيه بفمه فاختفيا، وغادر الغرفة المظلمة جاذبا الباب خلفه فى زهق، فارتجت أركان البيت. قبل أن يخطو رفع سبابته فى وجهي، وزعق: إياك يا ولد أن تخبر أحدا بما رأيت! ضحكت مريم ضحكتها المزلزلة وكوّرت كفها اليمنى المضمومة الأصابع ونظرت لعبد الستار مبرزة لسانها إلى خارج الفم ثم دقت بالكف المكورة فوق الكف الأخرى المبسوطة ودارت بها عليها كالرحى.. كانت تكايده. ضمتني واختلست النظر إليه وهمست لى بصوت مزقزق: ما تزعلش منه يا على .. بغير منك!

الأصوات .. آه من الأصوات فى حارتنا. فى حارة الصقاروة الأصوات ليست كالأصوات. أصوات كلها زعيق فى زعيق. وكانت الشتائم طعامنا اليومى. الكل يشتم الكل ويسب أمّه ويلعن أباه. وما كان "سبّ الدين" و"الحلفان بالطلاق" شيئين استثنائيين على الألسنة بل كانا هما الأصل! حارتنا حارة من الشتامين والسبابين، هكذا هى، وهكذا نحن. وكنا كلنا نمارس تلك العادة الصوتية الحلقية القبيحة بالليل وفى النهار. كلنا؛ كبارا وصغارا، نساء ورجالا، شبان وعواجيز، فلاحين وغير فلاحين كنا نشخر. وستدرك- إن شأعت لك الأقدار أن تترك- أنهم جميعا لم يكونوا يدركون، وهم يتبادلون السباب القبيح، أنهم يأتون عملا غريبا. الشتم هو الطابع الغالب على الحارة بلا منازع. نتربى عليه، ونكبر به، ونتفوق فيه على الآخرين، فيصبح الهواء الذى نتنفس، والوقود الذى تطفى على ناره أفئدتنا والعقول. "قباحة اللسان!" كانت عبقريتنا الكبرى التى تميزنا بها عن الحارات المحيطة. وكلما رباك أبواك- وأنت طفل ماتزال- على الإبداع فى الشتم وبذاءة اللفظ، وانحطاط اللسان، كلما حققت كل يوم انتصارا جديدا، يكتب فى سجل طفولتك، وتظل الحارة تحكى عنه وتتحاكى. وكان "البطل" فينا هو الأكثرنا قلة أدب، فكنا نحترمه أكثر. "إشتمنى أكثر .. أحترمك وأهابك دون سواك"، تلك هى القاعدة الذهبية المحفوظة عن ظهر قلب فى حارتنا.

والعالمون ببواطن الأمور وأسرار الشتم "الحيانى" يعرفون أن ثمة أسسا تقوم عليها منظومة الشتم المقدسة. الأساس الأول، أن تبدأ بالتعريض بشرف الأمهات والتشكيك فى الأنساب بادعاء أن خصمك لم يكن قط ابنا لأبيه. الأم فينا هى أعلى ما نملك، وشرفك من شرفها، فإن أنت أسقطت هيبه أمّ

الخصم، ومزقت صورتها فى ذهنه، وفى أذهان الآخرين، فقد أنزلت به آنذ طعنك النجلاء، فلا يجرؤ بعد ذلك أبدا على التعرض لك أو مواجهتك فى نزالات الألسن. يخافك فتظل تحقق الانتصارات على طول الخط.. وبعدها- بمسافة طويلة- يأتى سبّ شرف الأب فى مرتبة تالية من العراك.

أما الأساس الثانى، فهو توجيه سهام القباحة نحو الأجزاء الحميمة المرتبطة بالحلال والحرام عند الأم. إنك ما تتفك تؤكّد- وأنت فى أثناء النزال المستعر- على أن هذه الأجزاء الحميمة، المخفية فى ثنايا جسدها، وداخل الفجوات البعيدة عن الأيدى والأعين، قد تم انتهاكها مرات ومرات، وحبذا لو ذكرت اسم المنتهك. إنها أعضاء من المفروض أن الذى يستخدمها هو شخص واحد، شخص أبيبك، فإذا أثبت أن أكثر من رجل واحد قد نجح فى استخدامها، فإنك لا محالة صاحب النصر المظفر. كنا نقول: " ياللى أمك فعلت كذا أو كذا مع فلان وفلان!" فنكسب بالقاضية.

والأساس الثالث، هو التعبير بالفقر. ولأن الحارة كانت مكشوفة لأبنائها كلهم، وجميعهم كانوا فقراء، وتردد الألسنة ليل نهار " لا تعايرنى ولا أعابرك.. الفقر طايلى وطايلىك" فقد كانت الفوارق البسيطة جدا فى درجة الفقر تحدث فرقا كبيرا ومؤثرا. وبطبيعة الحال كان أكثرنا فقرا هو أشدنا فى العداوة بأسا، ومن ثم فى طول اللسان. وكان ذلك شيئا منطقيا جدا ونؤمن به كلنا، " أنت فقير .. إذن خذ حقك بيدك، فإن لم تستطع فبلسانك!" وهكذا اعتدنا على أن نصحو كل فجر على شجار محتدم. نهز رؤوسنا وننتمم: يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم. وكان المعتاد أن تستمر المنازلة اللفظية لنحو خمس دقائق أو عشرا، ثم تخفت الأصوات حتى تتلاشى، فإن دامت لأكثر من ذلك، فإنك على بركة الله أمام خناقة بالأيدى، ربما تطورت إلى معركة بالشباشب

والنباييت، وساعتها كان كبار الحارة يهبون مشمرين عن سواعدهم لوضع الحدود، التي ما كان للمتساجرين أن يتخطوها، إلا فيما ندر.

لكن هل كانت الشجارات اليومية تترك في النفوس غلاً أو مرارة أو رغبة في الانتقام؟ لا.. بل قليلا ما كان ذلك يحدث. "كثرة البكا تعلم النواح"، وكثرة تبادل الشتم وال"تسيخ!" كانت تصنع منك ومنهم "جبلّة" بلهاء لا مبالية، سميكة الجلد، لا تحس ولا تهتم. كنت تسمع المرأة تلعن سنسفيل أم جارتها، وترميها بأشدّ الاتهامات والفضائح والجرس، وبعد قليل تراهما تتجاذبان الحديث وتتبادلان الابتسام ووكزات الأيدي الملهوفة في المناطق المحرمة الحميمة والتوبيخ الغانج: "عيب يا مرة .. اختشى على دمك!" وكانت أشهر من طورت أسلحة الشتم الثقيلة، فأبدعت في صنعتها في تاريخ الحارة " أم سيد الشلق". كانت تقف على أطراف أصابع قدميها، تتحفز، تخلع "التريعة" المهترئة من فوق رأسها بجذبة واحدة، تصير عارية الرأس، تمد كفيها مفرودتين فترفع بهما ثدييها المترهلين من أثر الرضاع المتكرر، تتحنى، تأخذ ذيل جلبابها فتدسه بين الثديين فينشبك، ومع رفع الجلباب ينكشف مثلاًث "العورة" كالغابة المظلمة أمام الخصم. تتأهب، وينطلق سيل عرم من الكتل الكلامية المتلاصقة المتحدة المربوطة معا في حبل واحد، فكنت تسمع ألفاظا ما سمعتها في عمرك من قبل. غير أن أخطر ما في أم سيد الشلق أنها ما كانت تكتفى أبداً بالشتم والإيذاء اللفظي - وهو ما كان في الغالب يمثل الخط الأحمر لنساء الحارة . كانت تتقدم كإناث القطط اللقطة الشرسة المسكونة بشبق التزواج فتقبض على رأس الخصم، الذي غالبا ما يكون امرأة، لكن لا مانع من أن يكون الخصم رجلا إذا اقتضى الأمر. تلف شعر رأس الخصم بمهارة فائقة على كفيها، وكأنما هو خيط نسيج بين يدي غزّالة شاطرة تغزله،

ثم .. هوب.. تطرح خصمها أرضاً، وتجلس فوق صدره بمؤخرتها الرجراجة الرهيبة. وكان للأسنان الفضل الأكبر فى نجاحات أم سيد المتكررة التى ذاع صيتها فى الآفاق!

الخبرة الطويلة فى العراك علّمت أم سيد ثلاث حقائق كاليقين. أولاً: أن أضعف ما فى المرأة "لباليبها"؛ تلك المنطقة اللدنة الطرية فى بطن الفخذ التى متى كمشتها فأنشبت بهما أظافرك تصبح الضحية كالزبد بين يديك وتخور قواها كلها فتتهار. وقد أضافت أم سيد من عندها إبداعاً جديداً، حيث استبدلت بالقرص والخمش العقر بالضروس والأسنان. ولم تكن أسنانها كأى أسنان، كانت أسناناً قد شحذها الجوع فصارت سكاكين بتّارة. والحقيقة الثانية، أن أى امرأة أخرى مهما كانت قوتها لا تحتمل أبداً اللكم فى النصف الأمامى من الثديين، فإن أنت تقدمت بسرعة ووجهت لكمّتك إلى الحلمتين مباشرة فإن القلب يظل يدق يدق بعنف ويستتجد بالمخّ طالبا المزيد من ضخ الدم فيستجيب المخ للطلب ويؤدى دفقان الدم إلى "الدوخان العظيم"، وساعتها تكون أم سيد قد كسبت المعركة، أو كادت. والحقيقة الثالثة، التى حفظتها أم سيد الشلق منذ نعومة أظفارها، أن النساء يكرهن لون الدم ورائحته إذا الدم انبجس من منفذ آخر غير المنفذ السفلى الذى اعتدن كل شهر انبجاسه منه فإن أنت ضمنت أصابعك على هيئة القبضة، ثم طوحت القبضة بكل ما فيك من العزم إلى أرنبة الأنف، فإن الدم ينفجر شلالاً لا يوقفه أحد، وساعتها يكون الخصم المتألم قد انهيار فيسلم لك كل أسلحة مقاومته. كنا جميعاً نخاف عراك أم سيد الشلق إلا واحدة فقط كانت أم سيد تخشاها خشيتها الموت. إنها "مريم" .. وكان لذلك قصة تروى:

حدث ذات مرة، من عشر سنين أو نحو ذلك، أن حملت خالتي سكيانة العجوانية ابنتها المريضة مريم فوق العربة" الكارو" التي يجرها الحمار. كانت مريم فى طريقها إلى المستشفى العمومى. مرت العربة بجوار فرشة يرتقال أم سيد الشلق فأثارت الغبار واكتسى البرتقال بالغبار. قفزت أم سيد كالنمرة الهائجة. أطاحت بالعجوانية من العربة. جذبت المريضة مريم من شعرها المتألم فطرحتها أرضا وصرخت مريم. هنالك انشقت السماء وزلزلت الأرض زلزالها وخرج من باطن الأرض عبد الستار صاحب الجمل. لكم عبد الستار بائعة البرتقال لكمة سمعناها جميعا، أطارت نصف أسنانها، ثم انحنى عليها، وفى جذبة واحدة خلع عنها أثوابها كلها أثمالا ممزقة فعادت عارية كما ولدتها أمها. حمل عبد الستار أم سيد الشلق فوق ذراعيه كما يحمل القصاب نعجته الذبيحة وطاف بها زقاق الحارات وبيوتها وزرائبها وصرخ فاجتمع إليه الإنس والجن وحيوانات الزرائب. قال بصوت سمعه الناس فى أرجاء الأرض والسماء: يا حارة نجسة.. هذا مصير كل من يمس منكم مريم بسوء. ألقى عبد الستار المرأة العارية على الأرض ثم مضى فراح الناس ينظرون إلى العرى الفاضح فى شماته ويصقون عليه. وهلل الأطفال مبهجين: من ده بكرة بقرشين .. من ده بكرة بقرشين.. ومنذ ذلك اليوم و أم سيد كلما رأت مريم خارت قواها فسجدت أمامها ثم هوت على قدميها مسحاً وتقبيلاً وصرخت بصوت يسمعه الجميع:

يا حبيبة .. يا بنت الحبايب!

ولأن أم سيد الشلق كانت على يقين من أن مريم تحبنى فما كانت تتعرض لى أبدا بسوء. كان ابنها سيد يقوم هو بالواجب.. ويأخذ متى ثأر أمه!

الفصل السادس

مصاص الدماء

"هذه ليست عقرة كلب.. بل هي من فعل شيطان رجيم!..
عندما نطق عم قناوى العجوانى بالكلمات المفعمة باليقين..
صدّقناه جميعاً.. واهتزرت قلوبنا من الرعب.. فهرب كل منا إلى بيته!"

١٩

حوادث الاختفاء الثلاث وقعت بعد ظهور "شرقاوى" فى الحارة بأيام قليلة،
ومع ذلك لم يربط أحد بين ظهوره واختفاء البنات الثلاث، إلا بعد انقضاء
الشتاء.

شرقاوى، عندما هبط على الحارة، كنا فى عز الصيف، وكان الحر مأساة
حارقة، والقيظ ناراً تشوى الوجوه.. غرقنا فى العرق اللزج السمج، الذى كان
يتسلل من الجباه إلى العيون فيحجب عنها الرؤية.

الصبايا الثلاث كنّ شلبية ابنة سلامونى سمكرى بوابير الجاز، وهناء ابنة
أم خليل الأرملة، وصباح ابنة عباس "الكلاّف". كانوا بشرا هامشين
مهمّشين، لا نسمع عنهم.. أو منهم.. إلا قليلاً. لكن بعد الاختفاء المريب
صاروا حديث الحارة، ودخلوا تاريخها من باب الدم المسفوك.

السمكرى أغلق دكانته المظلمة الموحشة فلم نعد نقدر نصلح بوابيرنا التى
طالما أصابها الشحار. افتقدناه، فتحولت حكايته إلى أسطورة من أساطيرنا
العديدة. كان للسلامونى من البنات تسع.. فما كانت امرأته تتجلب له إلا

البنات. ظل يشتهي الولد، قال: أموت ويكون لى ولد من صلبى، يرثنى ويرث الدكانة من بعدى. طوال حياته كان يشبع امرأته بالنهار ضربا وتعذيبا، وبالليل يهلكها ضمّا بحثا عن الولد المنتظر. لم تأت له بالولد، فهجرتها شهورا فى الفراش، و إن استمر فى الضرب والإيلام. لم يكن يعرف أسماء بناته، فكنت تراهن يتسكن كالجاء الضالة فى الأسواق والزقاق المظلمة بحثا عن الطعام والرعشات التى فرضتها عليهن الفطرة القاسية فرضا. الكبيرة منهن طفشت. لم ترجع إلى الحارة مرة أخرى، فقالوا: أخذوها تدع فى العاصمة، وقالت أمها: بل سافرت تعمل خادمة ببيت واحد من هؤلاء الأثرياء.. وأشارت إلى القصر الشامخ.. قصر العطار. سلامونى السمكرى لم يهتم كثيرا باختفاء ابنته الوسطى شلبية:

بنت كلب .. تلاقىها راحت عند أختها فى مصر!

قالها لأهل الحارة ثم انشغل بالبابور الذى أمامه، ولم يعد يفتح الموضوع. إلا أن بكاء أمها المكتوم ليل نهار كان يدمى قلب "مريم"، ففترنو إلى وتبكى:

ياربى.. الغلبان ما يشبعش غلب.. غلبانة يا أم البنات!

كانت مريم تنظر إلى الباكىة الحافية المحطومة القلب على ضناها، فتضغط عينيها بعنف، وتتوح، فأتألم لألمها فى صمت.

شلبية ما غادرت الحارة قط، وما سافرت إلى أختها بالعاصمة، ولا أختها رأتها. شلبية وجدوها مذبوحة فى ركن من أركان حارة البغدادى ذات ظهيرة حارقة الحرارة. ذبحها الذابح من جانبها الأيمن من العنق. جاء رجال المخفر، عاينوا الجثة، سألوا منا من سألوا، ثم غادروا، فلم نرهم إلا بعد أيام، عندما رجّت صرخات الأرملة أرجاء الحارة.

أم خليل كانت أرملة لموظف بالبريد، مات عنها تاركا لها ابنتين وولدا. أدمن الولد الكيف، فتاجر فيه، ثم اختفى. قال قائلهم: هو فى السجن، فقال آخر: بل قتلته الحكومة. ظلت البنتان معها، فكانت الكبرى تخرج مع الخيط الأول للفجر فلا تعود إلا ومعها الليل ورائحة رجال لا نعرف عنهم شيئا.. قالوا: تدع فى بيت "الأسطى" .. فلم أفهم.. لكنى بعد ذلك فهمت عندما ولجت هذا البيت العجيب!

.. وأما الصغرى هناء؛ فكانت قرّة عين أمها، تلتصق بها فلا تتركها أبدا، وكانت قلما تأتى إلينا للتعب. كنا نقول كلما رأيناها: "الخوافة أهيه.. الخوافة أهيه". ووجدوها مقتولة فى الركن عينه الذى وجدوا فيه ابنة السمكرى. كانت مذبوحة بالطريقة نفسها. الركن الأيمن من الرقبة تحت شحمة الأذن مباشرة، إلا أنهم فى تلك المرة وجدوا عدة ثقوب بالرقبة جفّ فوقها الدم، فاستبعدوا الذبح، وقالوا: عقرها كلب مسعور فقتلها. ومرة أخرى أتى رجال المخفر، ومرة أخرى رحلوا. سألونا سؤالين ومضوا فلم نرهم بعد ذلك. وبعد أيام دخلت الحارة سيارة بيضاء لها "سرينة" تحدث دويا هائلا، ألقوا فيها أم خليل، ورحلوا بها. قالوا: مجنونة. مصصت الحارة شفاهها.. وبكت مريم.

.. ثم وقع الذبح الثالث، فأظلمت الحارة ظلمتها الدائمة.

استيقظت أم سيد الشلق كعادتها كل صباح. دخلت الخرابة لتفرغ مئانتها التى تكاد تتفجر. شمّرت الجلاب، أنزلت السروال المترهل، وقبل أن تفتح صمام بولها وقعت عيناها على الجثة، صرخت ثم هرولت هاربة: إلحقونى يا ناس. انتفضت الحارة من نومها على الصياح الرهيب، وجرى إليها الرجال بملابس النوم. أشارت إلى الجثة. كانت لطفلة مذبوحة وبالجانب الأيمن للعنق ثقبان عميقان فوقهما ثقبان آخران.

هذه ليست عقرة كلب، بل هى من فعل شيطان رجيم!

عندما نطق عم قناوى العجوانى بالكلمات المفعمة باليقين صدّقناه جميعا واهتزت قلوبنا من الرعب وهرب كل منا إلى بيته. سارعت الأمهات إلى أطفالهن لملمنهم فى أحضانهن وغلّقن الأبواب وصرخن فينا: لا خروج بعد اليوم. انكمشنا فى زوايا المنازل وتحت الأسرة وعيون الأمهات وسط الرعوس من اللهفة والرعب. أدركنا أن ثمة شيئا ما غير عادى يجرى فى حارتنا. لم يأت رجال المخفر إلى الحارة هذه المرّة. أسقط فى أيديهم.. فتركونا لخوفنا المमित والانزواء فى الأركان.

لفّ عباس الكلاف جثة ابنته القتيلة فى خرقة من الخيش قديمة وذهب بها مع بعض جيرانه إلى المقابر. دفنها واختفى بعدها هو وعياله وعرفت الحارة أنه عاد إلى أهله فى الجنوب النائى. ضمتنى مريم بعنف وبكت ثم همست: الشيطان دخل حارتنا يا على!

كنا فى نهايات الخريف. انتحر الخريف.. فأطلّ الشتاء علينا برأسه وأمطرت السماء قطعا صغيرة من الثلج المندوف كرعوس الدبابيس لم نرها من قبل واندلقت من السحاب سيول أغرقت البيوت والحقول. ماتت المحاصيل فى مهدها قبل بزوغها وغرقت شوارع الحارة وزقاقها فى الطين والوحل الكثيف وخيم الظلام طوال النهار فلم نعد نبيع أو نشترى. جعنا، وكان الواحد منا تظل أسنانه تصطك حتى ينسال بوله فوق الفخذين من البرد والجوع وانتظار الشيطان الرجيم الذى سيثقب أعناقنا جميعا. بارت الأرض وتفشّى الجوع وهاجر إلينا القمل والبق والحشرات والبراغيث من كل حذب وصوب وباتت وجوهنا تقوبا سوداء من أثر اللدغ والقرص الموجع. دمايل حمراء تستهويك لهرشها فإن أنت فعلت كنت سترى دماء زرقاء قائمة مخلوطة بالقبح تجرى

على سطح الوجه تؤلمه. لكنك إن تجرأت ونظرت من ثقب باب بيتكم المحكم الإغلاق جيدا بالمزاليح كنت سترى منظرا عجبا. شرقاوى العملاق يلهو تحت المطر عاريا كيوم ولدته أمه قابضا على "بشره" الجبار بين يديه يوجهه نحونا كخرطوم فيل.. ثم يصرخ فى تحد: آه .. يا حارة ما فيهاش راجل.

تختضنا الأمهات فى لهفة تبعدنا عن ثقب الباب. لكنك لو كنت تمعن قليلا فى عيونهن المفتوحة على اتساعها كالفناجيل كنت ستندهش لهذا البريق الذى يشعّ منها؛ بريق من الدهشة والشغف والانبهار والذعر والإعجاب المشوب بالحسرة. وكنت ستسمع- لو أن لك أذنين قويتى الإصغاء- شهقات متبوعة بتمتمة خجلى: "يا حومتى.. يا حومتى!". تساءلت غير مرّة: ما السر ياترى وراء هذا البريق الأخاذ والنهجان وتدافع الأنفاس واصطباغ الأصداغ بالحرمة المبللة بالعرق؟

بعد ذلك.. وعندما رأيت بريق الرغبة يتراقص فى عينيّ بشرى كلما نظرت للحاج مصطفى المجعوص على الأريكة أمام التلفزيون فاتحا فخذه.. عرفت السر!

منذ أن نزل " شرقاوى " إلى الحارة مع بدايات الصيف، والحارة كلها تخشاه. جاء. طرق باب البيت الكبير، بيت الصقاروة. نطق، فكانت كلماته ككلمات جحش ينطق. وبصوت أجش عميق مقتحم وقح مدغوم الحروف قال:

- أنا شرقاوى .. ابن ابنكم عبد الفتاح .. اللى غاب من زمان!
- وأبوك فين أومال؟
- مات!

نظروا إليه، فوجدوا فى عينيه عينيَّ أبيه. أخذوه، فأووه، وأطعموه، وأسكنوه المقعد الوحيد الخالى بالطابق الثانى من البيت، ذلك المقعد الذى كانوا قد خصصوه لتخزين البرسيم الجاف "الدريس" الذى يطعمون به بهائمهم.

كان شرقاوى يغطس وسط الدريس وينام، فإذا غط فى النوم كنت تسمع صوت غطيظه يأتيك وأنت قائم بالمسجد تصلى. وكان كل شىء فى شرقاوى غليظا قاسيا. صوته أجش تجفل منه حيوانات الزريبة كلما أخرج صوتا. وعيناه جاحظتان، تكادان تقفزان من محجريهما وتتفجر منهما الدماء، فإن نظرت إليهما، فأمعنت النظر، كانت تصيبك رعدة لا تفارقك أبدا. وكانت كفاه كالمذراة التى نجمع بها الحبوب عندما تهب الريح على الحبوب تبعثرها فى الأجران.. و قدماه كخفيّ جمل، وشعر صدره حقل من الأشواك سكنته البراغيث.. ومع ذلك كان شرقاوى طفلا فى بواكير الصبا!

- عرك قد إيه يا شرقاوى؟
- ما اعرفش!
- ما لكش حدّ!

- إنتو بس.. ها يكون ليّا مين يعنى؟!

نادر التحدث كان شرقاوى. وكان إذا تثبت عينيه فى عينى أى امرأة كنت تراها تجفل فتسارع إلى هرش أجزائها السفلى بجنون حتى تنزف الأجزاء الحميمة دما. الحمى كانت تصيب أى امرأة فى الحارة تتجراً فتتظر إليه.. فأصدر كل الرجال أوامره الصارمة لنسائهن:

- إوعى يا بت انتى وهيا تبصوا للواد الغريب ده!

ذات مساء، رآته صفية زوجة عمه خارجا من الكنيف يرفع سرواله، ففرت هاربة تستعيز بالله من الشيطان الرجيم وارتمت فى صدر زوجها ترتعد، ودمدمت كالتى تسلم الروح:

- شوفت عزرائيل يا احمد.. شوفت عزرائيل!

ضحك زوجها حتى طفحت عيناه.. وتساءل:

- مالك يا صفية.. مالك يا بت؟

- ابن اخوك!

- ماله؟

انعقد لسانها. ماذا تقول؟ بللها العرق الخجول فلم تتطق. كانت قد رأت "البشر" الجبار للولد يكاد يلامس أرض الكنيف. شىء لم ترله مثيلا أو سمعت عنه من قبل. تهتت وتلعثمت فلم يفهم زوجها منها شيئا. ضحك ومضى إلا أن الشىء العجيب ظل يغزوها فى منامها كلما استغرقت فى النوم. وكنت إذا تفرست فى وجه شرقاوى تلحظ على الفور نابيه البارزين الخارجين من فمه يغطيان شفته السفلى. كانا نابين أبيضين كالشمع. وكانا فى حركة دائمة، يصغران ويكبران بلا انقطاع. ولم نفهم وظيفة هذين النابين فى حارتنا إلا فيما بعد. لم يكن شرقاوى يظهر لنا فى النهار أبدا. كان دائما

يغرس نفسه تحت كومة هائلة من الدريس ويروح فى نوم عميق فلا يصحو إلا عندما تأذن الشمس بالمغيب. كان يصحو، فيتمتع، ويسعل، فتهتز لسعته جدران البيت الكبير، فتهمس صفية: شرقاوى صهى .. إستر يا رب! وكان شرقاوى لا يقرب طعاما يقدمونه له قط. تساءلوا فيما بينهم: هل هذا ولد يصوم الدهر كله؟ وجدوه مرّة فى الزريبة الكبيرة يقبض بنابيه على ضرع بقرة حلوب فظنوه يشرب لبنها لكنهم بعد أيام عثروا على البقرة ميتة وليس بعروقه نقطة دم واحدة. المرّة الوحيدة التى رأينا فيها شرقاوى خائفا يهرب وتكاد ساقاه تسابقان الريح كانت عندما وقعت عيناه على مريم. نظر إليها فنظرت فى عينيه بتحد. انكمش وتضاعل وطار من أمامها وسمعناه يلهث ويردد كلمة واحدة: السماح .. السماح .. السماح! ثم انتصف الشتاء واشتدت الظلمة كثافة فوق كثافتها فلم نعد نرى الشمس. وعندما انتصف الليل أيقظتنا الصرخة الرهيبة فانطلقنا جميعا نشاهد العراك المروع. كان عبد الستار قد عاد من رحلة الحج الشتوية.. (إلى السماء!) تلك التى اعتاد القيام بها كل عام فحكّت له مريم حكايات الذبح والدم المسفوك. سألتها غاضبا:

- هل نزل الحارة غريب وأنا غائب؟

- نعم .. ولد عجيب يقال له شرقاوى!

انتفض عبد الستار .. ثم صرخ: فعلوها من جديد؟ أرسلوا الكلب فى غيابي؟ اليوم نرى. خرج من عندها هائجا كثور. وفى الليل دارت معركة الدماء .. وتابعتها جميعا.

عن بكرة أبيها خرجت الحارة. اصطففنا كلنا أمام البيوت. حملت كل امرأة رضيعها. تذرث النساء جميعا بأردية الشتاء الثقيلة. اختبأ الأطفال خلف آبائهم الذين تحلقوا فى حلقة واسعة أحاطت بالساحة التى كانت بلاعات الجامع الكبير مركزها. كان الليل قد انتصف. وكان فى السماء قمر بدر قد اكتمل، فأضاء الليل، فكدنا نرى النهار. رأينا عبد الستار يخرج شاهرا عصاه الغليظة. طار كالريح فاقترح باب البيت الكبير. صعد السلم الخشبى المهترئ فى قفزة واحدة. كان شرقاوى يغطّ فى نوم عميق وسط كومة الدريس الضخمة التى اعتاد النوم فيها وقد تناثرت حوله عظام حيوانات نافقة وجلود قطط ضالة كان قد خنقها وامتنص دماءها وترك الجلد يتعفن حوله. وكان مما تعجب منه عبد الستار أن رأى سراويل نسائية مازال الدم يقطر منها فتساءل: لمن تلك السراويل؟

مدّ عبد الستار ذراعه الفولاذية وجذب النائم فبهت شرقاوى وزمجر فسمعنا زمجرته كلنا. ثم باغتننا السقطة المروعة. كان عبد الستار قد لف شعر مصاص الدماء على ذراعيه وتدرج به حتى سقطا معا من السطح المرتفع. خبط شرقاوى رأسه بكفيه فارتجت الأرض ونبت فى فمه نابان كالسيفين أراد غرسهما فى جسد صاحب الجمل فتمتم هذا ببعض الكلمات تحول بعدها عبد الستار إلى غبار فنقد النابان الحادان فى الغبار. نظر شرقاوى حوالیه.. فإذا بعبد الستار أسد هائج رابض خلفه. هاجمه فطرحه أرضا ونشب مخالبه فى عنقه. تجمد الدم فى عروقنا عندما رأينا الدماء السوداء تتبجس من اللحم اللدن لشرقاوى وانبعثت الرائحة لا تطاق فأغلقتنا أنوفنا. صرخ شرقاوى من الألم، وحملق فى السماء يستدعى جنوده فهبطت خفافيش فى حجم الجمال.

فتح عبد الستار عباءته وراح يللم فيها الخفافيش الواحد تلو الآخر فكانت تخترق جلده ثم تصرخ فتختفى.

صرخ فينا عبد الستار:

هاتوا لى أطفالم الرضّع!

قذفت النساء إليه بالأطفال فى وجل فكومهم كومة واحدة وهتف فيها بكلمات غامضة فتحول الأطفال إلى جسد واحد عملاق. كان جسدا يشبه شرقاوى بالتمام والكمال. أراد مصاص الدماء أن يفر هاربا فامتدت من الجسد العملاق ألف ذراع وذراع أحاطت بالهارب وألقته طريقا مقيدا بسلاسل من اللحم الآدمى المعبأ بدم طاهر؛ دم الرضاع.

صرخ فينا عبد الستار:

هاتوا لى صباياكم العذارى!

سارعت الصبايا إليه فنفخ فى أرحامهن من روحه.. فرأيناهن حورية واحدة فائقة الفتنة، قدماها فى الأرض وشعرها فى السماء.. مالت الجميلة فوق الشيطان المرتعش رعبا وشقاء.. وطوت إليها عنقه.. فراح يختنق بالشعر الفاحم السواد. صار الوجه الدامى أزرق كزرقة الجثث الميتة حديثا، وخرج لسان كالفيل من بين الشفتين المتورمتين، وسمعنا غرغرة من تخرج منه الروح.

صرخ فينا عبد الستار:

هاتوا لى نساءكم!

تقدمت النسوة، فخلعن عنهن ثيابهن. أشار إليهن صاحب الجمل، فانهلن عقرا بأسنانهن على جسد شرقاوى، فلم تكن العقرة تخرج من جسده إلا وبها قطع من اللحم ونحو كوب من الدم الأسود، كن يبصقنه، فتتبت فى الأرض

قطط صغيرة وجراء وفئران، تتسال من بين أرجلنا صارخة فى ذعر، ثم تفر فى اتجاه بلاعات المسجد الكبير تغطس فيها.

صرخ فينا عبد الستار:

الآن .. هاتوا لى رجالكن!

صاقت الحلقة الواسعة. اقتربنا جميعا. صرنا كتلة واحدة صماء. نفخ فينا صاحب الجمل نفخة عاتية فتحولنا كلنا إلى وتد واحد جبارله سن كالرمح؛ حاد كحد السكين. ارتفعنا إلى عنان السماء ثم هبط الوتد المسنون دفعة واحدة؛ فى القلب مباشرة، فتدفقت من قلب شرقاوى بحور من الدم الأسود كالشلالات أغرقت شوارع الحارة وتسربت من تحت الأبواب المغلقة فجرفت معها القمل والبراغيث والبق والزواحف إلى البلاعات الفاغرة أفواهاها. رأينا الجسد العملاق يتفتت إلى كومة هائلة من تراب وسمعنا الصرخات البريئة. تسللت من تحت الكومة الطفلات الثلاث الذبيحات. كن يرتدين ثيابا من الكتان الأبيض ونبتت لهن أجنحة من الريش الناعم. رنت الطفلات إلينا بعتب ثم سجدن أمام عبد الستار وطرن إلى حيث لا ندرى. أشرقت الشمس فأحاط صاحب الجمل نفسه بعباءته الفضية التى عكست ضوء الشمس.. ونظر إلى مريم وابتسم فاحمرت وجنتاها.. ثم تركنا ودلف إلى بيته وأغلق الباب.

الفصل السابع

إيفون

"هسسسسسس..ولا كلمة!"

أطيعها.. فأدفس رأسي بين ركبتيّ مصطنعا النوم كأنني
لا أرى.. لكني كنت أرى.. يتعانق الجسدان.. تتلاصق
الشفتان والشفتان.. ويدور اللسانان معا في دوائر متبادلة
داخل كهفي الفمين المعطرين بالأنفاس المبهورة المتلاحقة..!"

٢٢

مريم كانت تحب إيفون وإيفون كانت تموت في مريم ومريم كانت تحبني
فأحبتي إيفون وأحببتها معا. مريم وإيفون لم تختلفا كثيرا في الطباع ولا في
الركة ولا في العذوبة ولا في الحلاوة. كانتا رقيقتين كالنسيم، فإن تهاستا معا
كنت ترى العصافير تتطلق من فميهما محلقة ناشرة أجنحتها في مرج. تتسابق
العصافير إلى حديد النافذة فتلتصق معا في تشكيل واحد وتبذل أقصى الجهد
لتجد لأرجلها مكانا هناك. تنصت العصافير للنجوى الخافتة بين الحوريتين
وكنت أسمع معها. حديث مريم وإيفون كان همسا. تنتظر إحداها إلى
الأخرى فتنتجيان بالعيون فتخفض العصافير رؤوسها إجلالا وتكف عن
الزقزقة. تقترب إيفون من فراش مريم. تجلس ونصف رديها على السرير
والنصف الآخر إلى الخارج. بعد قليل يزحف النصف المدلى بالخارج إلى
الداخل في حركة عفوية غير متعمدة. يلتصق الجسدان؛ الكتف في الكتف

واليد تحضن اليد وتغرق العينان في بحر العينين الآخرين. تتباطأ حركة
العيون. تتغلق العيون. وتتنفس الجميلتان أنفاسا لاهثة.. فكنت أغلق أنا أيضا
عيني وأنصت.

كان يحدث أحيانا أن أفتح عيني دون قصد فأرى عجباً وأرتعش من
النشوة. كانت إيفون تتمدد، تتحى صليبيها الذهبي الصغير بعيداً عن مفرق
الثديين، وتريح رأسها الصغير الدائري المحاط بشعر أشقر أصفر كأشعة
الشمس على فخذى مريم، اللتين تكون مريم قد ربعتها فتصيران وسادة للرأس
الجميل. تضم مريم رأس إيفون إلى صدرها، وتمرر كفيها على الشعر
الشمس، فتتأود إيفون هامسة: حبيبتى يا مريم!

إيفون كانت تصغر مريم بعامين لكنها كانت أكثر امتلاء في الجزء
الأسفل منها فكانت عجيزتها تشغل حيزاً أكبر من الفراش. كنت أنزوى في
الركن المظلم الذى خصصته مريم لى. تنتظر إيفون نحوى فى تخابث وتضع
سبابتها فوق شفثيها وتتمتم: هسسسس .. ولا كلمة! أطيعها فأدفس رأسى بين
ركبتى مصطنعا النوم، كأئننى لا أرى، ولكنى كنت أرى!

يتعانق الجسدان. تلتصق الشفتان والشفتان. ويدور اللسانان معا فى دوائر
متبادلة داخل الفمين المعطرين بالأنفاس المبهورة فينسال الرحيق العسل على
جانبى الفمين. يخرج أحد اللسانين يمتص الرحيق ويعود إلى التجويف
الداخلى للفم بسرعة من جديد. يتلامس الأنفان العاشقان ويبدآن فى شم كل
منهما الآخر. يلتف الذراعان على الخصر فيرد الذراعان الآخران التحية
بأحسن منها. تتناقل الأنفاس وتتساب من الحنجرتين الآهات الموجهة. أعرف
ساعتها أن الاشتباك المحموم أوشك على نهايته وآن أوان الانفصال.
تتفصلان وتهض إيفون تلملم خصلات الشعر الذهب التى انفرط عقدها من

أثر العناق. تعود إلى موقعها القديم من الفراش فتهمس لها مريم العائدة من الفردوس: يا إيفون .. أنت روحى.

تسند الجميلتان رأسيهما على وسادة واحدة. تتبادلان الضحكات الرائقة الجذلانة واللمسات الملغزة، فى مناطق محددة رسمتها الفطرة الأنثوية للبنتين بدقة شديدة، وتبدأ إيفون الحوار. عند هذا الحد يكون مسموحا لى فتح العينين الكاذبتى الإغلاق فأفتحهما وأطرق أذنّى وأصيخ السمع. كانت إيفون تحكى لمريم حكاية غرام لاهبة رأتها فى بيتهم ليلة الأمس فى الصندوق الصغير المضىء ذى الشاشة المملوء بالحكايات. تفتح مريم عينيها مشدوهة. تنتظر إلى أعلى تلتهم الفراغ.. وتحكى إيفون:

آآآه .. كم كان وسيما هذا "البطل" يا مريم!

.....

رأها بملابس النوم الشفيفة.. صدقيني .. لم يقترب منها .. بل ابتعد!

.....

هى التى سارعت إليه يا مريم صدقيني.. نهىها .. فعانقته!

.....

اشتهد العناق، فقال لها المأفون: فى الحلال حتى ولو بعد حين..

عمرك شفت كده يا مريم؟

.....

آه يا مريم لو رأيت صفاء عينيهِ وهو يرنو إليها. صدقيني..

عينان ولا فى الأحلام!

.....

البنات يا مريم سكر معقود.. صدقيني .. قطعة "جلاش" تقطر عسلا..

والله لو كنت أنا رجلا ما احتملت هذا الجمال، لكن المأفون مع ذلك
احتمل!

.....

وهل تعرفين يا مريم علام انتهت الحكاية؟

.....

لم يتزوجها ، ونالها رجل آخر، أذاقها المر ألوانا!

.....

كم تمنيت يا مريم لو أن هذا العاشق الساذج قبل هديتها عندما قدمت له
جسدها على طبق من فضة .. ساعتها كان أهلها سيزوجونها له صاغرين ..
ويعيش الحبيبان معا فى تبات ونبات .. آه يا مريم .. ليته قبل الهدية!

.....

تبكين يا مريم؟

.....

على كل حال اطمئنى فلم يدم عذابها طويلا .. ماتت المسكينة يا مريم
فخرج المأفون العاشق يجرى فى الحقول كالمجنون يهتف باسمها ويظهر
له شبحها يناديه: يا غريب .. يا غريب!

شهقت مريم وراحت فى نوبة بكاء مزقت بها قلب إيفون. لم تهدأ إلا
عندما ضمتها إيفون إلى صدرها وهمست: يا عبيطة .. دى حكاية ..
حكاية .. فيلم يعنى. تحول بكاء مريم إلى نوبة غضب عاتية عندما سمعتنى
أضحك. لم أتمالك نفسى. كنت قد رأيت فى الصندوق المضىء، فى بيت
الصقاروه- وأنا فى أحضان بشرى- حكايات من هذا الصنف كثيرة.. فلم أبك
كما بكت. صرخت فى مريم: قم ياواد روح لأمك! قلت وأنا أنهض لأشاكسها:

شغل "تساوين" صحيح! فانفلت من صدر الجميلتين ضحك مدو، وكأنهما كانتا في انتظاره. طارت العصافير وأغلقت أنا عليهما الباب وانصرفت.

اشتد المرض على مريم عندما أتاها نبأ موت إيفون. سكنتها الحمى والاحمرار فلم يغادراها لأشهر طويلة. كنت أعودها فأرى عينيها تطلان معلقتين بالسقف بالساعات فلا تحرك مقلتيها. جفت الدموع في العينين فلم تعد تتاديني: تعال يا على!

بيت الست "أم إيفون" كان على أطراف الحارة، في نهاية الشارع الآخذك إلى السوق. وكان البيت فوق دكان عم أبو حامد الذي كان أبى يشتري منه سجائره "على النوتة"، ثم يدفع له المبلغ كله عند صرف الراتب أول الشهر. يزجرنى أبى فأسحب الدفتر الأخضر اللون وأطير إلى البقالة:

- علبه كيلوباطرة!
 - أبوك ما دفعش الشهرية .. قل له ما فيش سجائر بعد كده ..
 - مفهوم؟
 - ها يضرينى!
 - خد .. داهية تاخذك إنت وابوك!
 - طيب هات صباغ عسلىة بالمرة واكتبه على النوتة!
- أخطف الصباغ الأصفر المسكون بالعسل والأحلام وأجرى ثم أتوقف فجأة. أتذكر. تردد أذنائى صدى كلمات مريم الناعسة: على يا حبيبى .. فوت على إيفون .. قل لها حبيبتك عاوزه تشوفك. أستدير عائداً إلى الدكان الذى بجوار بابه باب بيت أم إيفون. أصعد لاهثا بسرعة لأتناسى ظلام السلم. البيت- يا دوب- فى الطابق الثانى. فركة كعب وأصل. أصل. أطرق الباب،
- مبييين ..!

أدخل فتقفز عيناى إلى اللوحة التى تخطف قلبى دائما. كانت معلقة فى قلب الجدار المقابل للباب وكل ما حولها مظلم وهى فقط المضيئة. كانت فوق رأسها شمعة محطوطة فى صحن نحاسى مشبوك بمسمار فى الجدار ولا تنطفىء أبدا. أغرق فى تفاصيل الأيقونة الساحرة فأشعر بأن عينيّ صاحبة الصورة تبتسمان لى وأعرف أن صوت أم إيفون سيأتينى فى تلك اللحظة. كنت كلما أتيت يأتينى صوت أم إيفون فى تلك اللحظة.. وأتى الصوت:

دى ستنا مريم يا على!

أتذكر مريمى أنا، فأهمهم:

مريم عاوزه إيفون تروح لها.

فى كل مرة كانت إيفون تخرج إلى بالقميص العريان ذى الحمالات وينتهى ذيله عند منتصف الفخذ. تحتضنى وتقبلنى بين عينيّ وفوق صدغى فأسارع إلى مسح خدى بسرعة أزيل آثار اللعاب. تضحك بصوت ناعس ممدود مبتهج وترد عليها أم إيفون بضحكة مماثلة من المطبخ. تمد إيفون لى يدها بقطعة "الشاكاليطة" الملفوفة فى ورق براق. أخطفها من يدها ملهوها. ألقى بالورق المفضض على الأرض وأرمي القطعة كالبرق فى فمى. تشعر إيفون بسعادتى الغامرة، فتفرح وتهمس: روح أنت .. وأنا جاية وراك على طول يا على. عندما أنزل، كنت أتوقف قليلا عند زاوية الشارع تحت النافذة المفتوحة نصف فتحة. أطلع إلى أعلى فأرى وجه إيفون وقد غاب عن العالم فى توهان داهل. أنتقل بعينيّ بسرعة إلى النافذة المقابلة فأرى ما كنت متأكدا أننى سوف أراه. مجدى التلبانى دائما هناك يرسل إليها بكفيه المفتوحتين وشفثيه المزمومتين للأمام قبلاته المشتاقة عبر الهواء. كنت قد تسمعت على

حديثها مع مريم ذات مرة فعرفت أنها عاشقة فتابعت حكاية العشق الهوائى
هذه بشغف. غير أن ما لم أفهمه أن مريم- كلما سمعت من إيفون حكاية
مجدى- كانت تغضب فى ألم وتضغط شفيتها وتقول بحدة:

- يا إيفون يا حبيبتي ما ينفعش!

- باحبّه يا مريم.. باحبّه!

- يا ماما ما ينفعش .. ها توقّعى نفسك فى المشاكل .. لا انت من

دينه ولا هو من دينك.. الناس تقول عليكو إيه بس؟!

مضت أيام وأيام ولم تأت إيفون فأرسلتني مريم إلى بيتها. صعدت السلم.
طرقت. فتحت أمها الباب. رأنتى فانهارت: إيفون أخذها الرب يا على! ظلت
مريم مريضة لأشهر طويلة. كانت حكاية إيفون قد انتشرت فى الحارة. قالوا:
سلّمت له نفسها وعندما رفض أهله زواجه من ابنتهم حاولت الهروب معه مع
الفجر. قبضوا عليها. أمسكوها فى البيت. صفّدها أبوها فى عامود السرير
الحديدى الصدىء. امتنعت عن الطعام أياما طويلة. مرضت، ثم قتلت
نفسها. شربت سم الفئران .. وماتت.. فانهارت حبيبتي مريم ولم تبرا إلا بعد
زمن طويل.

الفصل الثامن

الذبيحات

"لأيام طويلة لم أنم.. فإن نمت.. أتانى الشناوى في منامى شاهرا سكينه الذى يقطر دما.. فأصحو من النوم صارخا: معلش والنبي.. معلش والنبي!"

٢٤

كنا نتفق على بدء " الماتش"، فنقسم أنفسنا إلى ثلاث فرق. يلعب فريقان ويجلس الثالث ينتظر هزيمة أحدهما ليأخذ مكانه ويلعب الفائز. كانت " الفورة" من هدفين، والذى من الفريقين يسبق الآخر فى إحراز الهدفين يستمر فى اللعب ويبقى فى أرض الملعب لينزل له الجالسون المنتظرون. وكان فريق "ديستيفانو" يكسب دائما! "ديستيفانو" كان "صلاح"، الابن الأصغر لصفية زوجة أحمد الصقراوى. جاء فأتّم عنقود ولاداتها المتكررة. أنجبته ثم قطعت فدلته واستمد جبروته من جبروت عشيرته. وكان يضربنا جميعا. سكننا الخوف من وحشية عائلته المهيمنة على الحارة فتنازلنا له عن إرادتنا وخضعنا له. وفوق ذلك كان هو صاحب الكرة:

- جون يعنى جون يا روح أمك أنت وهو!
- يا عم .. الكرة برة!
- قلت جون يا ابن ال "قحبة" .. خلاص؟!
- خلاص يا عم .. جون جون!

كان الملعب فى الشارع الخلفى الضيق، وراء خرابة البغدادى المسكونة. الخرابة مساحة واسعة مترية، كان جناينى فيلا العطار - عم إسماعيل - يرشها ماء كل يوم لمنع زحف الغبار على ساكنى الفيلا، ولجلب الطراوة. ورغم الطين والبلل والوحل كنا نلعب. الكرة قطع من الإسفنج كنا نسلبها من عربات القطارات والحافلات العامة فى الليل فى غيبة من رقابة "الكمرى" قاطع التذاكر. نجمع الإسفنج فى فردة جورب قديم من جوارب أبى ثم نحشرها حشرا فى كيس من البلاستيك يكون ديستيفانو قد اقتنته من خزانة ملابس شقيقته الكبرى العايقة المطلقة "بشرى" التى كانت تشتري قطع ملابسها الداخلية الملونة صغيرة الحجم جدا فى أكياس من هذا النوع من جابر الخردواتى. نضغط الكيس المحشو بالإسفنج المسروق ضغطا جيدا ثم نلفه بخيوط كتانية سمكة - اسمها خيط كمبريت - وكان ديستيفانو أمهرنا فى اللف. نغمس الجورب المنتفخ والكيس المضغوط والخيط السميك فى سائل "الكلة" الأبيض الذى يجف فى ثوان فيصير لونه رماديا قاتما فإذا جفت الكلة أصبحت لدينا كرة. نجرى لنلعب.

قسوة ديستيفانو ما كانت لتقتصر على ضربنا فقط، بل امتدت إلى ضرب الكرة. كان يشوطها بمقدمة أصبعه الكبير للقدم اليمنى، "شوطة سن" عاتية، والويل كل الويل لمن يلقه حظه العاثر فى طريقها وهى تتطلق كالصاروخ. ساعتها سينهال عليك صلاح ركلا وتلطيشا وقباحة. تتألم؛ أنت المتألم من ارتطام الكرة المجنونة بالكيس الذى بين فخذيك. لقد منع اعتراضك الكرة ديستيفانو من إحراز الهدف وعندئذ كانت تقوم القيامة. الكرة كانت رايحة الجون يا روح أمك، هاحسبها جون!.. وهات يا ضرب!

"قال" .. هات الكرة يا ابن الصرمة أنت وهو. يصرخ ديستيفانو. يثبت الكرة فوق كومة من تراب كومها بنفسه. يطوح رجله اليمنى إلى الورا. يشوط بأقصى قوته. تطير الكرة فى الهواء فتسقط فى فناء بيت الشناوى المهجور. كان الشناوى الجزار قد ذبح زوجته الخائنة وبناته منها فى هذا البيت منذ مئات السنين، فكان عفريت القتيلة- كلما آذنت الشمس للمغيب- يجلس يراقبنا عن كثب ونحن نلعب. ينظر ديستيفانو إلىّ ويصدرالفرمان الذى لا راد له: خش يا روح أمك هات الكرة من الحوش. أتسلق القضبان الحديدية للباب المخيف وأرتعد. بين خوفين كنت تجد نفسك: الخوف من ديستيفانو الغاشم المقتدر والخوف من عفريت الذبيحة فكنت تختار أخف الضررين؛ دخول الفناء. كانت "العفريّة" أرحم من عقاب صلاح الذى ما تعرض له أحدنا أبدا ونجا.

أهبط إلى أرضية الفناء. أكوام من الخراب الصارخ. قمامة حطت فوقها أسراب من الذباب الهاجع المنتظر من يوقظه فيستيقظ ليقتحم عينيك ويظل ينهش. ققط وكلاب وفئران وزواحف ميتة وعظام وزجاج مهشم حطّمته السنون إلى قطع مسنونة كالسكاكين ترشق كعبيك فتدميهما. تتألم فى صمت فتتسال دموعك ولا تجرؤ على البكاء. لو رآك ابن صافية تبكى فستكون فضيحتك بين العيال بجلجل. تتقدم بحذر تقتش فى أكوام السباح والعفن تبحث عن الكرة الضائعة. لا تجدها فتتوغل أكثر فى بطن الفناء الموحش. تغيب عنك أضواء الحارة. يفاجئك الظلام. تنظر إلى السماء، لا قمرا هناك ولا شعاع شمس واحدا باق يوحد الله. تخفت الأصوات ويخضع قلبك مرتجفا. تتوه فى الممرات الملتوية بين الأكوام. لا أمل. الكرة ضاعت. تريد العودة فلا تستطيع فتجرى كالمجانين تتخبط فى الجدران وأكياس النفايات التى مضى

على إلقائها بالفناء ألف عام. ضائع تصرخ ولا مجيب. تجلس تبكى وحيدا
مهموما فتأتيك اللمسة الحانية. تنظر مندهشا فتهمس لك اليد المخضبة
بالدماء:

قم يا على .. تعال .. لا تخف!

تتكتم فى جوفك الصرخة المدوية التى انتويت إطلاقها فلم تستطع. تعتاد
عيناك الظلام المخيم ويتوقف خفقان قلبك. يتجمد الدم فى عروقك فتغمض
عينيك . اليد المخضبة بالدماء تمر بنعومة على شعر الرأس والوجنتين
والشففتين وفوق العنق ثم تتسلل بطيئة مصممة إلى بقية أعضائك. تفتح
عينيك فترى العينين الواسعتين محمقتين فى عينيك مباشرة. تريد الفرار
فتقبض عليك اليد المدماة البضة وتقودك إلى سراديب من الضياء الساطع.
فى لحظات يتبدل المشهد أمام عينيك. كانت اليدان المخضبتان قد اقتادتاك
إلى ممر تحت الأرض لم تكن تعرف عنه شيئا. صف من الغرف الخافتة
الضوء. تتجول عيناك فى الغرفة الأولى فترى سريرا صغيرا من نحاس أصفر
لامع. فوق السرير طفلتان نائمتان بضفائر ممتدة حتى الأقدام. بياض البشرة
يسحر ناظريك فلا تحتمل شلال البراءة وتواصل التجوال بعينيك. باب الغرفة
رسمت فوقه صور لطيور محلقة سابحة فى الفضاء وقمر مشع ونجوم
لامعات. تسمع ضوضاء بالخارج ثم ينفتح الباب على مصراعيه فترى
الشناوى أشعث الشعر تتفجر أشداقه بلعاب غاضب ومن منخاريه يخرج
تياران من النار وفى يده السكين.

يجرى الشناوى نحو إحدى البنيتين فيرفعها إلى السماء من شعرها الغزير
وبسكينه الضخم يهوى على الرقبة فتتفصل الرقبة عن الجسد وتسقط إلى
الأرض تتهاوى تتقاذف فتصل إلى قدميك. تحاول الفرار إلا أن شيئا ما يكون

قد ألصق القدمين فى الأرض فتتسمر مكانك. يهوى الجزار على عنق الجميلة الأخرى النائمة فيتدحرج الرأس إلى جوار رأس أختها. تحلق العيون الأربع المذبوحة فى عينيك فتطير مهرولا. تدخل الغرفة الأخرى فترى عجوزا هدها الإعياء. تتحشر الصرخة فى حلقك وأنت ترى الجزار يجز العنق العجوز. تهرب وفى الغرفة الثالثة تصعقك المأساة. عاربين مشتبكين ملتحمين فى صعود وهبوط كان الجسدان. عطوة صبي الشناوى تحته امرأة الجزار تشهق مغلقة العينين. يقتحم السكين الظهر العارى لصبي الجزار فينزلق ويسقط ويتكوم ناحية الجدار. يصبح الجزار وامراته العارية الغارقة فى العرق والدهشة وبقايا الاشتهااء وجها لوجه. تتوالى أمامك الطعنات الحاقدة فلا تقوى أنت على عد الطعنات التى تركزت كلها فى بؤرة واحدة مبتلة أسفل البطن. لا يصرخ الجسد الممزق ولا يتألم بل ينظر إليك ويبتسم ويهمس فى دلال: شايف يا على شنواى عمل فيا إيه؟

تجرى تسابق الريح فينغلق الباب عليك وتتحبس بالداخل. تمتد يد الشناوى الغاضبة إليك بالسكين الدامى. يشير إلى صدره ويزعق: هيا يا على .. هيا اغرس السكين هنا! مدفوعا بقوة لا تدرى كنهها ولا من أين أتتك يرتفع ذراعاك إلى السقف ثم تهوى بالسكين فى القلب الخافق فينبجس الدم يغرق وجهك. يزعق فيك الجسد المطعون:

هيا يا على أكمل مهمتك التى جئت من أجلها. هيا اجمع الأشلء معا وادفنها كى تستريح الأرواح الهائمة فى الفضاء وتسكن! أحفر وأحفر حتى تتورم يداى وأوارى سوءات المقتولين. أهرب فأجد نفسى باكيا بين ذراعى مريم. كانت منزعة تلهث: أين كنت يا حبيبى؟ أمك تكاد تموت من الخوف عليك هيا اذهب إليها. بين أحضان أمى أبكى بكاء مراً

فتبادلنى البكاء ومن بعيد كانت تأتبنى رائحة الدخان المصحوبة برائحة لحم
آدمى تشويه النار. كان بيت الشناوى القديم المهجور يحترق فتدافع رجال
الحارة يطفئون الحريق.

لأيام طويلة لم أنم فإن نمت أتانى الجزار فى منامى شأهرا سكينه الذى يقطر دما. تسقط القطرات الغليظة القوام فى عينى وفى فمى وفوق صدرى تشوى وجهى وتحرق لحم بطنى فأصحو من النوم صارخا: معلش والنبي يا عم .. معلش والنبي! تسارع أمدى مفجوعة إلى فراشى. تحضنى وتقرأ المعودتين بصوت مرتفع. "قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس". أسند رأسى على صدرها فيغزوني النوم من جديد. تدس مصحفا صغيرا تحت وسادتى وتتسحب إلى خارج الغرفة فيأتى الجزار يهاجمنى مرة أخرى ومعه ابنتاه الذبيحتان. أصرخ. تقتحم أمدى الغرفة من جديد باكية. تنام بجوارى. ويغمغم أبى غاضبا: وبعدين .. موش ها نخلص؟ لا طعام ولا شراب ولا نوم فأصبحت جلدا فوق عظم وأرسلت مريم فى طلب أمدى. نظرت مريم إلى أمدى فى إشفاق وهمست لها: هاتيهو لى بكرة!

ملفوها فى بطانية سميكة أرتعد من الضعف والمرض والحيرة دخلت على مريم فعصرتنى بين ذراعيها وبكت: بيك إيه يا حبيبى؟ أدور بعينى فى أرجاء الغرفة فأراه قابعا هناك فى الركن فوق كرسى ضاعت إحدى أرجله الأربع فأسندوه بحجر. يتلففنى من مريم الشيخ عبد المولى إمام المسجد الكبير. يحيط رأسى بكفيه ويتلو بصوت خافت آيات من كتاب الله. أتعرق. أرتجف. ينسال الماء الساخن بولا كالنار فوق فخذى وتأخذنى حمى عطس لا يتوقف. أتشنج فيخرج الزبد من فمى. أغيب عن الوعى ويهتف الشيخ: الحمد لله.. خلاص .. خرج العفريت .. قريبا بيرا .. لا تقلقا عليه. يضع قدميه فى نعليه

المهترئين وبمضى قائلاً: سلمى لى على أبيك يا مريم .. وأنت يا على .. إياك
أن تقطع الصلاة!

الشيخ عبد المولى كان قد غضب على غضبا شديدا منذ أيام. أتى مسرعا
يطردنى من المسجد. لا يحب أطفالا فى مسجده. يطردنا جميعا بعد أن
يوذن. ندخل حفاة وفى أرجلنا أطنان من الوحل والطين والعفرة. تلطخ أقدامنا
حصير المسجد فيشتاط الشيخ غضبا ويظل يلاحقنا حتى نخرج. لكزنى
فألمنى فصرخت فيه: والنبي إنت شيخ انت ؟ فيه حد يمنع حد من الصلاة؟
فور نطقى بالجملة النارية الموجعة رقرق الدمع فى عينيّ الرجل وانفجر
بداخله شلال من الشفقة والحزن الشفيف انقلب فى لحظة إلى غضب جامح.
جريت فجرى خلفى. راوغته فقبض على عنقى بيديه المبتلتين من أثر الوضوء
وبهما بقايا عطر : إنت ابن مين يا ولد؟ لم يمهلى حتى أجيب. وسحبني
حيث باب المئذنة الشاهقة الارتفاع. دفعنى إلى الظلام هناك. حبسنى وأغلق
الباب فصرخت بعزم ما فى فاستيقظت كل العفاريث. سلم المئذنة ضيق
دائرى حلزوني درجه لا نهاية له. تتخبط فى جدرانها وأنت صاعد. صعدت
والسلم لا ينتهى. تدفعنى يد مجهولة إلى غرفة ضيقة مظلمة. أعتاد الظلام
فأرى كتبا عتيقة ضخمة رصت بعناية فوق رف من الرفوف. أنظر فأرى
الشيخ عبد المولى جالسا على فرشة من الخيش ممسكا بكتاب قديم.

- هل تقرأ يا ولد؟

- نعم أقرأ!

- إذن .. هيا فلنقرأ لى!

يمد يده المعروقة بمخطوط اصفرّت أوراقه المتربة. أقلب الصفحات
فتفاجئنى صورة لعذراء فائقة الفتنة تدرت بثياب شفاف واضطجعت وفى كفها

كأس من شراب أحمر. كانت تمنع النظر إلى وتتهمر دموعها فتبتل
الصفحات. شهقت تستغيث بي فزق الشيخ: هيا اقرأ يا ولد! فأقرأ:

العشق فى الدنيا أمر مستقر

.. ما العشق إلا مقدور وقدر ..

العشق فى الروح نار تستعر.

فانعم بالعنفوان ولا تزدري لقاء الشفاة

العشق فرحة منهوبة من سويغات العمر

فاخطف الرعدة المقدسة حتى لو احترق منك عنقود الظهر

ذاك الذى بالرغبة الموحشة يكاد ينفجر

وإذا اشتبهت فاشرب الكأس حتى الثمالة

شمّ الريحانة المورقة أمامك

تلك النائمة بين صرحين من مرمر مصقول مكسو بالفضة الناعسة

ها هى الوردة المحمومة تتفتح لك

تناديك فى شغف .. فهياً اقطف الثمر

امضغها ولا تخف .. ثم ابصق سحرك فى القاع المنتظر

هرول إلى اللقيا ولا تخش الخطر

وهل خلقت الشمس إلا لتحضن القمر؟

الماء للماء .. والأرض عطشى فلا تحرمها المطر

يشهق الشيخ المفقون بالكلمات شهقات متتالية. يهز رأسه منتشياً فلا

أفهم. أسأله:

- معناه إيه الكلام ده يا عم الشيخ؟

- لا تتعجل يا بنى .. فغدا يحين وقت فهمك!

ينهض. يقترب. أخاف. أتجمد. أستجد بالعدراء الدامعة فى الكتاب. تترك
محبسها بين الصفحات وتتهض قافزة من الإطار فأرى مريم. أتعجب: من
أين أنت؟ تدفع الشيخ بعنف لم أعده فيها. تصرخ فى عبد المولى: إياك
وحبيبي!

أنظر للمقعد الثلاثى الأرجل. أرى الجزار يبتسم. يحمل ذبيحاته ويغادر.
تصدر مريم الأمر لأمى: ما تسيبييهوش بعد كده ينام لوحده.. فاهمة؟!

الفصل التاسع

أبلة بشرى

"ترسل عينيها نحوى فتضبطنى وعيناي على اتساعهما.. مثبتتان على الاستدارات المبهرة والفجوات الغائرة فى البؤر السحيقة.. تضحك بملء رئتيها.. وتهمس: باصص على إيه يا عفريت!"

٢٦

لأحمد الصقراوى- من صافية- تسعة أبناء؛ خمسة أولاد وأربع بنات. أكبر الأبناء بشرى وأصغرهم ديستيفانو الرهيب. كانوا سادة الحارة، إلا أن بشرى كانت أشدهم فتكا. كانت فاتنة، لعباء، بنت مدارس، وتدمن رائحة الرجال. مكثت فى البندر بضع سنين. نالت تعليمها فى البلدة الكبيرة المجاورة. عادت إلى "الفلايحة" بعادات لم نعرفها من قبل وارتدت أزياء ما كنا نرتديها فى حارتنا قط. ولم تكن تغطى شعرها بالطرحة بل تتركه سائبا محلولا تلعب به الريح. جاءت إلى الحارة فغزت الحارة كلمات جديدة. وكانت تتعطر فكنت أسألها: إيه اللى لابساه ده يا "أبلة" بشرى؟ تضحك ضحكتها المصهلة كصهيل الخيل وتقرصنى فى حلمة صدرى:

- ده اسمه "البنطلون" يا على!

- ..و..دى.. يا أبلة؟

- دى البلوزة!

- طيب ..و.. دى ؟

- "جبية" يا على!

رأت فى ىدى مجلة أطفال ملونة ذات يوم فتعجبت وسألت:

- مين اللى اداك المجلة دى يا على؟

- ابن خالتى .. اللى جالنا من مصر!

- وبتعرف تقرأ؟

- أومال يعنى لأ ..!

- طيب سمعنى!

رحت أقرأ، فاندشت. ضمنتى إلى صدرها وقبّلتنى ووضعت فص نعان

فى فمى وهمست: إنت شاطر يا على ما فيش منك! صارت بشرى من يومها سيدتى وأنا العبد المطيع. أدخلتنى عالمها السرى الحميم فعرفت ما لم أكن أعرف. " إقرأ لى الجورنال ده يا على!" .. فكنت أقرأ. روح هات لى معجون أسنان يا على. أطيّر إلى دكان جابر الخردواتى أشتري لها المعجون. خذ الجواب ده حطّه فى البوستة يا على. أذهب إلى البوستة جاريا. يالّا على المقلاة هات لى "اللب" يا على. كالرهبان أهروّل أجيب اللب الذى كانت تعشقه فتمنحنى "كبشة" منه وأجلس بجوارها.. ونقرقز. أحلى حكايات العمر سمعتها من بشرى وصويحباتها اللاتى كن يأتين إليها من البندر. كانوا قد خصصوا لها "مقعدا" هى وحدها فى الطابق الثانى من البيت الكبير. أصبح المقعد مقرا للأسرة كلها عندما يشتهون السمر. أطلقت هى على المقعد تسمية غريبة "الليفنج!"، فإن هى رفضت استضافتهم به كانوا على الفور يخضعون ويتركونها وحدها فى الليفنج، تسحبني من ىدى، وتهمس: سيبوا لى على .. عاوزاه يجيب لى حاجة! نصعد. تتخفف من ثيابها أمامى دون حتى أن تقول"

غمّض عينيك يا على" كما كانت تفعل مريم. وعندما كنت أحكى لها عن مريم تتبرم وتلوى شفقتها في اشمئزاز وتصرخ:

- البنت الفلاحة دى؟ سيبك منها.. إيه اللى عاجبك فيها والنبي؟

- طيبة يا أبلّة!

- يا شيخ .. بلا نيلة!

بشرى تميزت بميزات سبع لم تكن فى امرأة غيرها فى الحارة ولا حتى فى

مريم.

بشرى كانت تقرّ المجلات التى يجلبها لها أبوها كل يوم معه عندما يعود من جولاته فى البلدان والبنادر البعيدة. مجلات ملونة عجيبة كلها رجال مفتولو العضلات تتضح وجوههم بالصحة والعافية، ونساء لا يرتدين من الثياب إلا ما ندر. كنّ جميلات . كانت أمى تسميهن "آلا فرانكا". عرفت من المجلات أسماء الفنانين والراقصات فكنت أتباهى بالأسماء أمام عيال الحارة. وبشرى كان عندها- فى غرفتها اللينج- جهاز تليفزيون. صندوق عجيب له زجاج خارجى لامع سمّته الشاشة وله سلك مطاطى أسود تكبسه فى فتحة مكهربة بالحائط فيضىء الصندوق ويغنى ويرقص. كانت تحتضنى وتهمس: ياللاً نشوف المسلسل.

وبشرى كانت تلوّن شعرها. كنت أراها كل يوم بشعر مختلف. تارة تصبغه أصفر فتصبح كالشقراوات اللاتى فى المجلات، وتارة أحمر كالنار، وتارة تتركه بلا صبغة فيعود سيرته الأولى؛ أسود فاحماً ينام على كتفها فى خمول. وعندما كنت أسألها: ليه التعب ده كله يا أبلّة؟ كانت تجيب فى غنج: أحلى حاجة فى الست شعرها يا على ..!

وبشرى كانت تضع العطر . تغمس سبابة يدها اليمنى فى الزجاجاة . تأخذ لحسة صغيرة جدا . تمر بها خلف أذنيها وتحت الإبطين فيضج اللينج برائحة غير الروائح التى اعتدناها فى حارتنا . رائحة مدوخة تجعلنى أعطس فتموت بشرى من الضحك وتضمنى .

وبشرى كانت تحب الرجال ، لكن ليس كحب أى امرأة أخرى للرجال . أسرت لى ذات مرة ، وهى مغلقة العينين ، بأنها عرفت الكثيرين منهم فى البندر . انسحبت الكلمات ساعتها من شفيتها بانبهار : الست اللى ما تعشقش موش ست أبدا يا على !

وبشرى كانت ترتدى البنطلون . سروال ضيق تدفس فيه رجلها اليمنى أولا ثم رجلها اليسرى وترفع الحجر حتى أسفل "السرة" بقليل فكنت أرى المؤخرة الرجراجاة وقد التصق بها البنطلون الضاغط فشققها شقين فأتعجب ؛ كيف يا ربى تحتمل "أبلة بشرى" هذا الضغط المؤلم طوال النهار ؟

وبشرى كانت تغتسل كل يوم . ترسلنى أحضر لها "الطست الكبير" من تحت . تتعري أمامى . تجلس فى الطست النحاسى ، . تمد يدها إلى مكعب الصابون المعطر تغطى جسدها بالصابون وتتادينى : يالآ حظ عليآ يا على . أملاً الكوز بالماء الدافىء الذى تكون صفية قد أعدته لابنتها . ينساب الماء من أعلى إلى أسفل آخذاً فى طريقه الرغوة الهائجة . تلتقط "كوز اللوف" وتظل تدعك فلا تتسى الثنايا المخبوءة والزوايا اللاهية المغطاة بالزغب . ترسل طرف عينيها نحوى فتضبطنى وعيناي على اتساعهما مثبتتان على الإستدارات المبهرة والفجوات المشعرة الغائرة فى البؤر السحيقة . تضحك وتهمس : باصص على إيه يا عفريت ؟ ألقى بكوز الماء بجوارها فيطرش الماء وأجرى خجلانا غارقا فى العرق . أنزل الدرج المهترىء للسلم وتستغرق

هى فى الضحك وتصيح: تعال يا على .. تعال .. ما تخافش! لا أستجيب
وأقفز السلم وعيناي مغمضتان. أكتم أنفاسى. أحرص على أن لا تضيع من
أنفى الرائحة المدهشة.

القيظ حارق. شوارع الحارة تنفث لهيبها فى وجهك فتندفع اندفاعا تبحث عن ظل تستظل به فلا تجد. كل الأماكن حر نار وأطفال الحارة كل فى بيته إلا أنت. تكون قد فررت من الضرب والإهانات والزحام فى بيتنا. تشاقيت فصفعنى أبى - كعادته كل يوم - فخرجت هاربا أبحث عن مهرب يقينى من الصفعات والفوضى والركلات. يقتادك ألم الجسد والروح إلى مجاهل الحارة. خمسة أماكن فشلت فى إيوائك.

خرابة البغدادى؟ مستحيل .. فالفاريت لا يحلو لها اللهو إلا فى القيظ ساعة أن تحتل الشمس كبد السماء. تخشى أنت الولوج إلى الخرابة الموحشة. عقاب الجن قاس لمن يتجرأ فيقتحم عليهم خلوتهم فى هذا الوقت من النهار. "فارادة" أم مدحت؟ لا يمكن. بالليل غسلت السيدة غسيلها وفى الصباح نشرته فى الفارادة. اعتدت أن تريح خديك على الأرضية الباردة تستمتع بالطراوة لكن ها هو الغسيل المبتل يملأ المكان ويقطر قطرات ماء تحرمك من المتعة المشتهاة.

طبيب .. نذهب إذن للمسجد الكبير نفرد ضلوعنا فوق الحصار الطرى؟ نمسك بالمصحف زاعمين أننا ما أتينا إلا لنقرأ كتاب الله قبل أن يؤذن المؤذن للعصر؟ لا، ولا هذه أيضا . لقد بات الحصار محرما عليك بعد شجارك مع الشيخ عبد المولى منذ أيام عندما حبسك فى المئذنة!

إذن.. فبيت العجوانية هو الحل!

ما هذا؟ لماذا أغلقوا الباب؟ آه .. تذكرت .. لقد ذهبوا بمريم إلى الطبيب بعد أن ساءت صحتها قبل أيام. غاب عنها عبد الستار، غادر الحارة فى

سفر طويل. راح إلى السودان يشتري له جملا جديدا إثر نفوق جملة القديم فسقطت هي مريضة!

عليك بالشجرة السامقة التي جذورها في فيلا العطار وفروعها امتدت إلى خارج جدار الفيلا. ظل الشجرة ممدود وكم آواك في نهارات الصيف الطويلة. يا الله .. أين ذهب الظل؟ مات الظل فانكمشت الأغصان وتعرّت.. تجردت من أوراقها. روعها الهجير فتوارت هاربة إلى داخل جدران الفيلا التي لا سبيل إلى دخولها.

لم يبق لك إلا البيت الكبير .. هيا إلى هناك.

تدخل متلصصا. تراك صفية فلا تهتم. هي مسرعة الآن إلى غرفة الرجل العجوز في رحلة استحمامه اليومية المقدسة. تتسحب أنت إلى السلم. لا تسمع مخلوقا اللهم إلا أصوات حيوانات الزريبة الهاجعة تطحن طعامها الذي اجترته من بطونها وراحت تمضغ في استرخاء بليد. تصعد السلم. تريد أن تطرق باب الليفنج حيث بشرى. لا شك في أن لديها بقايا خبز وقطع باذنجان مقلى ولحسات جبن قديم في قاع الصحن وقرن فلفل أخضر مهملا. هي في هذا الوقت تكون قد أنهت غذاءها وتركت لك "منابك" يا على. تهم بدق الباب فتتجمد كفك في الهواء. تسمع اللهاث المنبهر وصخب الخشونة المنبعث من الحنجرة الرجالية المشتعلة بالشبق. تنتظر في حذر من ثقب الباب فترى المأساة؛ مأسائك!.

الحاج مصطفى يعتلى بشرى يفترسها افتراسا!

يا خبر أسود ماذا يفعلان؟ تقفز إلى ذهنك صورة عبد الستار ومريم فترتد منزعا ترتعد. تعاود اختلاس النظرات فتدهشك شراسة الاشتباك والألم المبرح المنفلت من عيني "أبلة بشرى" ممتزجا ببريق لاهب. هاهي الأظافر - التي

أمضت الليل كله تلونها بالطلاء- تقبض على الظهر العارى فتخمشه لتدميه.
يطوح الحاج ذراعه فى الهواء ويهبط به بكل العنف على وجه الراقدة تتوجع.
فتهمس: كمان والنبي يا حاج! يرفع الذراع الأخرى ويهوى بها فوق الصدغ
المترقب. تتألم فيتعمق خمش الأظافر للظهر الملتهب أكثر وأكثر. تنقض
الشفتان الجائعتان على الشفتين الأجوع تهصرهما هصرًا فلا ترتفعان إلا والدم
يغطيهما. يبصق الفم الدم فى الوجه الميت من اللذة ويشهقان فتصرخ:
دلوقتى .. دلوقتى يا حاج! يرتج الجسد العملاق وتصعقنى الصرخة المدوية
ويبرز الطائر العملاق منسحبًا من عشه المغمور باللزوجة والشبع. يرتدى
الطائر المنهك فى إعياء فيميل الشعر الأشقر على الشعر الأسود للصدر
اللاهث. أجرى أتعثر نازلا ورجفة من الحزن والغضب تجتاحنى. أصطدم
بصفية الخارجة من عند الرجل العجوز وفى يديها الطست النحاس. مالك يا
وله؟ أسب أمها بصوت مرتفع وأخاطب نفسى: حتى انتى كمان يا أبله بشرى
.. يلعن روح أمكو كلكم!

كان الحاج مصطفى الصديق الصدوق لأحمد الصقراوى. رجل مقتدر وحكيم وقليل الكلام ويعرف أناسا كبارا فى الحكومة. معظم محلات البلدة كانت ملكا له. وكان صاحب مال كثير وأطيان ويسافر كثيرا إلى العاصمة وله عمارة ضخمة ذات طوابق بناها على أطراف المدينة. كانت صفيّة- كلما رأته- قادمة تهب فى إجلال ظاهر فتمسح يديها المعكوكتين بالطحين والزيت والطبيخ فى ذيل جلبابها؛ الذى ما إن ترفعه حتى تفتتح عينا الحاج ومنخاره على اتساعها. يختلس النظر بوقاحته المعهودة المحببة فتسدل صفيّة الثوب على عجل تغطى عريها وتخفض بصرها إلى الأرض خجلا وتتمتم: يا مرحب يا حاج يا مرحب .. زارنا النبى!

للحاج مصطفى أفضال على أحمد الصقراوى لا تعد ولا تحصى وكم أنفذه من إفلاس متكرر ومن مآزق سببها النزق المتأصل فى أحمد وجريه وراء النساء. كانت قد مضت أشهر طويلة لم يأت الحاج فيها لزيارتهم فكان أحمد هو الذى يذهب إليه. وهاهو الحاج فى الأيام الأخيرة قد جرت رجلاه على البيت الكبير. أصبح كل يوم يأتى منذ أن عادت بشرى من البندر. آه .. هو يأتى لبشرى إذن! وللحاج مصطفى صوت ليس لأى رجل فى الحارة مثله. عميق يخرج من الصدر إلى الحلق مباشرة فإذا ضحك كنت تسمع جلجلة الصوت وأنت فى أول الحارة. وله جسد عملاق غطاه الشعر الأسود الكثيف وقدمان كبيرتان مفلحطتان لطالما تعجبت لهما صفيّة وسرحت متسائلة عن سر ودلالة القدمين الهائلتين. وكان ينتعل حذاءين من الجلد المطاط الباهظ الثمن ما حلم أحد فى الحارة أبدا بارتدائهما. والجلباب من الجوخ الأصلى الذى المتر منه- كما كانت تقول أمى- بشىء وشويات وفى وجهه شارب

سميك ممتد فوق شفثيه ما ينفك يفتله كلما وقعت عيناه على مؤخرة امرأة من نساء الحارة.

" راجل بتاع نسوان!" .. هكذا كانت تتهامس نسوة الحارة إذا رأيته.

سمع الحاج مصطفى عن عودة " الأبله" من البندر فزحف إليها يسبقه لعابه. خبرته في صنف النساء أنبأته من أول نظرة بكنه البنت الراغبة العطشى. شمشم بأفنه الفخيم فشم رائحة الجوع في الجسد النهم للارتواء. ابتسم لها فابتسمت. لكزها في الصدر بنعومة متعمدة فتأودت. ضمها إليه فالتصقت. لم تستغرق في يده " غلوة" ولم يصمد هو أمام إغرائها الذي أمدتها الطبيعة به منذ آلاف السنين. سقطت بشرى في بئر العشق حتى قاعه فبصق الحاج حرمانه الأبدى بين فخذيه.. وعشت أنا المأساة!

قرأت " الأبله" الرغبة في عيني الحاج فمدت يدها فأدهشها الطائر العجيب. عرفت من الرجال في البندر قدر ما عرفت فلم تر طائرا كهذا الطائر. مدت يدها وتوغلت في غابة الصدر الناضحة بالفحولة الفاحشة. أدركت أنها إنما خلقت لهذا الطائر وخلق لها. مدت يدها تلمس اللعاب اللزج المنسال على زاويتي الشفتين الغليظتين تحت الشارب الغاضب وتذوقت اللعاب اللزج بأصبعها فكان شهدا اشتتهته من أول لحظة. صرخ فيها جوع السنين: هذا رجلك الموعود. يأتي الحاج مهرولا إلى البيت الكبير وتحت إبطه كيس " اللب" المنتفخ فتسارع إليه الجائعة لللب وللرعدة المباركة واللمسات. تخطف الكيس من بين يديه في دلال ولا تنسى أن تمر بكوعها بسرعة على الطائر المتحفر فلا تفوت الحركة على الذئب المنتظر فيفهم الإشارة. تتدلل. تتباطأ في مشيتها. تهز العجيزة المضغوطة بإحكام في الجيبة الضيقة وتميل برأسها المكسو بالشعر المصبوغ بالأصفر وتصرخ جذلانة:

- لب يا حاج؟

- عرفت إنك بتحبيه .. جيبتهولك!

- تشكر يا عمرى!

تحتضن بشرى أباه فى دلال وعيناها على الحاج فيأخذ أبوها بالحاج من يده ويصعدان إلى الليفينج فى الطابق الثانى وأمامهما تتأرجح بشرى التى سبقتهما بعدة درجات فيأكل الحاج الساقين الرخاميتين والعجيزة النافرة بعينه يكاد يفقد عقله. تتبعهما صفية تراقب فى قلق أنفاس ابنتها المبهورة. صفية تعرف ابنتها جيداً، فاجرة، إن رغبت فى شىء تتاله مهما كان الثمن وها هى الآن ترغب فى الحاج وهو يرغب فيها ولسوف تتاله وبنالها! تتبخر بشرى بجيبيتها الضيقة الكاشفة عن نصف الفخذين وتلقى بنفسها على حجر أبيها تتعمد إظهار جواهرها الراقدة للحاج المرتعش بالرغبة. يكبت الرجل ألمه المبرح فى انتظار اللحظة الموعودة ويتحدث الأب الغافل فى بلاهة: شفت الأهل عمل فيكو إيه امبارح يا حاج؟ يجلجل الحاج بضحكته الشاهقة ويختلس النظر إلى الصدر العامر الذى يهبط الآن ويصعد يكاد يفلت من المشد الذى سجنه فمغ انسيا به .. يقول الحاج غامزا بطرف عينه اليسرى للجميلة المتوسدة حجر أبيها:

- عملتوا إيه يا اخويا.. البركة فى الحكّام!

- يا راجل حكّام إيه؟ حجة البليد مسح التخدة!

- بياغت الحاج الأنتى الراقدة تحلم فيسألها فى تحد:

- إوع تكون أهلاوى زى أبوك يا جميل!

- لا يا اخويا .. أنا ماليش فى الكورة!

- أوّمال ليك فى إيه يا قمر؟

لا شعوريا.. توجّه الهائمة الولهانة عينيها باجتراء غير متوقع إلى طائر
الحاج المختبىء فى عباءة من الصوف الجوخ يتملّص يحاول الفكاك وتهمس
لائكة قطعة العلكة بين أسنانها فى غنج متهتك: يعنى ما انتاش عارف يا عم
الحاج؟ يرتعد الحاج فيضغط على فص اللب بأسنانه بعنف يخفى لوعته
ورغبته المشتعلة فتدرك بشرى أن الحديث بدأ يأخذ منحى ما كان له أن
يأخذه. توسّع صافية حدقتيها حيث كادت "الملاغية" أن تتفضح فتغيّر بشرى
على الفور مجرى الحوار:

- عاوزه تليفزيون يا عم الحاج .. ممكن؟
- يا سلام يا أمّورة .. تليفزيون بس .. بكرة يكون عندك التليفزيون!

أتى التلفزيون فعرفت معه وبه الرعشة المزلزلة. تغيرت حياتي وعلمتني أبله بشرى كيف أصبح رجلا. أدمنتها لبعض الوقت. كدت أهلك فتدخلت مريم فى الوقت المناسب، وأنقذتني. كنا نصعد جميعا إلى الليفنج. أحضر لها الحاج الصندوق العجيب فوضعتة فوق خزانة لها مرآة ضخمة كانت تتعري أمامها بالليل وتهيم. اشتراها لها الحاج، فسمتها "الشوفونية". تدخل أنت من باب الليفنج فتجد فى مواجهتك خزانة الملابس التى اكتظت عن آخرها بقمصان نوم غريبة لا ترتديها نسوة الحارة. قصيرة ملونة شفافة ههفافة مشقوقة من الذيل حتى السرة فكانت أبله بشرى تربطها على الخاصرة برباط رفيع من نوع القماش نفسه فإن هى جذبت الرباط انسال القميص الحرير على الأرض وتكۆم لترى أنت كل شىء. رأيت أنا كل شىء فجرى فى عروقى ماء الرجولة القاتل!

تنظر إلى يسارك فترى كنية "إستانبولى" تتسع لأشخاص أربعة إن هم جلسوا متفرقين، وخمسة إذا تلاصقوا. وفى مواجهة الكنية كان سرير بشرى الذى كم هصرها عليه الحاج هصرًا ثم امتصتني هى عليه امتصاصا بعد ذلك. فى المسافة بين الجدار الملاصق للباب على يمينك-وأنت داخل- والسرير وضعت أبله بشرى الشوفونية، وفوقها التلفزيون. أغان وأخبار مصورة ومسلسلات وماتشات ونساء راقصات ودنيا أخرى دلقها التلفزيون العجيب فى أرواحنا وعقولنا. كان الكبار فى السن يجلسون فوق الكنية يتوسطهم الحاج مصطفى بضحكاته المجلبة ونظراته الجائعة وبجواره عم أحمد الصقراوى الذى كان فى أغلب الأوقات يغيب فإن حضر يغلبه النوم فيستأذن من الحاج وينزل تصحبه صفية تاركين الساحة مهيئة للحاج ينهل

من بئر اللذة الذى لا ينضب. بشرى كانت تفضل السرير المقابل للكنبة. تجلس منفردة الساقين عن عمد تحتضن وسادة بين ذراعيها تضمها إلى صدرها وتضغط وتظل تختلس النظرات إلى الحاج فيبادلها الاختلاسات. لم يكن أحد يتتبع خيط النظرات الهائلة.. إلا أنا!

.. وللاطفال فرشوا حصيرا على الأرض بين الفراش والكنبة فكان عيال عائلة صقر يجتمعون فى صخب يثرثرون ويتقافزون ويتصايحون: "إجرى بسرعة يا واد يا حسين .. شوف لينا ريرى بيتباع فين .. هات لنا منه باكو انتين .. هات لينا ريرى .. هات لينا ريرى.. الصلاة ع الزين.. الصلاة ع الزين" فتصرخ فيهم أبلة بشرى: "بس يا وله" فيصمتون .. ونتابع. كانت جلستى المحببة دائما أمام التلفزيون مباشرة. كنت ألصق عينيّ بشاشته المضيئة الساحرة. أحرص دائما على سماع كل كلمة. تمتعنى الكلمات. تضيع الصورة أحيانا فتصير خطوطا عريضة بيضاء وسوداء بعرض الشاشة فتتهض الأبلة تصلح الصورة وتعديل "الإيرال". تهبط من الفراش. تدور حول المكان المكتظ بالعيال فتأتى عندى أنا القابع لصق الجهاز العجيب. تتحشر فى المسافة الضيقة بينى والتلفزيون فينتفخ الثوب كالبالون فوق رأسى. أشم الرائحة الحمضية الزنخة للتعرق وأكاد أموت. ها أنا والاستدرات الرخامية الملمس والبراكين الهائجة وجها لوجه. أرتعش من الزغب المنقوع فى عرق الرغبة، ومن رائحة العطر المرشوش بمهارة بين الثنايا. أبتلع صرختى وأتمنى لو أننى مددت يدي. تنظر هى فى خبث نحوى. تقرأ لهفة العينين والأنف وتسمع دقات القلب المتسارعة وتشم بغريزتها رائحة اللعاب المتدفق فى تجاويف فمى الجائع. تخبطنى على رأسى ثم تهمس بدلال: عينك يا ابن الكلب!

ينتهى المسلسل. يندفع الجميع إلى الخارج. يتمهل الحاج حتى تخلو الغرفة إلا منه ومنها. يحضنها من الخلف فتلهث. يمضى وأتلكأ أنا. أعرف أنها ستتadini. تتاديني، وتبدأ جلسة التمرغ التي تنتهى دائما بأن أشهق شهقة المشرفين على الموت، وتموت هى من الضحك: بكرة تكبر يا على .. وتتعلم!

غاب الحاج فجأة فأصاب "الأبله" السعار. استعاضت الجائعة بى عنه. كانت امرأته قد عرفت سر إعيائه الدائم وفشله المتوالى وهو معها. تقصّت الأمر فلم تعد المتطوعين بكشف السر. الحاج وبشرى يلعبان معا. لطمت الزوجة المسكونة بالغيرة صدغيها. جمعت أبناء الكبار وهددته على الملأ فغاب عن البيت الكبير ولم يعد وجنّ جنون الجائعة. لا أحد أمامها إلا أنا فاستعبدتني فكدت أهلك. . لكن مريم أنقذتني قبل فوات الأوان. جلست أُمى تغسل. رأت قطرات الدم على قطعة الملابس الداخلية. انهارت وصرخت: إالحق يا ابو على .. ابنك جات له "البلهارسا"! بيتسم الطبيب متخابثا. يقرص شحمة أذنى بعنف. يميل على أذنى ويهمس: بطل يا ولد اللى بتعمله ده! ينظر الطبيب إلى أبى ويتكلم بهدوء: اطمئن يا أستاذ .. ابنك ما عندوش حاجة أبدا .. أكلوه كويس! يلتفت الطبيب إلى أُمى يشخط فيها بغضب: ابنك كبر يا ست .. خدى بالك منه! لم تفهم الأم شيئا لكن الأب الحاذق فهم فاشتعل غضبا وأبلغ أُمى بالمصيبة فظنّت ظن السوء بمريم: كله من بنت العجوانى بنت الكلب! عندما عادت أُمى من بيت العجوانى تقرست فى باستغراب وزعقت: كل ده يطلع منك انت .. إخص عليك يا على .. روح لمريم .. عاوزاك. ربتت المشلوله على كتفى فى حنان وضمتني إليها وبكت

فززلتنتى وحكيت لها ما كان من بنت الصقراوى ومنى. قالت مريم كل شىء
لأمى المصدومة، وحذرتها: إبعده عن الفاجرة بنت الفاجر .. فأبعدونى.
جاعت بشرى فعوت عواء ذئبة برّح بها الشبق وخرجت تسعى للانتقام
فوقع انتقامها على رأس أبى؛ زعمت أنه يطاردها فهولت عصابة الصقراوى
تنوى ضربه وطردها من الحارة. كرهت مريم بشرى، وكرهت بشرى مريم
كراهية تحدثت بها الحارة فيما بعد لزمان طويل.. ولولا عبد الستار لكانت مريم
فى عداد المطرودين من الحارة هى وأختها وأمها وأبيها. بعد أشهر تزوجت
"الأبلة" وسافرت فلم أرها، لا هى ولا التليفزيون ولا الحاج النهم، فكنت كلما
مررت على "الليفنج" المغلق تتسال دموعى!

الفصل العاشر

التوتة

"تجرى البنت تندس وسط الزرع.. تقتلع عرق خيار.. تعود.. فتلقيه فى حجره وتهرب.. ينهض مختلسا النظر إلى أبيها المنصرف تماما إلى "الحش".. ويتبعها ببطء إلى "التعريشة"..

٣٠

كنت إذا سرت فى الشارع الذى يقسم الحارة قسمين، بعد أن تكون قد تركت المربع المواجه للجامع الكبير، والذى به بيت الصقراوية، فسوف يسلّمك الشارع إلى شارع آخر أكبر منه، يعج بالغبار وبالمحال والمطاعم والمقاه وعربات الكارو التى تجرها الحمير والبغال. فإن أنت مشيت لنحو ربع الساعة فى الشارع الكبير فستقودك قدماك حتما إلى السوق؛ حيث سلسلة من المحال الأخرى وفرشات مرتفعة عن الأرض صنعت من أقفاص الخوص رصّت فوقها الخضروات والفاكهة والأسماك والخبز الفلاحى المخبوز فى أفران الفلاحات داخل البيوت. وستجد دكانات للخردوات وعصير القصب والقصابين والفراجية والبول والطعمية والباذنجان المقلّى والمخلل. ولن تخطىء عيناك محلا ضيقا مظلما علقت فى واجهته يافطة بخط باهت أزرق. تقرؤها: " منجّد الأمانة لصاحبها المعلم شحاتة المنجّد".

وغير بعيد، سترمى ببصرك لترى مساحة هائلة من الأرض ينخفض مستواها عن مستوى أرضية السوق. كانت مساحة من الخوص البرى والعشب

المتشابك السامق الطول تتخلله الأوحال وبرك الطين اللزج التى ما إن تغرس به قدماك حتى يكون من الصعب عليك انتشالهما من جديد. وبين كتل الخيزران الكثيفة عششت الثعابين والفئران والضفادع والذباب والهاموش والبعوض المدمن إدمانا مص الدماء. وستسمع- بمجرد اقترابك من " غيط البوص"- سيمفونية وحشية نشاذا من الأصوات المختلطة. أزيز زناوير غاضبة تطير ناشرة أجنحة تهتز ألف هزة فى الثانية الواحدة لسعتها والقبر، ونقيق ضفادع لن تراها إلا إذا قفزت أنثى من إنائها يطارها ذكرها الهائج. ستدهشك القفزة التى تمتد إلى عشرة أمتار فى لمح البصر. ثم سيتناهى إلى أذنيك فحيح ثعبان لا شك فى أنه ظل يراقب الزوجين الشبيين إلى أن راحت الأنثى تستعرض فتنتها وقدرتها الهائلة على النط أمام الذكر. يلتقطها فكا الثعبان الجائع المترقب فى سكون منذ ساعات. يهشم عظامها ثم يبلع. وسيدوخك صرير صراصير الماء الذى لا تعرف من أين بالضبط يهاجم طبلتى أذنيك. ولسوف تضطر اضطرارا إلى إحاطة رأسك بكفيك وتضغط بعنف لإيقاف الوجع والرعب الناتجين عن عواء ذئب البرارى الذى اتخذ من الخوص المتناول بيتا له.

قيل لنا- من عواجيز الحارة- إن الذئب وأنثاه النهمة لا يطيب لهما الافتراس إلا بعد انتصاف الليل، وبالتحديد عندما يكمل القمر استدارته فى السماء ويصير بدرا. أكد لنا العواجيز أنهم رأوها أكثر من مرة، وأن الذئب أبدا لا يهاجم شخصين يسيران معا بل يحلو له الاستفراد بك لو كنت وحيدا. والغريب.. أنهم أقسموا أن الذئب ما كان أبدا يهاجم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم بعد. كان تفسير الكبار لتلك الظاهرة أن الذئاب تموت رعبا من صراخ الأطفال لأن لكل طفل ملاكا حارسا كلّفه الله بحمايته.. هكذا قالوا!

فإذا تركت وكر الذئب، كنت ترى الحقول التي لا نهاية لها على مدى الشوف. تترك الطريق المترب العريض وتقف قفزة صغيرة فوق ترعة ضيقة فتصبح محاذيا للمصرف حيث تطفو على الماء طحالب خضراء مائلة للاصفرار، وجثث أبو دنيمة ذات البطن المنتفخة، وروث بهائم جف منذ أيام فنكّور وراح يجرى مع تيار الماء. وكان كل صاحب أرض يعرف حدود ملكيته بالشير.

تنتطلق البهائم من الزرائب بعد الفجر بقليل ومعها أصحابها فلا تعود إلا مع الغروب. يعتلى الفلاح صهوة مطيته مادًا فخذه فوق "الخرج" ذى العينين، الممثلة كل عين منهما بالسباح، الذى يكون قد قطعه من الزريبة ليلا ليلقيه على حواف الغيطان. وعند العودة يكون الخرج محشوا عن آخره بالبرسيم الأخضر الطازج طعاما للبهائم المنتظرة العلف. كل مطية تعرف طريقها جيدا. تسير نحو حقل صاحبها لا تلوى على شئء. ومع أن صاحبها يوقن أنها تحفظ طريقها عن ظهر قلب إلا أنه ما كان يكف عن التهويش عليها بعصاه الخيزران الرفيعة صائحا: شى يا حمااااار!

فإذا ولجت إلى الحقول فستكون قد دلفت إلى دنيا أخرى. دنيا من الهدوء والسكينة والصمت و ثلاثية العناق الخالدة بين اخضرار الزرع وزرقة السماء وبياض السحب التى تشبه نتف القطن فى أيام الجنى. يسلب السحر جنائك فتركن للدعة وتنتظم أنفاسك بعد لهاث الطريق. ستبتهج لرؤية شجرتى التوت العتيقتين على رأس الغيط اللتين صنع النقاء أغصانهما المتشابكة مظلة رحيمة من الظل مفروشة على الأرض كبساط رمادى تتخلله دقات من أشعة شمس خجول هبطت على استحياء كأنما هى الوشم على جسد هاجع فى استسلام ودعة. متعة صافية تدعوك للاسترخاء والكسل اللذيذ. وقد يحلو لك

فى عز الحر أن تقفز فى ماء المصرف البارد تأخذ غطسا أو غطسين.
وربما- وأنت عريان فى الماء - يعنّ لك أن ترفع رأسك المبتل إلى أعلى
وأنّذ سوف ترتعش أعطافك لمرأى فروع الصفصاف الياصرة العاشقة وقد
انحنت تغرق صفحة الماء بالقبلات الحنون.

سيهبط صاحب الحمار عن الخرج يفرغ محتواه ثم يترك المطيّة ترعى
فى أرض الله الواسعة دونما خوف ولا وجل من أن تضيع، فالمطيّة تحفظ
الغيط قصبه قصبه. لن يضل الحمار وسيظل يلف ويدور هازًا ذيله فى مرح
المطمئن على وفرة الماء والكأ وسيعود إليك فى اللحظة التى تكون فيها قد
قررت العودة وكأنه يقرؤك كما لا تستطيع أنت قراءة نفسك. يكفيك أن تصفر
بشفئك صفيرا خافتا حتى يأتىك حمارك سعيًا. الحمار أعقل منكو كلكم يا
ولاد الكلب .. يا رينكو كنتو حمير! هكذا كان رجب الصقراوى يردد دائما ثم
يقهقه قبل أن يمد كفه الثقيلة ويهوى بها فوق قفا أو صدغ من يتصادف
وجوده من أبنائه إلى جواره.

- هو فيه إيّه يابا.. ديه دى.. إيدك ثقيلة!

- إمش يا بن الصرمة.. خدك رينا انت وامك!

يكون الأبناء قد بلغوا الحقول مع أبيهم؛ هو فوق الخرج مؤرجحا ساقيه
ينغز بهما بطن المطية يستحثها وهم يهرولون خلفه. وكانوا يصحبون عليًا
معهم. ينصرف رجب إلى عمله ويتفرقون هم؛ فمنهم من يخلع عنه ثيابه
ويقفز فى الماء كالبهلولان يسبح ومنهم من يراهن أخاه على أيهما سيسبق
شقيقه فى ارتقاء التوتة أسرع. أما على فكان يسند ظهره إلى "التوتة" العملاقة
ويفتح مجلته الملونه ويقرأ. تتابعه سناء ابنة رجب الوسطى بعينها فتمشى
نحوه على مهل. تتسحب من خلفه. تخطف المجلة وتهرب فلا يلاحقها على

ويكتفى بالتوبيخ: هاتى يا بنى آدمة المجلة. تقترب وفى عينيها نظرة هائمة.
تجلس إلى جواره تتعمد لصق فخذها الأيمن بفخذة الأيسر وتهمس:

- مين النسوان دى يا على؟

- بنات من مصر!

- والنبي حلوين.. وبيعملوا إيه مع بعض؟

- ما اعرفش.. إمشى يا بنى آدمة بعيد!

كان لسناء رائحة ضايقت عليًا دائمًا؛ مزيج من الروث الحيوانى الحى بسبب لعبها الدائم مع حيوانات الزريبة الكبيرة والبراز - لأنها لا تتظف نفسها بعد الكنيف- فضلا عن رائحة العرق الرجالى النفاذة؛ كونها تنام مع إخوتها الذكور الكبار فى غرفة واحدة بالبيت الكبير. ذات يوم نهرها على متأففا غاضبا: يا بنى آدمة.. الواحد لازم يكبّ على نفسه ميّه بعد الشخاخ! ساعتها جرت سناء إلى أمها باكية وأصرّت أن تحمّمها بالكامل بالصابون "أبو ريحة" الذى تتشطف به الأم فجر كل جمعة.. (بعد ليالى الخميس الحافلة). وهاهو على يبتسم؛ مالسنا قد صارت رائحتها اليوم حلوة؟ تعجّب وسمح لها بالجلوس إلى جواره لصق الشجرة العتيقة بل وأعطاها المجلة تتفرس فى نسائها بنهم. ترمقه سناء بإعجاب، وتهمهم: إقرأ لى كاتبين إيه عندك والنبي يا على. يقرأ فتزداد التصاقا به. يتذكر هو بشرى فيدب الخدر اللذيذ بين ساقيه ويشعر بالنار تكوى أوصاله. يخشى العواقب فيزيحها بعيدا عنه ويزعق فيها: يا بنى آدمة.. قلت لك إمش بعيد! تترقق عينا سناء بالدمع. تتسحب من أمامه. ترفع الجلباب المترع بالورد والأغصان والعصافير والخضرة. تمسح أنفها وعينيها بطرف الثوب المشجر ويختلس هو النظر إلى الجسد العارى البض المغطى بالزغب فيكاد يصرخ ويفكر فى النهوض إليها.

تسافر عيناه إلى هناك، حيث أبوها المنحنى على البرسيم يحشه بالمنجل الحاد الشفرتين، تموت الفكرة في عقله على الفور ويتكور على نفسه مرعوبا يدفن وجهه في مجلته الملونة ونسائها المضغوطة تلالهن الثمينة المكتنزة في أردية البحر التي ما كانت لتغطي منهن إلا أقل القليل. يصرخ من جديد: قلت لك إمش بعيد!

تجرى البنت تندس وسط الزرع. تقتلع عرق خيار. تعود فتلقيه في حجره وتجرى. ينهض متلصصا مختلسا النظر إلى أبيها المنصرف تماما إلى "الحش". يتبعها ببطء إلى "التعريشة". تسبقه إلى هناك وتضطجع على ظهرها وتباعد بين الساقين. يجلس فيميل على جنبه ثم يرقد. تقع عيناه على بقعة السحر النائثة المثلثة فينسى نفسه. تتعلق برقبتة كالبئات اللاتي رأتهن في تليفزيون أبله بشرى قبل أيام. تهمس مسحورة: يالآ يا على نلعب عروسة وعريس! يهم بها وتهمّ به فينزل بنطال البيجامة الكستور ذات الخطوط المتوازية. تقاؤه اللكمة الضارية فوق أرنبه أنفه. كان رجب قد رآهما فسارع إليهما وراح يصفع الوجهين المرتعبين بكل قوة ويزعق: إمش يابن الصرمة انت وهى .. إوعوا تعملوها تانى! يسند رجب ظهره إلى جذع التوتة العريقة ويحشو ورق البفرة بالتبغ ويمرره على لسانه ويشعل السيجارة ويسحب النفس بعمق فى تلذذ. يتابع سيقانهما وهى تسابق الريح وبيتسم فلا يعرف أنهما فعلاها- فوق السطوح- مرة ثانية وثالثة ورابعة!

سطح البيت الكبير ثلاثة أقسام؛ قسمان ممهدان ظاهران للعيان، وهما اللذان يعلوان غرف البيت التي اصطفت تحته فى صفين، وأما القسم الثالث فهو "سطح الزريبة". هذا السطح جانب مهمل عن عمد ولا يسلكه إلا المغامرون. الكبار حذروا الصغار ألف مرة من ارتياد تلك المنطقة لأن بها فجوات هائلة غير مرئية تكدست فوقها أكوام من قش الأرز وأعواد حطب القطن الجافة وأفراس من "المسكة" تركت منذ أزمنة بعيدة. سيهياً لك فى البداية أن الأرض ممهدة لكنك لا تعرف أن الثقوب راقدة هناك؛ نائمة فى لؤم تتربك كمصيدة. عشرات الثقوب كمننت تحت القش والحطب فإن أنت انزلت قدماك وهويت فستجد نفسك ملقى تحت أقدام الحيوانات الهائجة - تحت الزريبة - إثر سقوطك.. وستدهسك الحوافر.. وستموت.. إن لم تكن قد مت فعلا بسبب سقوطك المدوي!

لم تكن ثقوبا عشوائية أو بلا هدف بل كانت فتحات للتهوية. الفجوات الضيقة تلك تسمح للهواء البارد النقى أن ينساب من أعلى إلى أسفل، ومن الفجوات نفسها يخرج الهواء الساخن المعبق بالغازات المطرودة من مؤخرات البهائم ومن أفواهاها. بدون هذه الفتحات المتناثرة فوق السطح تختنق البهائم ثم تتفقق. وعلى الرغم من تحذيرات الكبار لنا - والتي كانت تبلغ أحيانا حد الضرب المبرح - بالابتعاد عن هذا الجزء الخطير من السطح إلا أننا كنا نرتاده. نخاف ونرتاده. كنا نحب ركوب الخطر. كنت تتحسس بقدمك اليمنى أرض السطح لتحدد لقدميك قبل الخطو موضعها، ثم تتوالى الخطوات إلى أن تستقر فى بقعة آمنة. أما الخوافون منا فكانوا يزحفونها على بطونهم. يتفحصون الأرض أولاً بأيديهم، فإن اطمئنوا ينتصبون مترددين، فيكملون

السير خطوة وراءها خطوة. كل أطفال البيت الكبير خاضوا- غير مرة- تجربة الولوج إلى فجوات السطح المربعة .. غير أن سناء كانت بيننا جميعا الأكثر إقداما على المغامرة. كانت جريئة جدا. أجرينأنا- صبيانا وبنات. ربما لأن أشقاءها كلهم كانوا ذكورا فتعلمت منهم سلوك الذكور المتوحشين ونسيت أنها أنثى وربما لأن رجب الصقراوى رباها كما يربى الأولاد.

روحي خدى حقك بإيدك منهم يا بنت الكلب! هكذا كان يصرخ فيها كلما أنته باكية شاكية من شقيق لها. مرة تلو مرة أصبح أخذ الحق باليد منهجا ووسيلة بقاء لديها. وفوق ذلك فقد منحت الطبيعة سناء قبضة من حديد ونظرة عين يتطاير منها الشرر إذا غضبت .. ودائما كانت فى حالة غضب. لم تكن تهاب شيئا ولا أحدا ولا حتى أباهها وصفعاته الموجهة. تنتظر إليه فى تتمر وينتصب شعر رأسها كقفذ أخذ وضع الاستعداد للقتال أو ككلب يوشك على العقر. يصفعها فتزجر فى وجهه ثم كالرعد تطلق سيلا من الشتائم التى علمها لها هو نفسه. كان يضحك ويضمها إلى صدره: أه .. يا بنت الحرام .. مافيش فايده فيك! فى الحارة لم يسلم أحد من سلاطة لسان سناء الذى كانت تدليه إلى خارج فمها كلما غضبت فيسيل منه اللعاب. حتى أم سيد الشلق كانت تتجنبها: روحى قبر يلمك .. عقربة زى امك!

يكون علىّ، ومعه العيال، فى أوج لحظات المتعة فى أثناء اللعب فتتهبط سناء عليهم كالقدر: عاوزه العب يا روح امك انت وهو! ثم .. مطر من الشتائم التى لم تكن نسمعها إلا من الكبار الشتامين. والويل لمن يشتكى أو يعترض. شلال من الصفعات والركلات سينهمر على صدغيه وفى الصدر وتحت السرة وبين الفخذين. تمد ذراعيها على امتدادهما فتحضن الراض وترفعه إلى أعلى ثم تتركه يهوى فلا تكتفى بل تتهاى عليه ركلا بالشلاليت.

لم يكن أحد يقدر عليها ولا حتى ابن عمها ديستيفانو الرهيب. باقول لك إيه يا ابن صافية .. ابعد انت بروح أمك! يبتعد منكسرا ويبحث عن واحد منا فيصفعه مغتاظا ويمضى وينفضّ اللعب.

عيل واحد فقط كانت سناء تضعف أمامه وتخضع ببصرها إذا رأيته وتبرطم بكلام غير مفهوم .. على!

سر ضعفها لا يدركه سوى اثنين، على وهى. كانت قد ضبطته ذات يوم يلعب ابنة عمها "الأبلة" عروسة وعريس فوق الفراش بعد انتهاء المسلسل فى التلفزيون إثر انصراف كل من بالغرفة، شهقت: الله الله .. بتعملوا إيه انت وهى؟ قبضت بشرى على رقبتها فى ذعر. جرجرتها من شعرها الأجدع الهائش. حاولت سناء الفرار فربطتها بشرى بالسريير وجردتها من ملابسها ثم مرت على فخذها الأيمن بملقعة سخنتها على النار. ويعينين محمرتين صرخت فيها بصوت كالرعد: عارفة يا بنت رجب لو نطقت بحرف واحد .. هادبك انت وامك! لم تتطق بنت رجب أبدا وإنما حذت حذو عمتها واشتهت عليا فلم يخذلها على. تحولت بين يديه إلى امرأة وفجر فيها ينابيع الأنوثة التى كانت قد توارت خلف ادعاء الذكورة المزعومة.

بعد واقعة الكى بالنار وقعت سناء فى إيسار على. رأيته بعدها بأيام فأمرته بعينيتها فأطاع وتبعها: تعال معايا على السطوح! مشت أمامه ممسكة بيديه كشرطى قبض لتوه على مجرم طال هروبه. صعدت الدرج المهترئ للسلم فسار خلفها يرتجف كجرو وليد تعلق بذيل أمه. اقتحمت السطوح المملوءة بالفجوات اللعينة المختفية كالشراك فلما أن رأيته تردد همست بحنان لتشجيعه: يالا يا على ما تخافش .. أنا حافظة السطح ده حته حته. ارتعد فدفعته وارتمت فوقه. تنفست فى وجهه لهاثا كرية الرائحة فأراد الهروب لكنها عاجلته

فركبت صدره: يالآ نلعب عروسة وعريس .. إسمعنى أبله بشرى! سناء وعلى
صارا كتلة واحدة. أصبحا عاشقين؛ طفلين عاشقين يطرقان أبواب الرجولة
والأنوثة المغلقة فى دمائهما منذ آلاف السنين .. وهاهى الأبواب تتفتح!

.. تشعر بالوخز فى منابت الشعر بصدرك وفى ظهرك وتحت الإبطين.
 تسلل العرق الساخن إلى المنابت فآلمها فمددت يدك تهرشها مغناظا. يلفح
 القبط عينيك وقفاك والبقعة الخالية من فروة رأسك فتنفخ الهواء اللاهب
 المحبوس فى رئتيك. يختلط هواؤك بالهواء الباكي حولك- هواء الميتين.
 تنظر.. فترى القبور تفتح أفواهاها لك كتماسيح جائعة تشتهيك فتسرع الخطى
 وتتذكر ما كنت نسيت من زمن بعيد:

" صاح، هذى قبورنا تملأ الرحب،

فأين القبور من عهد عاد..؟!

خفف الوطأ، فما أظن..

أديم الأرض، إلا من هذه الأجساد!"

.. تتذكر أمك فترتجف. تقترب حثيثا من كومة البشر المتحلقين حول
 مقبرة فقيرة تهدمت جدرانها يتابعون " حفار القبور اللّحاد" الذى انكبّ عليها
 يعالجها لتستقبل الجسد المسجى بجواره؛ جسد أمك. يسارع إليك أخوك
 فيحتضنك ويشهق بالبكاء:

- أمنا ماتت يا على!

-

- نطقت اسمك وهى بتموت.. كان نفسها تشوفك!

-

- لو كنت جيت امبارح كنت شوفتها!

-

- يعنى خلاص.. مشغول للدرجة دى يا خى؟!

- إخوانك البنات أهمه.. هناك.. جنب التربة!

تسير ذاهلا مكتئبا تغوص قدماك فى تراب الموتى الذى تراكم أكواما تزكم أنفك رائحة الفناء.. أنت الذى ترقى قبل قليل لأعلى المناصب! تراك شقيقاتك فيشحن بوجوههن عنك ويبكين ويمضين بعيدا عنك فلا سلام ولا كلام.. ولا حتى " البقية فى حياتك!". لا تهتم بهن.. ومتى كنت تهتم؟ لماذا الادعاء الآن والميتة هى أمك؟ لا يحبونك؟ عادى.. وهل تحبهن أنت؟ غير أن الميتة كانت تحبك. صحيح؟ نطقت اسمك قبل الرحيل.. ففيم كانت تفكر آنئذ؟ هل اشتاقت إليك فعلا أم تراها كانت تلعنك أيها الابن العاق الذى ماكان يزورها إلا فى الأعياد؟ آآآآه.. ها أنت تستعيد كلماتها الآن: " الدنيا دايمًا وخداك يا على!" يزداد اكتئاب روحك تتمنى لو هربت. لكن أتهرب من دفنة أمك؟ يشعر شقيقك بكرب روحك فيمد يده ويقودك يعرفك على الأقارب الذين أتوا يدفنون لك أمك. لا تقوت عليك نظرات الاستهجان فى العيون الباكية. آه.. ليتهم يبصقون فى وجهك الآن كى تجد حجة للفرار. تسمع همسة مجهولة: " إيه اللي جاب الجدة ده دلوقتى؟" فلا تهتم.. ملعون أبوهم جميعا.. واغش وحثالة. ما الضير فى لعناتهم لك الآن؟ من هم أصلا؟ إن من تعنيك فى الأمر خلاص.. ماتت وانتهى الموضوع.. طظ فيهم!

ترفع رأسك تتابع الشمس الحارقة. تدور بعينيك فى السماء. هل غاضبة عليك هى أيضا؟ أكيد.. وإلا فلماذا تأبى إلا أن تبخ سهام قيطها الآن فى مقتلتيك؟ يتعرق جسدك ويملاً التراب الناعم شعيرات فتحتى أنفك فتكاد تختنق. ما المشكلة إذا انسحبت الآن بالراحة ووليت الفرار عائدا إلى حيث تنتمى.. إلى مجدك المرتقب ومستقبلك المشرق؟ خلاص يا أخانا.. الماضى مات

وهاهم يدفنونه.. هيا هيا انسحب.. فلن يفتقدك أحد! يلمس أحدهم كتفك
بحنان فترتعث مبهوتا تلتفت خلفك فى دعر.. فتراها.

آآآآآآه.. إنها مريم!

شابة.. وجميلة.. ونضرة.. وباسمة الوجه.. مفردة الشعر فوق الكتفين..
قمر يا مريم وأنت فى رداك الأبيض الذى أعرفه جيدا.. ساحرة كما كنت
دائما يا مريم. لكن.. ألم تموتى من زمن بعيد؟ من أى قبر من تلك القبور
هللت يا مريم؟

تضمك مريم كما اعتادت دائما.. تبتسم لك.. وتهمس فى أذنيك:

- وحشتنى يا على!

-

- عينيك حلوين زى ما همّا.. زى عيني امك!

- أمى خلاص.. ماتت يا مريم!

- روح بص عليها يا على.. نفسها تشوفك يا حبيبى!

تختفى مريم فتجرى كالمجنون لاهثا تزيح اللّحاد عن طريقك وتهوى فوق
جسد أمك وينفجر شلال البكاء المكتوم الذى بحثت عنه طويلا فلم يسعفك
وها هو الآن يملكك امتلاكًا. ترفع عنها غطاء الرأس وتسقط على الوجه
الميت لثما وتقبيلًا. تصرخ: "سامحني!". يحيطون بك يريدون إبعادك عن
الجسد الشمعى المسجّى فيصرخ فيهم شقيقك: "سيبوه معاها شوية يا جماعة!"
غير أنك لا تبقى. لم تعد قدماك قادرتين على حملك فتتحامل على نفسك
وتفر جاريا تطاردك المهانة والحزن الذى لم تعرف له مثيلا يوما. تطلق
ساقيك للريح يأخذك قبر يسلمك إلى قبر. تبتعد.. يلاحقك أخوك.. تتعب
فتتهار فوق فوهة قبر تتأثرت عظامه.. فيباغتك صوت مريم: "أمك ماتت يا

على!" تقفز إلى ذهنك المنهك الكلمات التي كنت قد نسيت:" يا ابن آدم..
ماتت التي كنا نرحمك من أجلها.. فاعمل لنفسك!" تغرقك الدموع فتغيم عيناك
فلا ترى. تريد التوقف عن البكاء إلا أن البكاء كان قد أفلت من عقاله ولن
يوقفه أحد. تدور الدنيا في عينيك فلا تحس بنفسك.. وتسقط بين القبور!

الكتاب الثاني

بيت العطارين

الفصل الحادى عشر

القصر المسحور

"اقترب الموكب من الركن الذى اختبأ فيه على.. هبط الشيخ بعينه من السماء.. ورشق عينيه فى عينيّ على.. ثم ابتسم فدى قلب على بعنف وهمس: يا ربى إنهما عينا مريم!"

٣٣

ما كان لعلّى أن يكتشف الكوة الضيقة فى سور قصر العطار، والتي لا تسمح إلا بمرور جسد واحد بصعوبة بالغة. كانت سناء هى التى اكتشفتها. اجتازتها، وسحبت معها عليّا. بعد أن رفع الشيخ عبد المولى أذان العشاء، وكانت الدنيا قد أظلمت، تجمعوا للعب. الليلة سنلعب "الطاقية فى العب!" تجرى بيننا القرعة. نقلب أكفنا إلى أسفل، ثم يهتف أحدها: "كلوا بامية!"

فنقلب الأكف، فمن يختلف كفاه عن الباقيين يصبح هو "الكلب"، ويحيطون عينيه بخرقه سوداء محكمة الربط كى لا يرى، ويجلس الآخرون فى دائرة. يخبئون "الطاقية" فى عبّ أحدهم، ويكون على المغطّى العينين اكتشاف من هو صاحب الطاقية. يظل يدور ويدور، وهم يصفقون بالأكف تصفيقا مدويا، فإن توقف التصفيق فجأة، وعمّ الصمت، يقف الكلب، ويمسك برأس الذى جاءت وقفته عنده، ويصيح:

- هات الطاقة يا كلب!

فى الغالب لا تكون الخبيئة مع هذا الذى أمسك به الكلب، فيعودون إلى التصفيق من جديد، ويعود هو إلى اللف والدوران، وهكذا حتى يتم اكتشاف الطاقة، فيصبح هذا الذى تم اكتشافه كلبا حيرانا جديدا، وينهض ليدور ويدور، بينما يجلس الكلب القديم فى مكان الكلب القديم.

على .. كان دائما هو الكلب الذى تبدأ به اللعبة، إلا أنه كان يظل هو الكلب طوال الليل فما كان أبدا يجلس. كان فى الأمر مؤامرة سرمدية نسج خيوطها ديستيفانو الحاقد دائما على على، فكان على يظل طوال الليل يلف ويدور فلا يجلس، إلى أن عشقته سناء، فأنقلبت الموازين.

تكون سناء واحدة من الجالسين القرفصاء فى الدائرة، وتصر على أن تكون الطاقة فى صدرها هى، فإذا اقترب منها على - وهو يبحث عن الخبيئة - كانت تهمس له:

- الطاقة معايا يا على .. فى صدرى!

كانت تحب أن يمد يده إلى صدرها فيتحسس الجوهريتين المشتعلتين النابنتين فى الصدر تتوقان إلى اللمس. يمد يده، فتضغط عليها بكفيها إلى صدرها، وتبقيها هناك قليلا. ترتعش متلذذة فى استكانة، يعثر على الطاقة فتتهض هى فى نشاط لتلعب دور الكلب، ويجلس هو مكانها، وعلى الفور - وبعد لفة واحدة - تكتشف صاحب الطاقة المخفية، فينتصب واقفا ليلعب دور الكلب، وتعود هى إلى على فتجلس ملتصقة به، وحولهما الظلام.

فإن حدث وتذمر أحدهم أو صاح معترضا، تغضب سناء غضبتها المدعاة، وتصرخ:

- موش لاعبين .. إنتم بتكحروا.. ياللاً يا علىّ نسيب "ولاد المرة"
دول!

تسحبه من يده، ويمضيان، وقد لقت ذراعها حول خصره، وكأنهما صبيان
اثنان يسيران معاً، وليسوا ولداً ذكراً وبنتاً أنثى. يتجولان فتأخذهما أقدامهما إلى
مسارب ودروب سرية كانت سناء وحدها هي التي تعرفها.
.. والليلة، قادتته إلى الكوة الضيقة في سور قصر العطار التي وقعت
عينها عليها مؤخراً. انحشرت في الكوة الضيقة. زحفت وزحف علىّ وراءها.
دخلت إلى الحديقة الغارقة في ضياء اصطناعي مبهر انبعث من مصابيح
أطلقت نورا أبيض، غمر الكون فأحال الليل إلى نهار. رأيا ما رأيا، فكان ما
رأياه مدهشاً أجبرهما على فتح العيون على اتساعها، وألجم منهما اللسانين ..
وغرقا في شلالات من الصخب.

الحديقة بساط أخضر هائل الامتداد، انعكست فوق عشبهِ اليناع أضواء مصابيح كهربية. تناثرت بقع الضوء فوق العشب تتخللها بقع أخرى من الظلال المظلمة التي بالكاد يصلها الضوء. لم تكن الأشجار كالأشجار التي يراها علىّ وسناء في الغيط. كانت أوتادا سامقة الطول من خشب أملس، مطلى بطلاء أزرق داكن مائل للرمادي، تنتهي بأغصان قصيرة ناعمة بلا أوراق، فكأنما الأشجار نساء صلعاوات تساقطت شعورهن، فلم يتبق منها إلا خصلات تنعى نهاية الشباب الزائل. كانت الغصون جريدا اصطناعيا أجرد ألصقتها هناك بإهمال يد إنسان .. وليست يد الخالق المبدع، ولولا المصابيح التي بدت كنجوم مبهرة تدلت من الأغصان - كالأقراط - لكانت المرأة الصلعاء القبيحة قد بدت أقبح مما بدت عليه الآن.

كتم الطفلان أنفاسهما الخائفة في صدريهما، ونظرا مسحورين إلى هناك؛ إلى وسط الحديقة.

كان ثمة بركة من الماء، أحاط بها حائط دائري من الرخام الأبيض. ولأن القاع كان قطعاً متراسمة من الرخام الأزرق فقد كانت مياه البركة هي الأخرى زرقاء، ما إن يسقط فوقها الضوء الساطع المتألىء للمصابيح حتى ترتسم على صفحة الماء نجوم، مختلفة الأحجام، تتماوج مع حركة الماء البطيئة الهادئة، فيصنع البياض المختلط بالزرقة سجادة من الفتنة الأخاذة.

- بص يا علىّ .. بص!

تلكزه في كتفه، فيدير علىّ عنقه إلى حيث أشارت، يرى طاولات من الخشب المدهون بالأصفر الفاقع، عليها مفارش متقاطعة الألوان والخطوط، تراصت حولها مقاعد من خوص، فوقها شلّات حريية بلون أحمر باهت،

كلون الزهر البرى، الذى تزدان بها حواف الحقول مع الربيع. و فوق المقاعد رجال ونساء يثرثرون فى جلبه أَرَقَّت نوم الليل الذى ما كان لينام فى هذا القصر أبداً.

ألقى علىّ ببصره إلى هناك، حيث الركن المختبئ خلف أجمة من الأشجار، لا يلحظ من بداخلها إلا المدققون، فتعجب مما رأى.

كان الشيخ عبد المولى شيخ المسجد جالسا هناك، لكنه لم يكن فى الرداء الذى اعتاد رؤيته فيه. لا قفطان من الجوخ، ولا جبّة، ولا عمامة، بل كان يضع عليه سترة لامعة من تلك التى رآها علىّ فى مجلات بشرى الملونة ويرتديها الفنانون. كانت سترة موشاة بخطوط من القصب، كالقصب الذى يزين أردية راقصات هز البطن فى المجلات. وكان الشيخ يرتدى البنطلون، وشعر رأسه مصففاً، ويلمع، وكأنه مسد شعره بدهان كالدّهان الذى تستخدمه "أبله بشرى".

يتسحب علىّ، وقد تملكته روح شيطانية، رغبة فى الاكتشاف.. ماذا يفعل الشيخ هنا يا ترى؟ اقترب، تسلل من بين أشجار الأجمة شبه المظلمة، دخل، فكن على مقربة من المقعد الذى جلس فوقه الشيخ. وتسمّع!

كان الشيخ قد أحاطت به ثلة من النساء اللائى لا تغطى أجسادهن سوى قطع ضيقة متناهية الصغر من قماش مخملى ناعم، بعضها زهرى اللون، وبعضها وردى، وبعضها أصفر شديد الاصفرار. من هؤلاء يا ترى؟

كاد علىّ أن يصرخ عندما رأى الشيخ الجليل يمد أصابعه يمر بها على أكف النساء، الواحدة تلو الأخرى، ببطء، فتتأود النساء ويرتعشن فى ترقب محموم لما سينطق به الشيخ. ها هو الشيخ يقول لإحادهن وقد قطب جبينه وزم شفثيه معا:

- مستقبلك يا مدام مشرق جدا .. سيتترك رجلك الحالى .. لكن الله
سيمنحك رجلا أفضل منه!

.. ولامرأة أخرى قال:

- اطمئنى يا هانم .. ميراثك سيعود لك قريبا .. لكن لا تتسبينا فى
الحلاوة!
.. ولثالثة قال:

- ستحملين قريبا .. وسترزقين بالولد .. اطردى الخادمة اللعوب .. ولا
تتركى زوجك ينام وحده !

كان الشيخ، المتسريل فى ثياب أهل الحضر، يقرأ للنساء طوالعهن،
وينبئهن بالمستقبل، بينما تسمرت عيناه هناك .. فوق جسد مرمى لامرأة
تقترب الهوينا من البركة.

.. كانت المرأة هى مريم!

بلغت حافة الماء .. فجلست ساهمة .. وكفاها تمران بحنان فوق الماء.

كانت فى رداء بحر ضيق جدا، من قطعتين صغيرتين، إحداهما تحضن
الصدر العامر بعنف، والثانية تحضن الردفين الشهيين .. وكانت القطعتان
بلون الفضة، كلون الجسد البض، فبدت لمن يراها كأنها عارية تماما. لم
يخف على على ما فاضت به عينا الشيخ عبد المولى من شوق واحترق
مكتومين، ورغبة عارمة جامحة. وكماء جار فى جدول رقيق هادىء تسربت
الكلمات من شفثيها القرمزيتين. كانت تتحدث بعينيها إلى الشيخ، ومع ذلك
أحس على بأن الكلام كان له هو:

- هل حقا تستطيع يا عبد المولى أن تعرف مستقبلى؟

- بل أنت مولاتى يا مريم!

- إِسْتَغْفِر يا رجل .. قل لى .. ما مستقبلى؟
- يا سَتَّى .. ستركبين سفينة تبحر بك فى سبعة موانى، وستعبرين
سبعة بحور، وسيطلب ودك سبعة من ملوك الجان، يتقاتلون لأجل
عينيك فيهلك بعضهم بعضا، وستعيشين يامريم من بعدهم سبع
حياوات ..!

ندت عنها أنة ألم، ونظرت نحو السماء، كأنها تحدث شخصا ما هناك
تعرفه ويعرفها:

- آآآآه أمانا سكة سفر طويلة يا حبيبى.. قَوانا الله عليها.
كاد قلب علىّ يتوقف عندما رأى مريم بلباس البحر تنهض فتمشى على
مهل، ثم تخلع ما ارتدت، وتقفز فى ماء البركة. تستلقى على الماء فاردة
ظهرها نازرة إلى القمر فيسحبها الماء بنعومة. كانت مغلقة العينين فى خشوع
كأنها تصلى.

فى منتصف البركة راحت تغوص، فلما بلغ الماء العنق التفتت إلى علىّ
وابتسمت. . زمت شفتيها، و رفعت السبابة فألصقتها بالشفتين، وهمست له:

- هسّ!

ثم اختفت تحت الماء.

هزت "الزعة" الوجود كله، فسارع علىّ إلى وضع أصابعه فى أذنيه، وخفض رأسه. كانت زعة مزمار بلدى حاد الصرخة أطلقها زمار تقدّم صفيين متوازيين من الدراويش المنشدّين، حمل كل منهم "طارا" يشبه الغريال المعلق فوق المسمار القديم الصدى على حائط مطبخ بيتهم. كان الدراويش يأخذون جذع الجسد بكامله فيميلون به إلى اليمين ويهتفون: "الله"، ثم يأخذون الجذع كله إلى اليسار ويهتفون: "حى". ومع الدقات المنتظمة المتناغمة كان اللعاب يسيل من جانبي أفواههم فلا يكادون يشعرون. بص يا علىّ بص لابسين إيه! همست سناء الملتصقة به فى وجل ترتعد، وهى التى عادة لا تخاف. أغلبهم ارتدوا ثيابا ممزقة بها خطوط طولية متوازية .. خط أحمر يجاوره آخر أبيض. وثمة خرق سوداء مختلفة الأحجام، تغطى المزق المتفشية فى الثوب العجيب كالبنور فى الوجوه المجذومة. وتحت الجلباب سروال واسع فى أعلاه وبضيق كلما نزل إلى الأرض.. و أدخل بعضهم طرف الجلباب فى السروال دونما انتظام. كانوا حفاة، امتدت لحي أغلبهم حتى بلغت منابت الصدور. لحي بيضاء مصفرة، وسوداء فاحمة السواد، وصفراء مشوبة بالبنى .. بلون الحنّاء. راحوا يدورون فى حلقات. تضيق الحلقة ثم تتسع ثم تتسع. طافوا بأرجاء الحديقة الشاسعة الامتداد، وكلما اقتربوا من المخبأ الذى اختبأ فيه علىّ كان صياحهم يرتفع أكثر، وكأنهم يرونه. يكبرون ويهللون:

- الله حى.. الله حى.. الله حى..

ثبت علىّ عينيه على الشيخ الذى تقدم الموكب. كان مختلفا. جميلا.. نحيفا.. أقصر من الآخرين.. أبيض البشرة كالحليب.. ويضع فوق رأسه عمامة خضراء.. وجلبابه ناصع البياض كقطن الحقول الخارج لتوه من

اللوزات المتفتحة. جلبابا لا شائبة واحدة به. ومن عنق الشيخ المهيب الجليل تدلت على صدره البارز بشكل لافت مسبحة من تسع وتسعين حبة كحبات العنب، كهرمانية اللون.. ولم يكن الشيخ يهتز مثلهم، بل سار في شموخ الخاشعين الواقفين ينظر نحو السماء نظرة ساهمة رغبة مستعطفة.. كان يناجى الخالق. اقترب الموكب من الركن الذى اختبأ فيه علىّ، هبط الشيخ بعينه من السماء، ورشق عينيه فى عيني علىّ.. ثم ابتسم فدقّ قلب علىّ بعنف وهمس:

- يا ربى .. إنهما عينا مريم!

ابتعد الموكب الجليل، فتشبثت يد سناء بيديه، وتسلا يريدان الهروب، فصعق آذانهما الصخب.. صخب الدراويش المدوّى. يتلفت علىّ ويجرى لاهثا، فىرى ممرا اصطفت على جانبيه شجيرات صغيرة يانعة الاخضرار برزت منها ورود من كل لون وسلمت نفسها للنحل وفتحت له أعضاءها الحميمة. ينظر بتمعن فىرى النحلات تمتص رحيق الورد بشغف وقد غلبها السكر والانتشاء فراحت تترنح ثم تطير على غير هدى فتصدم وجهه. يصرخ وهو الذى يخشى لسع النحل خشيته الموت، تنطلق قدماء تسابقان الريح لا يعرف أين ستقوده القدمان.. يقطع الممر فى ثوان فىأخذه الممر إلى حفرة عميقة تنزلق إليها قدماء فيهبط فى قلب الظلمة.

لن يسمع صرخاتك يا علىّ أحد هنا فأنت الآن فى جوف القبور!

يتسرّب شعاع هارب من الشمس إلى الحفرة فيصنع دائرة مكتنزة من الضياء يرى علىّ على هديها العظام المبعثرة. كانت بقايا بشر فنوا عبر الزمن وتلك عظامهم. يرتعد علىّ فتصطك أسنانه وينتصب شعر رأسه. من هؤلاء الموتى يا ترى؟ هل تلك هى جبانة الموتى التى طالما سمعهم يتحكون

عنها فى الحارة فتمتلىء قلوب العواجز بالرعب المميت؟ يزحف.. فتتعرّ
قدماه بجارة متراصة كالمصاطب.. ما هذا؟ أهذا سلّم؟ يصعد. اصعد يا
علىّ وسيأخذك السلم إلى أعلى.. هيا اصعد. يرى بابا موصدا فى وسطه
حلقة كبيرة.. يجذب الباب إلى ناحيته فلا ينفّح.. يجذبه إلى الاتجاه الآخر
فيصدر دويا يصم أذنيه وينفّح. يمشى بضع خطوات فيبتلعه سرداب آخر
مظلم.. يتحسس الأرض بقدميه ويمشى فوق العظام فيسمع طقطقتها تنهشم.
كان خائفا فبكى وواصل المسير.. ليس هناك حل آخر. آه.. هناك نفق فى
نهاية الممر يا علىّ.. هيا إليه.. وهاهو باب آخر، يدفعه فيغشى عينيه ضياء
لم ير مثيلا له من قبل فيغلق عينيه ثم يفتحهما ببطء. ما هذه الغرفة الواسعة
التي لا بداية لها ولا منتهى؟ وما تلك الأقفاص التي صنعوها من زجاج؟ وما
تلك الرائحة التي تشبه رائحة الدواء وتكاد تخنق الأنفاس؟ تراه الأقفاص
فتصدر زعيقا صارخا. بالأقفاص عرايا من البشر.. أحقا بشر هؤلاء؟ فمال
بطونهم مبقورة ومربّطة هكذا؟ ولماذا يتقافزون إلى أعلى ثم إلى أسفل كأنهم
يطلبون دمه فيفغرون أفواههم الخالية من الأسنان؟ هل هم موتى الجبانة؟
وهل الموتى يصرخون.. أم تراه موتى استيقظوا من الموت لما رأوه؟ يتقرس
علىّ فى وجه واحد منهم كان يدعوّه إليه بذراعه من بين قضبان القفص
الفولاذى. ينظر علىّ فى عينيّ الميت المحبوس: يا ستار يا رب.. الرجل
العارى ليست له عيان بل حفرتان غائرتان.. فكيف إذن رأى فأشار إلىّ؟
يقترّب علىّ يريد أن يمد يده ليلمس اليد الممدودة إليه. قبل أن يفعل يحس بيد
أخرى غليظة حديدية تقبض على عنقه بعنف وتجذبه إليها.. يلتفت فيرى
عبدا أسود جبار البنية. آه.. لقد رأيتك من قبل.. إنك أنت العبد الذى كان
يأتى مريم ليلا! ما الذى جاء بك إلى هنا يا "لعبة مريم"؟ ألا فاعلم أن نهايتك

ستكون على يدى الليلة يا غلام! سأجعل هؤلاء الموتى الأحياء يمضغون لحمك.. ويمصصون عظامك.. ويشفطون دمك!

- لا والنبي يا عمّ الله يخليك!

هنالك يهتز الكون بالصرخة المدهشة القادمة من السماء.. نظرا معا إلى السماء فيرى علىّ الشيخ الجليل بارز الصدر معلقا بين السماء والأرض لا يسنده شيء ولا يسقط. وكانت حول عنقه مسبحة من النور.

حزّ العبد الأسود ساجدا ثم تبخر في الهواء، يبتسم الشيخ ذو اللحية لعلّ ويخاطبه:

- أقدم يا علىّ ولا تخف!

- الله الله الله .. إنك أنت مريم!

- تعال يا علىّ!

سلمها يده باطمئنان فأخذته وطارت به.. وبعد قليل حطت به على الأرض.. ليجد نفسه أمام باب المسجد الكبير. ما هذا؟ إنها سناء تتقافز فتحرك " الشققة" فوق المربعات المرسومة فوق الأرض بالجير. سناء كانت تلعب الحجلة:

- سناء إنت طلعت ازاي؟

- طلعت منين يا علىّ؟

- الله .. إنت موش كنتى معايا هناك؟

- هناك فين؟

يرفع عينيه إلى السماء فيرى مريم تحلق كفراشة فتدخل إلى السحاب .. تضع سبابتها فوق الشفتين وتهمس:

- هسّ!

يتمتع على نفسه:

- ما هذا.. كل حاجة هسّ هسّ .. لابد أن أفهم يا مريم!

يجرى.. فيبلغ بيت العجوانية.. ويمر من فتحة الباب المسحور يدخل

غرفتها.. ويزعق:

- يا مريم.. يا مريم!

لا أحد يرد.. فيقترب ويدفع باب الغرفة ويراها هناك.. مريم فى رداؤها

الأبيض الشفاف.. كانت تصلى.. وعبد الستار جالسا فوق الفراش عاريا

عاقدا ذراعيه فوق صدره يراقبها فى صمت.. . تنهى الصلاة وتسلم:

- "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. السلام عليكم ورحمة الله"

- يا مريم!

- إيه يا على؟

- عاوز أفهم!

رنت إليه طويلا فى إشفاق.. ثم نظرت إلى عبد الستار.. اقتربت من على

وحضنته.. قبلته بين عينيه وفوق جبينه.. تمتمت:

- عينيك حلوة يا على!

- بلا عنيا بلا زفت.. عاوز أفهم!

- بص يا على.. ما تروحش سراية العطارين دى تانى.. المكان هناك

خطر يا حبيبي!

- ومين الناس العريانيين دول يا مريم؟

- قلت لك ما تروحش هناك وخلاص!

- لأ .. لازم أفهم الأول!

- طيب.. بعدين يا حبيبى هاشرح لك كل حاجة.. بس ارجع لامك دلوقتى

.. ملهوفة عليك.. واولع تحكى لحد اللي شوفته.. مفهوم؟

- قولى لى الأول مين دول!

- يا على.. هاقول لابوك لو ماسمعتش الكلام!

يتذكر على أباه فترتعد فرائصه.. لا شك أن الجلابد سوف يشوى وجهه الآن بالصفعات واللكمات والبصاق.. ليلتنا سوداء.. ينسحب على كسيف البال خائفا.. يجر قدميه ويستدير برقبتة للوراء.. يرميها بنظرة عاتبة حزينة فتبتسم:

- هاحكى لك كل حاجة.. بس علشان خاطرى روح دلوقتى!

الفصل الثانى عشر

حكاية العطار

"يصرخ فى المسجونون من داخل أقفاصهم الزجاجية.. فلا يهزنى
صراخهم وقد عهدته.. أنظر إليهم بتمعن.. وأضحك..
فيزداد بريق الغل فى محاجر العيون التى نزعت.. ها هو
باب ثان.. فلنتوكل على الله.. وندخل!"

٣٦

- ألن تحكى لى يا مريم حكاية بيت العطارين؟
 - سأطرح عليك فزورة أولا يا على.. فإن حللتها لى فسأحكى لك!
 - قولى يا مريم..
 - قدّ الكف ويقتل ميه وألف.. فما هو؟
 - ياااااااااا يا مريم.. قديمة قوى.. المشط يا ستى!
- تضحك مريم حتى تبرز الغمازاتان تحت وجنتيها، وتتجلى أسنانها
البيضاء المصفوفة بانتظام بديع، فأرى لسانها الرطب الذى مخضته قطعة
علكة النعناع باخضرار معطر يخطف الروح.. تضمنى إليها فى سعادة
فأشعر بتكويرة التدبين تحت أنفى.. أشم رائحة الصهد المنفلت من اللوزتين
الصغيرتين المتصلبتين فأدس الأنف فى الصدر أكثر.. تقول هامسة من بين
أسنانها:

- آه.. عفريت يا علىّ.. عارف كل حاجة.. اسمع يا سيدى الكلام.
- ولا يحلى الكلام إلا بذكر النبى العدنان عليه الصلاة والسلام:
- عليك أفضل صلاة وسلام يا نبى..
- إسمع يا سيدى:

كان ياما كان.. فى سالف العصر والأوان.. شيخ ولا أتقى منه فى كل الزمان.. أحبّ الله فأحبه الله.. فلم يرفض له طلبا مهما كان. وذات ليلة غلب النوم الشيخ فنام وأنساه الشيطان ذكر ربه والقيام لصلاة الفجر فأتاه الملاك الطاهر وهو نائم ولكزه لكزة خفيفة فى جنبه، فأيقظه فلم تفته الصلاة. اغتاز الشيطان غيظا عظيما وقرر الانتقام من الملاك الطاهر والشيخ معا.. فكيف سينتقم يا سيدى؟ تحدى الشيطان نفسه ودخل مع الملاك الطاهر فى رهان على إغواء الشيخ الورع وقبل الملاك الرهان. كان الملاك واثقا جدا من أن حب الشيخ لله سيحميه. لكن كما تعرف يا علىّ فإنّ الله الخالق شئونا فى خلقه لا نعرفها نحن البشر ولا نقف على الحكمة منها. أرد الله اختبار مدى إيمان الشيخ الطيب، فتركه للملاك والشيطان يتجاذبانه ليرى من منهما سينجح فى الفوز بقلب الشيخ. جرّب الشيطان مع الشيخ كل الحيل وأساليب الخداع ووسائل الغواية. عرض عليه المال فأبى فلم يكن الشيخ يحب المال. أقسم له الشيطان أنه سيوليه الملك ويمنحه مملكة عظيمة من الممالك لكن الشيخ قال للشيطان: إن الملك إلا لله. أتى الشيطان بجبال من الذهب اللامع البراق وألقى بها بين يديّ الشيخ فاستغفر الشيخ ربه وركل الذهب بقدميه، وصرخ فى الشيطان: إن النساء- وليس الرجال- هنّ من يعشقن الذهب يا مأفون فأنصرف عنى. سمع الشيطان كلمة "النساء" التى نطق بها الشيخ فقال

لنفسه: ليس أمامنا الآن إلا فتنة النساء. وهكذا يا على أحضر الشيطان
للشيخ العابد بنتا كفلقة القمر تراوده عن نفسه..

- يعنى إيه تراوده عن نفسه يا مريم؟

- اختشى يا واد واسمع وانت ساكت!

المهم يا سيدى.. ضحك الشيخ الذكى على الشيطان المغفل، وأخذ منه
البنت وتزوجها فى الحلال على سنة الله ورسوله، فاستشاط الشيطان من
الغضب، وشد شعر رأسه من شدة الغيظ.. ماذا تفعل يا شيطان.. ماذا تفعل
يا شيطان؟ قام عمل الشيطان إيه يا سيدى؟ لقد تذكر النبتة الشيطانية..
الحشيش يا على.. عارفه؟

- آه.. اللى ابوك الحاج فناوى بيحطّه فى الجوزة كل ليلة فى القهوة!

- عيب يا وله.. اسمع وانت ساكت!

تبسم مريم وتكمل: المهم يا سيدى- يا ما إنت- مدّ الشيطان يده، التى
تشبه أصابعها المذراة، ونزع من حديقته الشيطانية شتلة حشيش..

- يا مريم.. الحشيش موش نبات.. تقصدى الأفيون!

- يا سيدى موش مهم حشيش ولا أفيون ولا هباب حتى.. ها تسمع ولا
اسكت؟

- هاسمع.. هاسمع يا ستى.. ما تزعليش!

المهم يا سيدى إن الشيطان اللئيم تمكن من الضحك على الشيخ الغافل..
ودس له النبتة فى الطعام.. فداخ عقله.. وانقلب ميزانه.. وراح يهلوس..

- يا مريم بأسألك عن بيت العطارين تقولى لى حشيش وزفت؟

- والله يا على لو قاطعتنى تانى مانى مكملّة!

- طيب يا ستى طيب.. ما تزقيش!

- المهم يا سيدى.. الشيخ ده كان اسمه إيه ما سألتنيش؟
- آه صحيح.. كان اسمه إيه؟
- اسمه الشيخ العطار يا سيدى!
- آآآآآ.. علشان كده سموها سراية العطار؟
- وبرضك ما سألتنيش أهم سؤال.. إزاي ضحك الشيطان على الشيخ الزاهد بتاع ربنا؟
- آه .. إزاي يا مريم؟
- بالنسوان يا سيدى.. البنت المفعوة بنت الكلب اللي اتجوزها هي اللي غوته فى ليلة سوده من اياهم!
- ليلة سوده إزاي يعنى؟
- لما تكبر هاتعرف.. المهم خلى بالك من النسوان دايمًا يا على!
- يهمس على نفسه باسمًا: أمّا أكبر؟ والله باين عليك طيبة يا بنت العجوانى!
- لا تسمعه مريم وتكمل الحدوتة:
- المهم يا سيدى.. مرّة وراء مرّة.. أصبح الشيخ عبداً لتلك النبتة المؤذية.. فصار يطلبها ليل نهار.. فلما منعها عنه الشيطان الماكرجن جنونه وراح يخط رأسه فى الحائط من الألم.. ويتفتف من شفتيه.. ويضرب كل من يلقاه فى الطرقات.
- يعنى بقى مدمن يا مريم؟
- ما اعرفش.. روح اسأله!
- المهم يا سيدى .. أتى إليه الشيطان وعقد معه اتفاقاً؛ أعطك ما تشاء من النبتة بشرط أن تزرعها عندك فى البيت وتوزعها على الناس ببلاش.. وهكذا

أصبح الشيخ الطيب أكبر تاجر مخدرات فى زمانه.. وجمع ثروة تعجز عن حملها الجمال.. وتوارث أبناؤه مهنته من بعده.

- يعنى اللى موجودين دول تجار حشيش؟

- ما اعرفش.. روح اسألهم!

- طيب والسرداب والأوضه والناس العريانين؟

تتظر مريم إلى السماء فجأة فيتغير لونها.. وتغيم عيناها.. وتحمر وجنتاها.. ويرتعش جسدها.. وتتعرق فتبتل ثيابها من الرأس وحتى أطراف الأصابع.. كانت تتشنج كأن أحدا هناك- فوق- كان ينهرها ويزجرها فى غضب.. عرف على من نظرات عيني مريم أن الذى باغتها بالتهديد والوعيد كان الشيطان. ركبته الخوف.. فهرول هاربا!

كان بيت العطار مختلفا عن أى بيت من بيوت الحارة.. كان منزويا نائيا قابعا هناك فى نهاية الحارة.. وكان مشيدا من قرميد أحمر مطلّى بطلاء أبيض كالحليب.. وله باب ليس كأبواب بيوتنا الخشبية.. كان بابا من حديد ذى قضبان يكسوها زجاج سميك رسمت عليه خطوط متداخلة عاشق ومعشوق.. مغلقا ليلا ونهارا ويضعون حول أسياخه الحديدية سلاسل من الصلب حلقات فى حلقات.. ويربط السلاسل معا قفل نحاسى فى حجم الكف.. أصفر.. يلمع كلما زارته الشمس فيتوهج.

.. وللبيت الغامض حديقة غناء.. زرعوا بها كل أنواع شجر الفاكهة التى لم نعرفها فى حارتنا أبدا. وبالبيت كلاب مربوطة.. سوداء.. تراها تحسبها حميرا.. تنبح طوال الليل فيبلغ نباحها عنان السماء. البوابة لا تطل على الحارة بل على الشارع الكبير المؤدى للسوق.. وناس البيت ليسوا كناس الحارة!

الحاج شعبان أبو العينين العطار، صاحب البيت، كان أيضا صاحب الوكالة العامة، التى يفتح بابها هى الأخرى على شارع السوق.. والوكالة من طابقين يفصل بينهما سلم خشبى عريض الدرج.. وللحاج غرفة فى وكالته.. فسيحة باهرة الضوء نظيفة.. مفروشة بأفخم الأثاث.

تأتى القوافل من كل حذب وصوب محملة بالعطور والتوابل والأعشاب الغريبة والمعاجين المدفوسة فى صفائح مستطيلة التكوين.. والشاى والبن ومساحيق المشاريب. تأتية البضاعة من الهند والصين وصحراوات إفريقيا وبوادی الحجاز ومن أحواض الأنهار البعيدة.

للحاج العطار ثروة يقولون فى الحارة أنها تملأ أجولة لا حصر لها.. بل ويقولون أن له سراديب محفورة تحت القصر يملؤها الذهب والفضة والمعادن النفيسة تمتد من الأرض حتى الأسقف.. وأمام البيت تراصت سيارات لا حصر لها. كان بيتا ليله نهار ونهاره ليل من كثرة الحفلات والأفراح وليالى الأُنس الصاخبة.

وكان أهل الحارة قلما يرون الحاج العطار.. اللهم فى بعض أيام الجمع، حيث كان يأتى للصلاة فى الجامع الكبير. تركبنا الدهشة حين نرى الشيخ عبد المولى شيخ المسجد- الذى اعتادت الحارة تقبيل يده الشريفة كلما رأته- ينحنى انحناءة كأنها السجود، فيلثم يد الحاج الممدودة إليه، فلا يستردها الحاج إلا ولعاب الشيخ يغرق ظهرها.

جاء لقاء علىّ وعلاء ابن الحاج العطار الأصغر من زوجته الجديدة بالصدفة المحضة. القليلون منا نحن أبناء الحارة من كانوا يعرفون هذا العلاء.. كنا نسميه " الواد الطرى بتاع مصر!" كان نحيفا، أبيض البشرة، ناعم الشعر أصهبه.. وأزرق العينين كأبناء الإنجليز.. وثيابه مختلفة عن ثيابنا كلنا. لا بيجاما مقلمة.. ولا جلبابا.. ولا قدما حافية مشققة يملأ شقوقها الطين.. بل قمصانا قطنية محبوكة الالتفاف حول جسده الرقيق.. صاعقة الألوان زاهية يسمونها عندهم "البلوزة".. وبنطالات قصيرة تصل إلى ما فوق الركبتين.. فتضغط الفخذين.. يسمونها عندهم " الشورت".

اللقاء تم بعد صلاة الجمعة.. تجمع الناس حول الحاج الفارع الطول المهيب القسمات ورحوا يتناوبون تقبيل يده البضة المشعرة المتروكة فى استرخاء عن عمد لمن أراد التقبيل أو رغب فى التعارف. كان بصحبة الحاج ابنه الاصغر.. وجاء الدور علىّ علىّ فلم يقبل اليد بل صافحها فحسب ثم

أفلتها بإهمال. "لا تقبيل للأيدى أبدا يا ابن الكلب.. مفهوم؟".. هكذا علّمه أبوه وهكذا دائما يفعل.. ويد الحاج ليست أفضل من بقية الأيادي.

- بوس إيدين ابوك الحاج يا جزمة!

- أبويا قال لى ما تبوشش إيد حد!

ينهره عبد المولى.. ويريد أن ينقض عليه.. فيوقفه الرجل الطويل بإشارة

من يده.. ويبتسم.. ويلف يده حول كتفى الصبى فى حنان:

- انت اسمك إيه يا حبيبى؟

- على!

- ما بتجيش تلعب مع علاء فى السراية ليه يا على؟

- علاء مين ده؟

- ابنى .. تعال يا علاء سلّم على صاحبك!

يسارع الشيخ عبد المولى.. فيحوّل مدعيا الاستكثار.. ويهتف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. عشنا وشفنا والله.. يا سعادة الباشا ما

يصحش!

- اسكت انت يا عبد المولى.. سلّم يا علاء!

تعجب علىّ من ملمس اليد، وراح يمتصّ الطفل المعجزة بعينيه. عند

عتبة الجامع- ونحن نلبس المداس- كان علىّ قد لاحظ أن الصبى لا يرتدى

زنوبة" بالية مقطعة السيور فذرة كالتى يرتديها هو. كان الولد يرتدى حذاء

جلديا لامعا وجوربا طويلا يصل إلى الركبتين اللتين يعلوهما الشورت

القصير. التقت اليد المعروقة المغطاة بالقشف والشقوق باليد الرخصة الناعمة

الملمس.. فبدأت علاقة لن ينسى علىّ ذكرها لزمّن طويل.

مالم تتفوه به مريم لى عن "سرايا العطارين" - خوفا من الشيطان الذى
ألجم لسانها- اقتادنى الشيطان نفسه من يدى.. فأرانيه!

كنت قد اعتدت، ساعة أن يهبط الليل باسطا جناحيه المظلمين على
الحارة، التسلل إلى الكوة الضيقة فى السور المنيع.. أنحسر.. فأتسلل..
فأزحف.. فأكون فى الحديقة الغنّاء.. أخطو إلى الأجمة خائفا أتلفت.. أدور
حولها.. أجسّ الأرض بقدمى .. أبحث عن الحفرة إياها.. تلك المغطاة
بالعشب.. أسيب نفسى لها فتأخذنى الحفرة للسرداب.. فيسلمنى السرداب
للغرفة.. أنحنى.. أزقّ الباب.. فأكون هناك.. فى غرفة العرايا المبقورة بطونهم
وحول البطون أربطة سميكة.

يصرخ فى المسجونون داخل أقفاصهم الزجاجية.. فلا يهزنى صراخهم
وقد عهدته.. أنظر إليهم بتمعن وأضحك.. فيزداد الغلّ فى محاجر الأعين
التي نرعت.. ها هو باب ثان.. فلنتوكل على الله وندخل.. لا يفتح الباب
فأعيد المحاولة من جديد بلا جدوى.. فيهزنى هتاف القادم من خلفى:

- اتركه لى يا على.. سأفتحه أنا لك!

ألتفت فأراه.. من هذا الجميل الذى لا جميل مثله؟.. بهاء ما بعده بهاء..
وعينان يشع منهما السحرو بشرة بيضاء مشوبة بالاحمرار.. وابتسامة تضىء
الوجه بشارب صغير اهتم به صاحبه بعناية.. وعباءة شفافة من نور تكشف
عن جسد كأنه البلور.. والشعر منسدل على الكتفين صانعا حلقة من الجلال.
أرى هالة من الضوء تحيط بوجه كأنه القمر!

- بالله عليك.. من أنت يا سيدى الجليل؟

- ألا تعرفنى يا على وأنا الذى أزورك كل يوم فى منامك؟

- لآ.. موش واخذ بالى!
 - أنا شيطان مريم يا على!
 - شيطان؟ وهل للشياطين هذا الجمال؟
 - ألا تعلم يا حبيب مريم أن الكثيرين حولك يرتدون ثياب الملائكة وما هم إلا شياطين أبناء شياطين؟ هيا تعال معى!
- دفع الشيطان الجميل الباب دفعة خفيفة بيده، فانفتح. يسبقنى فأدخل فيغشاني الضوء الساطع، وبعد قليل أنظر.. فأرى نساء كالحوريات.. عاريات.. ورجالا هم والمهابة شىء واحد.. أجلاء وعرايا.. افترشوا السجاجيد الحمر. و وسطهم الحاج الذى صلى الجمعة معنا قبل قليل.. الحاج العطار كان مثلهم؛ عاريا. يرونى فيشيرون أن اقترب فأقترب.. أجلس فتأتى الجلسة بجوار العطار الذى يمد لى يده بالكأس فأشرب، فأدوخ وأترنج من حلوة الكأس، ويبدأ المنشدون فى الإنشاد.. تراتيل لا أفهمها وأشعار وأحاجى وهمهمات مبهمه يسيل لها اللعاب.. ضربات صاجات وموسيقى صاخبة وطبول.

تسكت الموسيقى فجأة فتدخل عصابة من العبيد السود يسحبون خلفهم ثلة من الرجال المعصوبى الأعين، مسلسلين بالحبال، فى أرجلهم وآياديهم أغلال من حديد. كانوا عشرة. يطرحهم العبيد أرضا على ظهورهم، ويكبسون أفواههم بالجير الحى، ثم يسكبون فى الأفوه الماء، فينبعث بخار الجير من الأنوف المحترقة. يومىء كبير العبيد إلى الحاج العطار فينهض نشيطا مبتهجا مملوءا بالحماس والنشوة. يلقي إليه كبير العبيد بسكين كالسيف ذى حدين وبه شفرتان، كل شفرة فى حجم شعرة. يميل العطار على أضخم الرجال المطروحين أرضا، ويقبض الشىء الذى بين الفخذين باليد اليسرى، ينظر

الحاج للعبد، فيهز هذا رأسه فى تصميم. وفى لحظة كالبرق يقطع العطار بيمينه الشئ الذى بين الفخذين، ويقذف به إلى السماء التى اهتزت من صرخة الألم للرجل المقطوعة رجولته تواء، فيطير العبد الهائج كالنور ويلتقطه بمهارة. يترك الحاج السيف ويمسك بخرقه نظيفة يمسح بها يديه ووجهه من آثار الدماء، ويركع على الأرض باكياً يهمس:

"السماح يا صاحب السماح"، ثم يصرخ فى العبيد: أكملوا!

.. ينفرد كل عبد بواحد من الرجال، فيأخذ فى تقطيع أجزائه القطعة تلو القطعة. يجمعون الأعضاء فى صندوق صغير من زجاج معبأ بالثلج والرائحة. كانوا يبدؤون بالأجزاء التى بين الأفخاذ، فيعالجونها بنشارة الخشب والنوشادر لامتصاص الدم الراشح منها، ثم يقومون برصّها معا فى ركن من الأركان. يميل الشيطان على أذن على ويدمدم:

- تلك يا علىّ أغلى بضاعة الحاج العطار سعرا!

يتعجب الصبى فيتابع العبيد بقر البطون واستخراج الأحشاء والأكباد، ويهمس الشيطان:

- يا علىّ.. هذا كبد.. وتلك كلية.. وذاك قلب مازال ينبض.. أما هذه

فمخاصى.. وهذا مخ .. إن الطلب على مساحيق الأمخاخ زائد هذه

الأيام! أفغر فمى.. أرتعد.. فأسأل الشيطان:

- وماذا يفعلون بتلك الأجزاء التى اقتطعوها؟

- يصحنونها مساحيق!

- وفيم تستخدم المساحيق؟

- لها فوائد جمّة.. بعضها يطيل العمر.. وبعضها يعالج العلل

النادرة..

وبعضها يعدل المزاج المعكّر .. وبعضها يزيل الهمّ .. وبعضها يطيل الشهوة .. وبعضها يجذب النساء إلى الرجال كالذباب .. إن لكل مسحوق غرضا يا على!

ينتهى حفل التمزيق الدامى، فيحمل العبيد الصناديق ثم ينهض الحاج من جديد، فيرتدى فى كفيه جوربين من الجلد البشرى الشفاف، ويميل فوق الرجال المقطعة أجسادهم، ينزع من أفواههم كتلة الجير بخرقه من القطن مبللة بسائل أبيض شفاف، ثم يقطر فى كل فم قطرات معدودات من زجاجة صغيرة بها سائل أحمر، فينهضون فى نشاط يرقصون ويتقافزون، ويرددون الأناشيد نفسها التى سمع علىّ المنشدين ينشدونها منذ قليل. يصفّق لهم الحاج العطار فيصطفون، ويتقدمون إليه فى خشوع، يسجدون أمامه، ويهمسون:

- بأمر مولانا أتينا وبأمر مولانا ننصرف!

يصرخ الحاج متأففا وقد سئم:

- هيا امضوا!

يهرولون باتجاه الغرفة المجاورة، فيتخير كل واحد منهم قفصا يدخل إليه، وتتغلق الصناديق .. فينضمون إلى بقية العرايا المحبوسين .. وتتطفئ الأنوار .. وأسأل أنا الشيطان:

- كيف ماتوا وبقرت بطونهم .. ثم عادوا للحياة من جديد؟

- أعادهم هذا السائل الذى سقاه الحاج لهم!

- وما هذا السائل؟

- هو ماء مقطر من عصارة الأوهام النضرة والآمال الضائعة

والأكاذيب المحبوكة بمهارة شديدة من السادة يا علىّ

- وفيم يريدون هؤلاء الأموات الأحياء وقد سلبوا منهم أعضاءهم؟

- غدا ستنتبث لهم أعضاء جديدة يا على!
- كيف يعنى؟
- قل لى يا على.. ألا يسلبك أبوك حياتك وهناء نفسك وأمان روحك كل ليلة.. ثم فى الغد التالى تعود لك الحياة؟

الفصل الثالث عشر

درب الآلام

"وهل جرّبت ألم استلاب الأعراض يا على؟
ذاك ألم لن تعرفه يا فتى.. فتابع فى صمت وأنت ساكت!"

٣٩

يرانى الحاج العطار تائها أخطب بين الغرف العديدة فى القبو المظلم
الكبير وقد ضاع منى الباب.. فيلكزنى بكوعه بلطف فى صدرى وبيتسم
ابتنسامة المحبين:

- يوما.. سيقّتلّك فضولك يا على!
 - قلت- وقد غمرتتى دفقة حب مباغته للرجل:
 - بالفضول أم بدونه.. ألسنا جميعا قتلى يا عم الحاج؟
 - يستلمح الحاج مقولتى.. فينتشى ويهز رأسه.. وينظر فى عينيّ باستغراب:
 - أنت تقرأ كثيرا إذن يا على؟
 - نعم يا حاج.. ففى القراءة بلسم روحى ودواء جروحى!
 - تحتضن كفه العملاقة الخشنة المشعرة كفى الصغيرة المرتعشة رعبا..
 - وكيف لا ترعبنى اليد التى رأيتها قبل قليل تذبح فلا ترفق.. وتوغل فى
الدماء؟ يقرأ الرجل أفكارى فيزجر بغير غضب:
 - هيه يا على.. ألم تقل قبل قليل إننا كلنا قتلى ؟
- قلت:

- لكن القتل فعل مذموم وإِجرام غير مبرر يا عم الحاج!

يهتف غاضبا:

- ليس دائما يا بنى .. فلا تتعجل الحكم.. واعلم أن فى القتل حياة

للكتيرين.. لكنك مازلت بعد صغيرا!

يرانى غير مبال، وغير هاضم لكلامه، فيغلق عينيه، فكأنه يمارس طقسا من الطقوس السرية، أو كأنه يراجع نفسه، أو كأنه فى حيرة من يرغب فى اتخاذ قرار لكنه لا يستطيع. يزم شفثيه.. ويفتح عينيه على اتساعهما وقد اهتدى أخيرا إلى القرار .. همس لنفسه: حسنا سوف أخوض المغامرة وليكن ما يكون!

قلت وقد سمعته:

- عن أى مغامرة نتحدث يا حاج؟

قال وقد ركبه الضيق .. ذلك الضيق الذى يعقب اتخاذ القرارات العويصة:

- إسمع يا على.. لقد انفتح قلبى لك.. ومن يحبه قلبى أكشف له

الأسرار.. هل تعرف كم نوعا من القتل عرف الإنسان مذ خلق الله

الإنسان ؟

- ومن أدرانى؟

- ألف نوع ونوع يا على! ألم تسمعهم يقولون.. القتل عشقا.. والقتل

حبا.. والقتل غرقا فى عيون المحبين؟ ذاك أجمل أنواع القتل يا

على.. أن يقتلك عشق الحبيب فتذوب فكأنك لم تكن.. وثمة ألف

نوع أخرى.. أقساها القتل ألما.. ألا فلتعلم أن آلامك من صفعات

أبيك ما هى إلا "بروفة" لحياة مائجة ستخوض

غمارها وتعرف فوائدها وتجنّى ثمارها فيما بعد. الألم حياة أخرى للإنسان
يا علىّ.. وفى القتل- بالألم- حياة أيضا. تعال معى الآن.. سأخذك إلى دنيا
الألم لتراه وتصافحه وتعانقه وتصادقه فيصادقك.. لكننى لا أحسبك تقوى فى
سنة تلك على "فصدة الألم" يا علىّ!

أستفسر متعجبا:

- وما "فصدة الألم" يا حاج؟
- تعال.. فسوف أريكها.. وإن كنت أشفق عليك من تجربتها.. ولا أرى
مريم تسامحنى إن أنا أذقتكها!
- تقول مريم؟ وهل تعرف أنت مريم؟
- يخشع الحاج بعينيه إلى الأرض.. ويهمس كمن يصلى:
- مريم ستى وتاج رأسى يا علىّ.. فهيا بنا!
- أمشى مع الحاج.. تبتلعنا الظلمة فترمينا إلى ظلمة أخرى.. أتعثر
فينهضنى الحاج ويضحك:
- درب الآلام مفروش بالشوك يا عم علىّ.. فتجلّد.. وإياك أن تحسب
أن الحياة لعبة سهلة.. الحياة عناء مقيم.. وفى هذا العناء جمالها!
أصطدم بجدار مصنوع من جماجم فيسيل الدم من رأسى ويغرق عينيّ..
يضحك الحاج.. ويمد يده يمسح دمي بأصابعه.. ثم يدس الأصابع العملاقة
المغموسة بالدم فى فمه فيمتص الدم ويهمس فرحانا:
- الدم عنوان الحقيقة الكاملة فى حياتنا يا علىّ فالعق- كلما
استطعت- دماك تجد اللذة التامة!
- أشعر بالغضب يتسرب إلى روحي.. بماذا يهذى هذا الرجل؟

تقفز فوقنا من الظلام كلاب سود مسعورة هبطت علينا من الوديان
السحيقة فأرتجف رعبا.. ويتجلط الدم فى عروقى.. أنا الذى أموت كل يوم
فى الحارة خوفا من نهش الكلاب.. فينقذنى الحاج من براثنها بصرخة من
فمه.. ثم يضحك:

- إناث الكلاب تهواك يا على.. شممت فى ظهرك رائحة الرجولة
المبكرة فأتت تلهث خلف رائحة ماء الرجولة المتوثب للانفجار..
إناث الكلاب- كما إناث الإنس والجن- تموت عشقا فى الرجال
الحقيقيين!

أعثر فى زجاج مبشور منشور كالدّر حاد الشفرات فتتورم قدمائى..
فيستحشى الحاج مشجعا:

- إصبر يا على.. فما أورام قدميك إلا بشارة الوصول.. وها قد اقتربنا
فلم يبق لك سوى ابتلاء واحد.

ما كاد ينهى عبارته حتى شعرنا بالأرض تميد تحت أقدامنا.. فنتهار..
فأهوى إلى جب سحيق القرار يخنق الأنفاس.. ينشع برائحة عفن الميتين..
فيهمس لى الحاج:

- تلك قبورنا يا على.. وهذا قبر أمك.. ألسنت تحب القبور؟
نمشى بين القبور، فيدفعنى الحاج- ويدخل معى- إلى فوهة قبر مظلم
مملوء بالديدان.

- هل ترى هذا الدود يا بنى؟ نحن من الدود وإليه يا على.. كلنا فى
الأصل دود..

بداياتنا دود متهاهى الصغر فى ظهور آبائنا.. وسننتهى دودا كالذى
يزحف فوق

وجهك الآن!

أرغب فى الصراخ فينحشر الصمت فى حلقى يمنعى.. وأرى الأموات يتحركون.. جماجم فارغة الحدقات.. أيادى وأرجل.. وأعناق لا رؤوس لها.. ورعوسا بلا أعناق.. وأثناء زرقاء ينبجس منها لبن الرضاع أنهارا.. وفروجا تبخّ فى وجهينا دماء حيض صدئة الرائحة.. وعظاما تتطاير من حولى فى كل اتجاه فتصدم رأسى وعينى وجبينى.. أتالم فيقرصنى الحاج محذرا:

- إياك والصراخ هنا.. إياك أن توقظ الراقدين فى قيعان الجحيم.. سيأكلونك ويأكلوننى معك.. سيلتهمونا فى ظلمة الصمت التهاما فأمسك عليك صراخك!

نتدحرج- هو وأنا- فنبلع دربا كله بخار أزرق.. نغرق فى البخار.. فينسب جسمانا فى الهواء كريشتين تافهتين.. أشعر بالاختناق وينفجر الألم فى صدرى.. أكاد أتمزق ألما.. فيهزنى الحاج ويتمتم:

- هذا ألم المتصعدين فى السماء يأسا من رحمة الرحمن.. ألم اليأس من رحمة الله من أفضع الآلام يا على.. فهل كنت تدرى أن ذلك نوع من القتل يضاف إلى بقية الأنواع؟

.. يزق الحاج فرحا.. ويصفق بيديه.. ويدور حول نفسه فى حلقات

كحلقات المبتهلين:

- بلغنا المراد.. ها قد بلغنا المراد.. فهنيئا لك ولوج درب الآلام الذى لم يلجه من قبلك أحد!

نخرج.. فيتلقفنا بستان فسيح الجنبات على غير انتظار.. بستان غارق فى الألوان وفيه كل أنواع الشجر.. أشجار تجردت من أوراقها، فتعلقت بها نساء من شعورهن المسترسلة المعقودة فى عقد كعقد الآلام الخالدة. راحت

النسوة يتمايلن برؤوسهن يمينا ويسارا ناظرات إلينا، ويقذفن بأعينهن فى روحينا ربح الشبق المبرح.. يميل الحاج على أذنى ويتمتم:

- أتدرى يا علىّ من هؤلاء؟ إنهن العاشقات حراما عشقا لا يرتوى للأبد.. خائنات لكنهن عاشقات.. قتلن العشق للارتواء وللعرشة المستحيلة.. طماعات لم يكتفين بذكر واحد. ألا فلتعلم يا علىّ أن طمع العشق أسوأ أنواع الطمع ومنجم كل الآلام..

شبقهن الدامى أوردهن موارد التهلكة.. ألمهن يا علىّ ألمان؛ ألم الاشتياق الذى لا يعرف الشبع.. وألم الحرمان والجوع الأبدى.. وذلك- لعمري- أقسى مسالك الألم!

يرمى الحاج عينيه- فجأة- إلى إحدى الشجرات الباسقات المنتشرة الورق.. ويشير إلى وجه حزين جميل مشنوق من خصلات شعره.. ويهمس:

- أتعرف من هذه يا علىّ؟
- يا رب العالمين فى الأعلى.. رحمتك يا ربى.. إنها مريم يا عم الحاج! يضحك الحاج ضحكا مدويا من دهشتى.. يقرصنى فى أسفل منى:

- ألم تكن تعرف يا غشيم أن مريم- هى الأخرى- غرقت فى بحور اللذة حتى أخمص قدميها؟ ألم تكن تعرف أن "مريمك" سباحة ماهرة لا ترتوى أبدا من ألم الرغبة والحرمان.. أنت أيضا ستعانى هذا الألم يا علىّ فلا تك من اللائمين!

.. ونمضى.. فيأخذنى الحاج إلى أجمة كثيفة من الشجر المتشابك الفروع الخضراء الياضعة التى تشع أزهارها بياضا يخطف الأبصار.. فنرى رجالا

انفصلت رؤوسهم عن الأجساد فلا يربط بين الاثنين - الرأس والجسد - سوى شريان أزرق يقطر دماء حمراء.. أتعجب فأسأل:

- ومن هؤلاء يا عم الحاج؟
- إنهم صرعى الطموح يا على.. إن المرء ممّا يظل يطمح ويطمح حتى يقتله طموحه.. ألا فلتعلم يا على أن ألم الطموح سمّ زعاف يحرق الروح فتستحيل الروح معه إلى رماد حارق يظل يلسعك كالنار. أنت أيضا يا على ستعرف يوما آلام الطموح.. وستجلس ولعابك سائل فوق صدرك تترقب.. ثم ستري دموعك تتسال على صدغيك من الألم..وغدا سوف ترى.. فتذكرنى آنذاك يا بنى!
.. ندخل مغارة خلف الأجمة الوارقة.. فنسمع العويل.. فتصطك أسناني من شدة الذعر. يربت الحاج على كتفى بحنان ثم يبتسم:

- لا تخف.. فأنت فى حضرتى.. ولا تنسى أنك حبيب مريم!
ننظر فنرى نساء لهن وجوه كالأقمار فى ليال التمام.. كل واحدة منهن كبدر البدور.. عاريات إلّا من أثواب شفيفة التفت حول أجسادهن مصنوعة من دموع بلورية كاللؤلؤ المنثور.. كانت جداول الدمع تفيض على الوجنات البضة شديدة الاحمرار.. وتجرى.. فتصل إلى أكفنا.. وحينئذ رأيت الحاج قد همّ بالوضوء.. كان يتوضأ بالدموع!

- ماذا تفعل يا عم الحاج؟
- هيا يا على شمرّ ساعديك وتوضأ معى..
- نتوضأ بدمع النساء؟

ألا فلتعلم يا على أن هذا أطهر ماء فى الوجود.. هذا يا على ماء دمع الفراق!

- فمن هؤلاء النسوة إذن؟
- هنّ ضحايا فراق الأحباب.. فمنهن من فقدت ابناً أو ابنة.. والتي فقدت أبا أو شقيقاً.. و اللاتي فقدن الأزواج.. وأطهرهن تلك التي فقدت الحبيب! يا علىّ إن ألم الفراق أنبل أنواع الألم.. وأشدّها عذاباً.. هيا يا علىّ هيا.. توضاً معي.. فذاك وضوء لن تنساه ما حبيت.
- أهمّ بالاغتيال.. فأرى بين الباقيات مريم وقد هزت سبابتها لى بعلامة الرفض.. تنظر إلىّ فى غضب.. فأقرأ عينيها- وهل يقرأ عينيّ مريم مثل علىّ!- فتقول لى العيان:
- إعلم يا علىّ أنك لو توضأت الآن.. فسوف تفارق كل محبيك.. وهذا ألم لن تحتمله أبداً فابتعد.. قلت لك ابتعد!
- ابتعدت.. فإذا قدماى تقوداننى إلى " المذبح"!
- يلكننى الحاج.. فألتفت إليه.. فيودّعنى ملّوحاً بيديه.. يغادرنى قائلاً:
- يا علىّ.. تلك تجربة لك وحدك.. عشنا بكل ما فيها.. فلن يساعذك أحد.. أنت وما سيمليه عليك ضميرك.. وما تتجلى به روحك عليك.. وما ستجود به عليك شجاعتك وبراءة نفسك.. عشنا يا علىّ.. وسوف ألقاك خلف هذا الوادى!
- " المذبح".. قاعة عظيمة الاتساع.. أنظر إلى ركن من الأركان الكثيرة بالقاعة فأرى رجالاً مهيبين حليقى الرؤوس.. ويقبضون على قطع من الجمر المستعر.. يحرق الجمر أيادهم فيسارعون إلى إلقاء الجمر إلى حلقهم فتحترق الحلق.. ويبلعون.. أراهم يقتربون من الجدار المرشوقة فيه سكاكين حادة فيخبطون الرؤوس فى السكاكين.. يغرق الدم رعوسهم المشجوجة فيطرش

الدم على ملابسى.. يتوجهون بأبصارهم نحو السماء ويصرخون فى صوت واحد:

بل نحن المحرومون.. بل نحن المحرومون!

من هؤلاء يا ترى؟ أسأل نفسى فيجاوبنى صدى أصواتهم الهاتفة:

نحن الذين سرقنا آمال الآخرين ونسبناها إلى أنفسنا.. وها نحن ندفع ثمن

المصادرة.. ونعانى آلام الندم! ألا ما أقسى على الروح ألم الندم!

يهزنى صوت معريد جبار قادم من الفراغ.. عرفت فيه صوت مريم:

- يا على.. ألا فلتعلم أن هؤلاء المجرمين ارتدوا ثوب المهابة فسرقوا

عرق الآخرين.. عاشوا هم فى هنائهم الحرام.. وتركوا الآخرين

يتجرعون آلام المهانة والضعة.. فإياك إياك والظلم يا على!

أبحث عن مريم التى فى السماء.. فأراها وفى يدها حرية من نار انتزعتها

من مخازن الجحيم.. كانت ترفع الحرية ثم تهوى بها إلى صدر كل سارق

للأحلام.. تتزع مريم الحرية من صدر الواحد منهم فتغمدها فى صدر

الآخر.. ترسل إلى عينا مريم بالرسالة التالية:

" إعلم يا على أن أبأس أنواع الألم ألمك وأنت يسرق الآخرون حلمك

منك..

وهاهم الأفاقون يشربون من الكأس نفسها التى أذاقوا منها البائسين.. ألم

نشل الأحلام يا على ألم مبرح.. فليتك تتوقاه فى حياتك المديدة المقبلة!"

يسمعها الخابطون رعوسهم فى الحائط.. فيلتفتون نحوى ويروننى..

يسيرون فى اتجاهى.. يتملكنى الرعب فأنوى الهروب.. فيأتينى صوت مريم:

- لا ترتعب منهم يا على.. فأنت طاهر الروح.. ولم تسرق أحلام

أحد.. قف وواجههم يا حبيبى فلن يمسوك بسوء..

يقترب الواحد من لصوص الأحلام منى.. فيمد يديه إلى عنقى يريد
خلقى.. وقبل بلوغ العنق.. تنهشم اليدان.. تدويان.. تصيران ترابا تذروه
الريح.. أصمد فينقشعون الواحد تلو الآخر وخلف كل واحد منهم خط من
أشلاء الأحلام التي سرقوها.. تنتظر الأحلام نحوى وتبتسم!

أخرج من الباب.. وقد هدنى الإرهاق والتعب.. فألقى الحاج فى انتظارى
لدى الباب.. يحتضنى مبتهجا.. ويزغرد من الفرحة:

حمدا لله على سلامتك يا على.. كنت أعرف أنك ستمر من التجربة
بنجاح.. ألا فلتعلم يا على أنه ما من بشر سواك دخل غرفة لصوص الأحلام
هذه وراح سليما.. كم أنا سعيد بنجاتك يا بطل.. سارقو الأحلام هؤلاء يا على
هم شرّ البرية.. تراهم تحسبهم أطهارا فإذا هم أخس المتأمرين.. هيا يا على
سأصحبك الآن إلى قاعة ناهشى الأعراض.. ولسوف ترى العجب العجاب..
فاضبط أعصابك يا فتى!

يد الحاج.. القاتلة الدموية القاسية المشعرة المتحجرة القلب والمشاعر..
صارت الآن يدا من حنان وأمان وسلام وحكمة.. ومبعثا للسكينة والطمأنينة
والاسترخاء. تغيّر معنى القتل فى ذهن على فلم يعد ير ما كان يعتقد من
قبل.

تقتادنى يد الحاج الفولاذية المظهر - الحريية القلب والوجدان - إلى غرفة
أخرى من غرف القيو العجيب تحت سراية العطار.. يمد الحاج يده الخبيرة
فيضغط بطن الحائط فيتلاشى الظلام المخيم وينبعث الضوء المزغرد فى كل
اتجاه.. فأرانى فى لجة عظيمة من نور وبهاء:

سترى الآن يا على ما لم تر عين قبل عينك.. فتأهّب وتماسك.. وحذار
أن تحكم قبل أن تفهم.. إن آفتنا يا على أننا نتعجل دائما فى الأحكام!

الحوائط الأربع للغرفة احتشدت فوقها مشاجب خطافية من حديد مطلى
بماء الذهب.. ومن هلال كل مشجب تدلت خيوط رفيعة جدا ناعمة قوية
كالقولاذ.. لا يكاد الرائي يراها إلا إذا هو دقق النظر بإمعان.. وفي نهاية كل
خيوط تعلّق عضو ذكرى بشرى ومعه مشتملاته والإكسسوار.. كنت ترى كيسا
فى حجم قبضة اليد من جلد آدمى ناعم هفهاف أملس تتخلله خيوط زرقاء
واهية متناهية الدقة كشعرة.. فكانها عروق.

.. والكيس مشقوق إلى شقين.. تتدلى من كل شق غدة لحمية لوزية
الشكل حمراء دامية.. تتساقط منها بين الحين والحين دفقات من سائل فوار
لا لون له شبه شفاف. أصيخ السمع.. فأتسمّع.. فأسمع صوت ارتطام دفقات
الماء الشفيف بأرضية الغرفة المصنوعة من الخشب البنى اللون.

آلاف" الأيور" علقت فوق الحائط. أهبط بعينى إلى مساقط الماء على
الارض فأرى عجبا.

رجال علت وجوههم صفرة الموت.. فلا هم بالموتى ولا هم بالأحياء..
كانوا يتأوهون فى وهن. تزحف عيناى قليلا فتتوقفان عند منابت الأفخاذ.. ما
هذا؟ لقد نزعوا آلات رجولتهم وكبسوا مكانها نحاسا مصهورا يوقف نزيف الدم
المتفجر. أتساءل: هل أراد نازع الأيور أن يظل هؤلاء المبتورون فى حالة ألم
مستديم ولا يموتون؟

أنتقل بعينى بين الأعضاء المعلقة فوق الحوائط ومنابت أفخاذ المتألمين..
أحاول تخيل ما كان عليه هؤلاء الرجال قبل تعرضهم للبتر.
تلمس كنتى يد ناعمة بضة بيضاء كالشمع.. فأخالها يد مريم.. يبيتسم لى
طيف مريم ويهمس:

- تسائل نفسك يا على لماذا البتر البشع.. وكيف تم؟

- آه.. فمن هؤلاء يا مريم؟

- هم لصوص الأعراض يا على!

أستدير لأراها.. فلا أراها.. وأرى الحاج يشير لى أن اتبعنى.. فأتبعه صامتا.

نسير بحذر فتدهس أقدامنا بطون المقعيين المبتورين المتألمين.. ينظرون إلينا بعيون ذليلة نصف مغلقة وأفواه تكز فيها الأسنان ألما فتحدث ضجيجا كضجيج الطحن.. لا يتكلمون.. وكيف يتكلمون؟

يفتح الحاج بابا زجاجيا جرارا يجرى على عجلات صغيرة.. ثم ندلف فأصرخ رغما عنى.. وتندفع كفاى لا إراديا إلى عينيّ أغلقهما.. فقد كان المشهد لا يطاق.

طاولة من خشب رث متآكل الحواف خشن الملمس.. وكأن الطاولة قطعة شجر جزّوها بلا اهتمام فرموها فى وسط الغرفة.. تقف الطاولة على أرجل متضخمة فى غير انتظام بدت كأرجل أفيال مشت أميالا تبحث عن الماء وتشققت.. طاولة بدائية الصنع وحشية الهيئة مرعبة.

فوق الطاولة رقد رجل مفتوح الذراعين والساقين على اتساعهما وقد ربطوا عنقه برباط مطاطى أسود موصول بطبلية الطاولة.. وتعمدوا ترك العينين حرتين كى تريا ما سوف يحقق بصاحبها بعد قليل.

أنظر.. فأرى عبيدين جبارين عابسى الوجهين والسحنة.. أتيا وفى يد كل منهما سكين متوسط الحجم حاد الشفرتين ولقافة من خيط من حرير. يتقدم العبدان اللذان تبلغ رأساهما السقف من الحاج.. فيسجدان أمامه.. فيحرك الحاج رأسه يمنحهما الإذن بالبداء.. أصرخ فى الحاج.

- لماذا يا حاج؟

يزجرنى فى غضب كظيم:

- شاهد وأنت ساكت يا ولد!

يدنو أحد العبدین من الرجل بشكل آلى محفوظ.. فيقتطع جزءا من لفافة الخيط الحرير الأملس.. فيربط كيس الرجل المتدلى بين الفخذين بالخيط بإحكام ثم يشد طرفى الخيط ببطء.. ينخق كيس الرجولة الذكورى فيتغير لونه من الأحمر إلى الأزرق.. ويأخذ الكيس فى الذبول. يعصر العبد الكيس فينبثق منه سائل شفاف يجمعه العبد فى قنينة بكل حرص.. ثم يلقى بالقنينة إلى الحاج فيتلفقها الحاج بمهارة.. يشد العبد الخيط بعنف مبالغت تجعل المنطرح على الطاولة يصرخ صراخا تهتز له السماء والأرض والجبال.. فأصرخ أنا أيضا من شدة الرعب وأريد أن أسقط فيسندنى الحاج.. ويمرر تحت أنفى قنينة من سائل أصفر ينعشنى فأستفيق ولا يزول الرعب.. أهتف مذعورا:

- ما كل هذه الوحشية يا عطار.. هذا ألم لا يطيقه إنس ولا جان؟

يبتسم الحاج.. ويغمز لى بعين واحدة فكأن كل ما يجرى لم يحرك فيه ساكنا.. ويهمس:

- وهل جربت أن يعتدى على عرضك معتد يا على؟ ألم استلاب

الأعراض ألم لن تعرفه أبدا يا فتى.. فتابع وأنت ساكت!

يقترّب العبد الآخر فيقرّب السكين من أنف المسحول على الطاولة متعمدا أن يشم المسحول رائحة السكين البتار.. ثم يمرره تحت عينيه ليرى عذابه القادم قبل أن يقع. يسحب العبد السكين ببطء حتى يبلغ عصا الرجولة النائمة فى استرخاء فوق مخدة الفخذ المنتفض من الخوف.. ويبدأ فى البتر ببطء مميت!

لا تسعفنى روحى لأرى عملية القطع.. ولا يطاوعنى صبرى لأسمع
الصرخة القاتلة فأغيب عن الوعي. أصحو فأرانى فوق فراش وثير وقد
دثرونى بمفارش عديدة مطوية.. أرتعد من الحمى.. فيرنو إلى الحاج بإشفاق
وعطف ويتمتم:

- أعرف أنها تجربة قاسية عليك.. مؤلمة ومرعبة يا على.. لكن اعلم
أن ألم استلاب أعراض الناس أكثر إيلاما من ذلك الألم الذى
رأيت.. إن لكل جريمة عقابا يا على ولو كان مؤجلا.. فإياك إياك
وانتهاك الأعراض.. هيا نم قليلا الآن.. فغدا تزول الحمى.. وغدا
ستدخل اختبارا آخر فاستعد يا بطل!

قبل أن يستغرقنى النوم.. أسمع الحاج يهمس فى أذنى:

- أنت لم تسألنى عن مصير السائل الشفاف الذى احتجزه العبد
الأسود من صفن الرجل فحبسه بالقنينة.. هذا سائل نادر .. منه
تنبثق الحياة..

ونستخدمه نحن العطارين فى علاج أقوام آخرين.. مرضى لا ينجبون..
يتعاطونه فتأتيهم الذرية الصالحة.. رأيت يا على كيف أن من كل موت
تولد حياة جديدة؟ هيا الآن فلنتم!

أصحو.. فلا أجد فراشا.. ولا غرفة.. ولا الحاج العطار.. أصحو فلا أجد سوى الفراغ.. تملأ أنفى رائحة البخور الحارقة المسببة للعطس.. فأعطس بكثافة وتغرورق عيناى بالدموع تكاد تطلع روحى.. أين أنا؟ البخور أحال المكان إلى كتل متجمدة من الدخان والغيوم بعضها فوق بعض.. كالسديم.. لا أرضا تحتى وليس فوقى أى سماء.. أريد السير فإذا بى أطيرو.. يهب تيار من الهواء البارد كالثلج يلفح وجهى.. ويدغدغ العظام.. ويحملنى.. فلا أقاوم.. أين أنا؟ بين الفينة والفينة تبرق أضواء خضراء تظهر وسط السديم ثم تختفى.. الومضة تتبعها الومضة فلا يستغرق الوميض إلا هنيهة ثم تغيب فأسأل نفسى مبهورتا:

أهذا ميلاد خاطف ثم موت سريع؟

ألحظ أن للومض نظاما مستقرا متكررا.. تبدأ الومضة خافتة تتسلل من قلب السديم فى خجل كوليد تسلل من بطن أمه ببطء.. ثم يبلغ الضوء الأخضر جبروته فأضطر لغلق عيني.. تتسع دائرة الضوء وتتسع فى دوامات.. ثم يأخذ فى الأقول على مهل.. ويغيب.. فينتقض قلبى وأصرخ: أين أنا؟ بلا جناحين أرانى طائرا وحولى البخار المتكتل كالغيم.. أطيرو فى كل اتجاه بلا نظام.. فساعة أكون فى أقصى قاع الغيوم.. وساعة أرتفع كبالون هش تلاعبه الأقدار.. لا إرادة لى ولا قرار.. تائها وفى الروح غصة من خوف وعذاب.. أين أنا؟

ندخل- أنا والغيم- فى سرداب طويل من الضياء الفضى اللّماع.. فوقنا سماء زرقاء ملى بنجوم كالفرشات المضيئة.. وتحتنا نار تتلظى فيختلط

دخانها الأسود كالفحم بدخان السديم الأزرق المائل للرمادي.. فأراني بين
دخانين.. أين أنا؟

تقفز من الغيمة الكبرى أنثى طائر رخ عملاقة رأسها كقمة جبل وجناحاها
مبسوطتان تضمان المشرق والمغرب وعيناها بركانا نار تتفرد بهما فيّ في
غلّ كغلّ الحاقدين. تهبط.. تخطفني.. تحملني بمنقار مدبب كالحرية..
فترمي بي إلى ظهرها المفروش بالشوك.. ثم تطير فتسد بجسدها الفائز النافر
عين الشمس.

نغادر الغمام.. فندخل أرضا كأنها بستان.. يقذفني الطائر العملاق إلى
الأرض ويمضي عائدا.. أسبح. أضرب بذراعيّ وساقيّ في هواء رطب لزج؛
لكنه معطر وبارد. تستقر قدمي فوق عشب طري ناعم موحد روه حديثا
بالماء فتحمل قدمي الوحل وأمشي متثاقلا أترنح.. أتعب فأتهاك تحت "توتة"
ضخمة توتها ليس كالتوت الذي أعرف.. توتها ثمار من المانجو الطازجة
تغري بالالتهام.

أهم بقضم ثمرة منها وقد استبد بي الجوع.. فيصرخ فيّ الحاج- الذي لا
أدرى من أي مكان ظهر:

- إياك يا علىّ وثمار تلك الشجرة!
- ولم يا عم الحاج؟
- إن بها يا بنىّ سما زعافا يذهب بالأبصار.. وبصبيك بالعتة!
- أطيعه.. فألقى بالتوت المانجو بعيدا.. وينزل هو إلى جوارى.. كطائر بلا
أجنحة.. يتطلع فيّ نافذ الصبر غضبانا.. وقد نال منه التعب.. ويزوم:
- والله لولا مريم ما اصطحبتك ففي صحبتك رهقا يزهد الأرواح!
- فأين مريم الآن يا حاج؟

- أوصتني بك ومضت.. فهيا بنا!

نسير.. فنغادر البستان وندلف إلى ساحة عظيمة الاتساع تجمعت بها
كتل من البشر والطيور والحيوان والحجارة من كل جنس ولون وحجم.. اشتبكوا
جميعا في لغط يصمّ الأذان.. كانوا يتشاجرون.

في منتصف الساحة بركة آسنة من ماء راكد يتصاعد منها بخار أبيض
رائق.. يقترب الدخان من أنف كل حيّ بالساحة فيتحول الحيّ إلى ومضات
كالتي رأيت قبل قليل في قلب السديم.. تطير الومضات عائدة إلى سديمها..
وألقت إلى الحاج المتجهم الواجم الوجه فأسأله وكلّى وجل:

- من هؤلاء يا عم الحاج؟ وأين نحن الآن؟

يجيبني وقد خشع فجأة وارتعد:

- نحن في ساحة مطلع الأرواح يا على!

- يعنى إيه؟

- إسمع يا حبيب مريم ولا تقاطعنى.. سأحكى لك حكاية تلك الساحة

العجيبة التى أنت فى مركزها الآن ولم يبلغها قبلك إنسى قط..

فأنصت واسجد لمولاك! ألا فلتعلم يا على أن لكل مخلوق مئا كتابا

مؤجلا.. فإن جاء أجلمهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

- أما هذه.. فأعرفها يا حاج!

- قلت اسمع ولا تقاطع يا غبى!

هل ساءلت نفسك يا على أين تذهب تلك الأرواح بعد مغادرتها الجسد

الفانى؟ إنها تسافر إلى هنا يا على.. و....

قبل أن يكمل الحاج العطار عبارته دَوَّت في الساحة صرخة عظيمة
ألجمت الألسنة وأوقفت شعر رءوسنا جميعا.. ومن الأعلى أتى الصوت
النحاسى المتلألئ بالصدى:

- إخرس أيها الملعون فقد تجاوزت حدودك!

أنظر مأخوذا فأرى أنثى الرخ وقد عادت هائجة غاضبة فتتقض على
العطار فتحمله بين مخالبها وتسارع نحوى لتتقض على فيناديها المنادى:
- فأما هذا فدعيه لى!

أسارع بعينى نحو مصدر الصوت الآتى من الغيمة الكثيفة الدخان
الرابضة فوق الساحة فأرى عينيها المألوفتين لى.. الحبيبتين.. الغارقتين فى
الحنان.. عينيّ مريم!

تهبط مريم.. فتقتادنى.. وأسير معها وقد اطمأن قلبى.. تحتضنى وتهمس:
- يا على.. ليس مأذونا للعطار بولوج تلك الساحة إلا أنه غامر إكراما
لى!

- فماذا جرى له الآن.. هل هلك؟

تضحك وتداعبنى فتدغدغ أعلى عنقى بإصبعها الرقيق:

- لا تخش عليه.. فسوف يخلص نفسه!

- فما حكاية مهبط الأرواح تلك يا مريم؟

- ألم تقل للحاج قبل قليل إنك تعرف؟.. نعم يا على أنت تعرف ما
أعرفه.

- فقد قرأت الآية الكريمة كما قرأتها أنا ألف مرة "قل الروح من أمر

ربى..

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" .. إياك يا علىّ أن تصدق أى قائل لك إنه يعرف شيئا عن الروح فوق ما علمت!

- فلماذا أتى بى الحاج إلى هنا يا مريم؟
- أنا التى أتت بك يا علىّ.. وليس هو!
- فلم؟
- لأريك يا حبيبى نوعا من الألم لم يركه الحاج.. ألم "الوحدة" يا علىّ!
- فهل جريت من قبل أن تكون وحيدا مدحورا؟.. سوف تعرف هذا الألم كثيرا فيما بعد.. وها أنا قد أتيت بك إلى هذا الوادى لتراه قبل أن تتذوقه!
- تعال معى!
- أسير معها.. فتقتادنى إلى شجرة وارقة ممدودة الظل باسقة رسمت ظلها فوق الأرض دوائر كأنها الموج .. نمشى فى الظل فأرى امرأة مجللة بالسواد حزينة تبكى فى صمت:
- فمن هذه يا مريم؟
- ألا تعرفها؟ دقق فيها جيدا
- أآآآآآه.. يا إلهى..إنها بشرى!
- لقد عاشرتها يا علىّ.. وكان منك ومنها ما كان.. فهل كنت تعرف مدى الألم الذى عانت؟
- لا.. وكيف تكون وحيدة وهى التى تضم إليها الرجال جميعا بالليل وفى النهار؟

أدقق النظر.. فأرى بشرى تزفر زفرات تهتز لها الساحة كلها.. ويصدر عن الواقفين كلهم أنين عجيب.. فم بشرى فوهة عظيمة تخرج منها قطع من النار المتكلسة مع كل زفرة.. يذوب جسدها فتتساقط كتل من اللحم فوق

الأرض.. تتسارع الزفرات.. ويتسارع تحلل الجسد اللدن الذى كم أمتعته
وأمتعنى.. تذوى بشرى وترمينى بنظرة عاتبة.. ألتفت نحو مريم فأراها تجهش
بالبكاء المرير.. وتهمس مخنوقة بالشهقات:

- إياك وألم الوحدة يا على.. فلا قبل لك به.. ابحث لك دائما عن
رفيقة تشكو لها همك فى مشوار الحياة.. ولا تبق وحدك مع نفسك
أبدا..

هيا بنا أعود بك!

الفصل الرابع عشر

الشطرنج

" الشطرنج- يا على- كالحياة.. إن واجهتها بالانتحار منذ البداية
نحرتك.. ومضت تبحث عن غيرك يلاعها وتلاعبه..
الحياة- يا على- لعب عايضة المحايلة.. وكذلك الشطرنج!"

٤١

.. أعود.. فأجد نفسى فى سراى العطارين من جديد.. بالطابق الثانى..
فى غرفة علاء.. أراه جالسا مستغرقا غارقا فى التفكير العميق.. وأمامه
منضدة صغيرة.. فوقها رقعة شطرنج أنيقة رصت عليها القطع.. يرانى
فيهمس متغطرسا باستكبار:

- هس.. اقعد وانت ساكت يا على.. سيبنى اكمل الدور!
- بتلاعب نفسك؟
- يا بنى آدم قلت لك هس.. اللعبة دى مالكوش فيها فى حارتكم!
- يتملكنى الغضب فأرغب فى الثأر لنفسى.. وأتحداه مغتاظا:
- طيب.. وإن لاعبتك وغلبتك.. تدبىنى إيه؟
- يتوقف عن اللعب.. ويتعجب مندهشا:
- انت بتعرف تلعب شطرنج؟
- طبعا يا أستاذ.. أو مال..!
- مين اللى علمها لك؟

أردت أن أقول له أبله بشرى.. لكنى أمسكت لسانى.. وهتفت:

- ياللا نلعب بلاش غلبة.. وهاغلبك.. ها تدّينى إيه.. إنجز!

نفرت عروق عنقه.. واستبدت به الحماسة.. وأخذته العزة بالنفس..

فصرخ:

- هادّيك الشطرنج كله.. تعال!

أتخير القطع السوداء.. أسحبها من رأسها فأرصّها بسرعة ومهارة فوق الرقعة.. أتعمد الحديث بصوت مرتفع كى أهرّثقته فى نفسه: هنا الطابية على الجنب.. وبجوارها الفرس.. ثم الفيل.. وأما الملك والوزير فمكانهما هنا؛ فى القلب.. والعساكر " الغلبة " نرصّهم هنا فى وش المدفع استعدادا لدفع حياتهم دفاعا عن الملك المفدى عند أول نداء!

" ..العساكر يا علىّ حياتهم رخيصة كحياة الفلاحين فى حارتنا البائسة"..
هكذا كانت تقول لى بشرى ونحن، أنا وهى، نلعب الشطرنج فوق الفراش المشبع بالتعرق.. بعد ساعة من العناق الطويل المضنى اللاهث!
- يالّا يا معلم ورّينى شطارتك.. هاتبدأ بهتلر ولا نابليون؟
يخاطبنى مزهوّاً وكأنه يفاجئنى بكلمات لا أعرفها.. فأفجعه بكلام لم يتوقعه:

- لا ده ولا ده يا عم علاء.. ليّا طريقتى الخاصة!

- نعم يا اخويا؟ هاللاأأأ.. قال طريقته قال!

.. ونبدأ فى تبادل النقلات.

كانت بشرى قد أطلعتنى على سر فى اللعبة لا يعرفه الكثيرون: إبدأ بتكسير قطع خصمك يا على من أول نقلة.. التهم أى قطعة تصادفها فى طريقك ولا تبال أبدا بقطعك أنت.. أجهز على كل القطع؛ عسكرى، فيل،

طابية، فرس.. لكن خلّ عينك على الملك دائما.. ويستحسن أن تبدأ الدور بالتبّيت فتحفظ عليك مليكك! علّمتنى أن التبّيت هو أن تأخذ الملك ليبيت بعيدا بعيدا.. فى ركن قصى.. ثلاث خطوات إلى اليسار.. ثم ينام الملك يأكل أرزا ولبنا مع الملائكة.. ويرسل الطابية تموت بدلا منه!
.. وقالت لى أيضا:

الحصان قفاز يا علىّ يحب النط.. ألسنت تحب النط أنت أيضا يا عفريت؟

نضحك.. تقرصنى بنت الكلب فى تلايبيى فأقفز متألما.. أرتبك فلا أركّز.. فتهزمنى!

يفتح علاء عينيه وفمه مدهوشا. كان كلما حرّك قطعة سارعت إليها فالتهمتها فيثأر ويلتهم قطعتي.. بعد دقائق خلت الرقعة إلا من بضع قطع قليلة.. كيف سيلعب الآن وهو الذى رسم خطه بالاعتماد على القطع جميعا؟

الرقعة كلها لك الآن يا علىّ فهيا أوغل فى الذبح ولا ترفق!
فى ثلاث نقلات كنت قد حاصرت "سلطانة" فى الركن.. يأخذ الملك إلى اليمين فأشير إلى فيلى الرابض بعيدا وأهمس: الفيل ياكلك يا معلم. يريد الفرار إلى اليسار فأصرخ فيه: والطابية دى بتعمل هنا إيه إن شاء الله.. واقفة زينة؟ يرتد بالملك إلى الخلف فيكون الفرس على أهبة الاستعداد متأهبا للنط!
- كشّ يا أستاذ.. الملك مات.. البقية فى حياتك.. الدفنة بعد العصر بإذن الله..

هكذا كانت بشرى تشيّع مليكى إلى مثواه الأخير كلما غلبتني.. وكانت دائما تغلبني!

تفجؤنى ردة فعله.. مبهوتا يغادر الغرفة باكيا صارخا كأنه فقد عزيزا
لديه.. لم يتوقع فى حياته أن أقهره فى الشطرنج.. قهرته.. فخرج يطلب
المدد!

يصرخ ملتاعا:

- طنط هدى.. طنط هدى!

أرفع رأسى عن الرقعة المفروشة بجثث الميتين فأرى البنات الثلاث واقفات
على رأسى يتابعن آثار المعركة الدامية فيقف شعر رأسى.. لم أر فى حياتى
مثل هذا الحسن أبدا.. لم أر فى حياتى بياضا للبشرة كبياض بشرة هؤلاء.. لم
أر فى حياتى حلاوة ملفوفة فى أثواب شفافة كاشفة عما تحتها كتلك الحلاوة..
ارتعشت فغضضت بصرى.

شقيقات علاء فلفات قمر.. كلهن أكبر منه وهو الأصغر.. آخر
العنقود.. اللى على الحجر.. دلوعة أمه.. هو السيد المطاع فى السراية وهن
الجوارى.. يأمر فيطاع.. وها هو يأمر: أريقوا لى دماء هذا المتطفل الذى
تجرأ على أسياده فغلبهم!

هدى أكبرهن.. فى سن بشرى ومريم تقريبا.. الشعر سلاسل من ذهب..
والعينان خضراوان وسط بحيرة صافية من بياض لماع.. والقوام لا وصف
له.. جاءت على عجل ترتدى الشورت المحبوك الضاغط على الردين
الممتلئين- وعلى كل شىء- فيصرخ تحت الشورت كل شىء.. والبلوزة
الحرير البيضاء الناصعة البياض تحتها مشد صدر كحلى اللون منح الثديين
شموخا ليس كمثله شموخ.. هيفاء فارعة.. ضاحكة السن.. والأختان الأخريان
شرحه!

رأيت الفاتنات الثلاث فدقّ قلبى.. وبلغ الدق طبلتى أذنى.. لا عن رغبة
أو شبق.. بل جلّالا وهيبة.. وكيف لا تهاب كل هذا الحسن يا على؟ ليس
أمامك يا ابن الفلايحة أمام هذا الجمال المصنوع فى القاهرة إلّا أن تهوى
بعينيك إلى الأرض.. تصطنع الخجل وما أنت بخجلان.. بل مفتون سرح
السحر فى روحه فأسكرها.

- تصدّقى يا أبلّة هدى" البتاع" ده غلبنى فى الشطرنج!
- عيب يا علاء تقول على صاحبك كده.. معقول يا على بتعرف
تلعب شطرنج؟
- آه...!
- طيب.. تلاعبنى؟

تذكرت بشرى واللعب واللهات فاحمّرت وجنتاى.. قلت مغمما وعيناى
مازالتا فى الأرض:
- ماشى!

- طيب يالآ ورينى شطارتك يا شاطر!
- تجلس قبالتى البنّت التى تفوح من كل" حنّة" بها رائحة الصابون
المعطر.. تثنى ساقها تحت المقعدة.. وتترك الساق الأخرى حرة تهزها فى
مرح.. وتريح ظهرها إلى الخلف فى استرخاء الجالس بالراحة فى بيته..
أختلس النظر إلى الكنوز المخفية تحت الشورت.. فأرتعش خجلا من
أفكارى.. وأنكمش على نفسى كقنفذ حاصرته الضباع.. أدفس بصرى فى
الرقعة أرسّ القطع.. إن أى "بصّة" كده ولا كده سوف تحسب عليك أنت أيها
الصبى القادم من حارة الفلاحين.. أنت الآن فى اختبار عسير.. ليس فى
الشطرنج وحده.. بل فى تماسكك أمام فيض اللحم الأبيض المنفلت من

الشورتات والبلوزات ومشدات الصدر الضاغطة.. إياك أن تنسى أنهن بنات العطار!

تحرك هدى العسكرى الذى أمام الملك خطوتين.. فأحرك أنا عسكرين مرة واحدة.. كل عسكرى خطوة.. تضحك البنت سعيدة فى حبور، وتهمس:

- يا على.. ممنوع تحرك عسكرين مرة واحدة.. لكن هاعديها لك المرة دى!

لا أتكلم.. يلتقى عسكرى من عندى بعسكرى من عندها.. فأسارع إلى البطش به فوراً.. ألتهمه.. أتوقع أن تهجم هى على العسكرى القاتل الذى سفك دماءها.. لا تفعل بل تقر بعسكريها خطوة إلى الأمام كى لا يؤكل..

أتعجب.. كيف ضحّت بالعسكرى هكذا بسهولة؟!

حسبتها ستخاف لكنها قفزت فى مرج.. وصفقت بيديها علامة الانتصار..

سرّسعت بصوتها كعصفور يزقزق:

- آه.. أنت منهم يا معلّم؟

- من مين يا أبلّة؟

- من اللى بيلعبوا تكسير يا خويا؟ طب تعال لى!

أغمغم فأحسبها لن تسمعنى . لكنها تسمعنى وتبتسم فى خبث:

- إلعبى وحياة أمك بلاش غلبة!

- ماشى يا سيدى هاالعب!

أنكمش أكثر فأتوقع على نفسى.. تفاجئنى بنصب المصيدة. كنت كلما حاولت التهام أى قطعة من قطعها ترتد بها إلى الخلف على الفور.. أتقدم أنا إلى الأمام فتنسحب هى.. باتت قطعى مبعثرة بطول الرقعة وعرضها وكثير منها بلا حماية.. تشئت قطعى قبدأت بنت العطار الهجوم.. مزمنتى على

الهادى! صارت الرقعة رقعتها فعريدت واستبدت.. ونكاية فى كنت إذا هممت
بتحرك أى قطعة تحذرنى:

- ها تتاكل يا على!

أعاند.. تتفح كرامتى.. لا أعود للخلف.. لا أطلب الحماية من وزير ولا
فرس.. استدرجتى هى وتهورت أنا كالغر فالتهمتى التهاما:

- موش قلت لك ها تتاكل؟

لم آخذ فى يدها غلوة.. كانت "حريفة".. هزمتى فى خمس دقائق..

- كش يا روى.. الملك مات يا حبى!

مدت أصابعها المطلية بطلاء أحمر فاقع.. فأمسكت بمليكى من رقبته
كفرخ دجاج دائخ مهيبض الجناح ووضعته أمام عيني:

- شفت يا على عملت فيك إيه؟

انتفض علاء يتقافز على الأرض.. وقفزت معه البنتان.. فأحسست
وكأننى قد أغرقنى البول ولم أتبول.. تملؤنى المهانة.. أحاول التماسك فلا
أستطيع.. أعطى وجهى بكفى أقاوم البكاء.. فشلت.. بكيت فى صمت..
انفطر قلب أبله هدى.. تقدمت نحوى واحتضنتنى فتذكرت حنان مريم:

- ما تزعلش يا عبيط.. إنت لسه صغير.. وعلى فكرة انت ذكى

قوى.. بس عايزة اقول لك حاجة يا على افكرها كويس..

أرفع رأسى فتلتقى عيناي بعينيها فأرى ملاكا طاهرا يجلس فى العينين.
لا.. لا.. هدى ليست أبدا مثل بشرى.. هى نوع آخر من البشر.. تقع عيناي
على الصدر الناهد البارز فأحس بالخلج وأصرخ فى روى: عيب.. وأرمي
بالعينين بسرعة إلى الأرض.

- يا علىّ.. خدّها منّي نصيحة حطّها حلقة فى ودنك.. الشطرنج يا علىّ زى الحياة لو واجهتها بالانتحار من البداية نحرّتك ومضت تبحث عن لاعب آخر يلاعبها وتلاعبه.. الحياة يا علىّ "لعوب" عايزة المحايلة.. والشطرنج زيّها.. لازم تكمل للآخر يا حبيبى.. ما تزهقش من بدرى..

وما تياأسش بسرعة وترمى ورقك كله مرّة واحدة.. وحياتى يا علىّ ما تلعب "تكسير" تانى أبدا.. إنت ذكى.. حرام.. الشخص اللى علّمك الشطرنج يا علىّ بيجب الانتحار.. خد بالك منه!

نهضت هدى.. وقبل أن تترك الغرفة التفتت لشقيقها وهمست:

- على فكرة يا علاء.. صاحبك علىّ دا كويس جدا.. خليك مصاحبه على طول..!

ينظر علاء نحوى ويبتسم فى حب.. يلكنى.. ويهمس:

- يالّلا يا علىّ نلعب دور تانى.. بس من غير تكسير!

بعد موقعة الشطرنج.. صار بيت العطارين بيتا ثانيا لى.. أدخل وأخرج فى أى وقت.. ودونما استئذان.. دهست البيت فعرفت من الأسرار ما لم أتوقع.

عرفت أن " الفيلا" التى تقطن بها العائلة ليست سوى جزء يسير من القصر الكبير المنيف.. يفصل بينها و" المخازن" حوش موحش محاط بالأسلاك الشائكة الكثيفة ليس مسموحا لأحد من سكان الفيلا الاقتراب منه. الحوش، وما وراء الحوش، للحاج ورجاله فقط.

الفيلا كانت تبدأ بعد اجتيازك البوابة الخارجية التى تأخذك إلى ممشى مبلط ببلاطات تفصل بين الواحدة والأخرى خطوط دقيقة من أسمنت أبيض خرّمها النمل خروما.. فضجّ ما تحت البلاط بمستعمرات تكتظ بالنمل.

وفوق الممشى المستطيل تكعيبة من عنب تمتد فوق خشب رقيق مقطع إلى أقلام صغيرة تتماسك معا بمسامير صغيرة.. كان العنب يحجب الشمس ويصنع دوائر متداخلة من الظل تراها- وأنت سائر- فتحسبها ثريات نور فرشت على الأرض. وفى الجوانب مثلثات خشبية- عاشق ومعشوق- مطلية بالأزرق الجميل الفاتح فكنت تحسبه طريقا إلى الجنة.

فإذا انتهى الممشى.. سترى فسقية من رخام على هيئة حوض وفى وسطها تمثال لوحش كاسر فتح فكيه، فانبثق منهما الماء رشاشا يملأ الحوض. تعجبت مرة وتساءلت:

- فأين يذهب كل هذا الماء يأبلة هدى؟

تضحك .. فتمرّ بكفها الناعم الأملس كالحرير فوق رأسى.. وتغرد:

- تلك نافورة يا على.. ماؤها منها فيها!

- يعنى إيه؟

- إن بها- تحت بطن الوحش- موتور يعمل بالكهرباء.. يسحب الماء

من الحوض فيعيده إلى بطن الوحش.. فيعيد الوحش بخه علينا من

جديد!

كنت أندesh من راحة عقل هدى.. وكيف أن فى جعبتها لكل سؤال من

أسئلتى جوابا. ضحكت لها مرة وقلت أستدرجها؛ وفى ذهنى ما تفعله بى

بشرى:

- لماذا تتحسسين شعرى بأناملك دائما يا أبله؟

- لأن شعرك جميل كعينيك يا على.. شعرك قطيفة!

تركتتى وانصرفت فى حزم فعرفت أنها ليست كبشرى!

تغادر النافورة ذات الوحش والموتور فتدخل إلى الحديقة الغناء.. وسترى

أنذ أحواض زهر من كل لون أحاطها" الجنائنى عم إسماعيل" بحجارة

مرصوفة.. أبيض فأسود.. ترتفع عن الأرض.. تمنع تسرب ماء سقى الزرع

إلى الخارج.

"الورد يحتاج إلى الماء دائما يا على.. كانت هدى تقول لى كلما رأتنى

أعبث بأصابعى فى ماء حوض الياسمين رائع الرائحة.. يترك عم إسماعيل

خرطوم الماء خارج الأحواض.. فكنت أمسك به.. وأصوبه على وجه علاء

متعمدا ألا أصيبه.. فيهرب من أمامى ضاحكا صائحا:

- "بطل معيلة والنبي يا على!"

تسير فترى الأشجار. أشجار فاكهة من كل صنف؛ مانجو وتوت وجميز

وجوافة وتفاح وبرتقال.. وعندما انحنيت ذات يوم لآكل ثمرة جوافة صرخت

فى هدى محذرة:

- ماتاكلش حاجة قبل ما تغسلها يا على.. تمرض يا حبيبي!

فى بطن شجرة كافور عتيقة اكتشفنا أنا وعلاء كهفا يزوره الظل على استحياء.. فكنا- أنا وهو- نجلس بداخله نستكشف معا رجولتنا النابتة.. ونحكى حكايات. كل من فى البيت صَفَّقوا لى عندما رأيت التوتة الباسقة فجريت نحوها وتسلفتها فى دقيقتين فاعتليتها وجلست بين الأغصان أتذوق التوت.. كنت كقرد شقى؛ سعيدا بالحياة والتوت.. فهتفت هدى:

- عملت كده ارزاي يا عفريت؟

- باعمل كده كل يوم فى توتة الغيط يا أبله!

- آآآآه.. قلت لى..!

ننهى الحديقة.. فيعترضنا باب من زجاج حوله إطار من من حديد.. وله مقبض من نحاس.. يفتحونه بالنهار ويغلقونه بالليل. ندخل فيلقانا بئر سلم فسيح مضاء دائما حتى لو كنا فى عز الليل بمصباح بيضاوى الاستدارة يضاء بالكهرباء.. نصعد السلم الأبيض اللامع العريض الدرج.. وبعد سبع بلاطات ثمة بسطة.. ثم سبع سلّمات أخرى.. ثم المدخل.. فنندلف إلى الشقة ذات الطابقين وتقوح منها فى كل ساعة رائحة الطعام.

الطابق الأول مطابخ عديدة.. ولم يكن طعامهم أبدا كطعامنا نحن فى الحارة.. كنت أكل عندهم بلا حساب حتى أشبع.. وهناك أيضا حمامات كثيرة.. تنام فى حوائطها الملساء صنابير ماء.. وفى الأسقف مصابيح مضيئة.. وفى الصالات أثاث لو وزعناه على أهل الحارة لكفاهم جميعا ولفاض؛ مقاعد وثيرة.. وأرائك.. ومناضد صغيرة.. وطاولات كبيرة.. وخزانات خشبية نظيفة مكدسة بأوانى من الفضة تلمع بالليل.. وسجاجيد.. وثريات

مبهرة.. ورسومات غريبة رسمت على الحوائط.. وآيات قرآن كتبت بماء الذهب:

- إيه العزال ده كله يا علاء؟

- بابا ضيوفه كتار يا على!

نصعد السلم الخشبي المفروش بمفارش ناعمة تنتهي مع السلمة فتأخذ شكلها .. ندلف إلى الطابق الثاني لنجد غرف النوم.. وغرفة علاء. كانت لكل بنت حجرتها.. وللشغالة- سلوى- التي يدللها علاء فيقول لها: "يا سالى!" غرفة أيضا.. عرفنا فيها- أنا وعلاء وسلوى- أياما مجللة بالخلج والعبث النضاح بالعرق والسخونة وماء الحياة! سالى كانت من القاهرة.. وكانت كبيرة ومجرية وجسدها نظيف.. أنظف من لحم نساء الحارة كلهن!

ظلت غرفة علاء الوحيدة المسموح لى بولوجها.. إلى أن لاعتبتى هدى الشطرنج استخفّت دمي.. صارت تدعوني إلى غرفتها بين الحين والحين.. لكنها أبدا ما تخففت من ملابسها أمامى- كما كانت بشرى تفعل.. عرفت هدى حدودها معى فعرفت حدودى معها.. كنا- أنا وهى- نتحدث.. نتحدث فقط!

عرفنى كل من بالبيت.. فأحبيبتهم وأحبونى.. وعشت أحلى أيامى.. إلى أن فاجأتنا جميعا فى إحدى العصارى "الكبسة الكبيرة"!

عالم علاء عالم ملئ باللعب الغريبة.. وبالكتب والمجلات الملونة.. وبالصحف الكبيرة الورق الصفراء التي كان يقرأها لأمه.. وقرأتها أنا لها أيضا فيما بعد. عالم علاء مختلف تماما عن عالمنا فى الحارة.. حتى المدرسة ما كانت مثل مدرستا.. يأتى "باص" أصفر عتيق.. يطلق صفارته.. يهرول علاء إليه.. فيأخذه إلى البندر فلا يعود إلا مع العصر.

علاء كان قارئاً نهما.. لكنى أنا كنت أنهم منه. ما كنت أرى شيئاً يقرأ إلا قراءته.. فكان يصرخ فيّ مغتاضاً:

- يخرب بيتك.. إيه ما بتشبعش؟

يفتح صندوقاً ضخماً أهده له أبوه ليخزن فيه اللعب والمجلات والكتب..
أطنان من المجلات رأيتها فطار عقلى من الفرحه:

- إيه كل ده يا ابنى؟

- مجلات.. ما بتشوقش؟

- ورّينى كده!

أقرأ عناوين الأغلفة.. أنظر مبهوراً للتصاوير.. فيسيل لعابى. ما هذا؟
يونانزا.. الوطواط.. سويرمان.. سبايدر مان.. باتمان.. ميكى.. سمير..
الشبكة.. الموعد.. صباح الخير.. المصور..

- وإيه الكتب الصغيره دى؟

- اسمها أُلغاز.. ها تعرف تقراها؟!

- ها تشوف.. قل لى يا علاء منين الفلوس لكل ده؟

- طنط هدى بتشتريها لى!

- هدى؟ آآآآ آه.. قلت لى!

أجلس القرفصاء على السجادة الفخمة الناعمة.. وأسند ظهرى إلى رجل
السرير.. وتستغرقنى المغامرات المصورة.. ينظر علاء نحوى فى غضب
مكتوم ويهتف:

- إحنا موش ها نلعب.. ولا إيه؟

- بعدين.. بعدين يا علاء!

- يعنى إيه بعدين.. يالآ احكى لى عن الحارة! أفكر قليلا.. أخشى
حرمانى من مجلاته الفاتنة.. فأفوضه:
- ماشى يا عم.. بس بشرط.. تدينى المجلة دى أقرأها فى البيت..
واجيبها لك بكرة معايا.. ماشى؟ ماشى؟
- لا يا عم.. طنط تزعق لى.. قول لها الأول!
- طب عاوزنى أحكى لك عن إيه؟
- عن ديستيفانو!
- أغتمّ.. أبرطم.. ألعن ديستيفانو وأم ديستيفانو.. واللى جابوا ديستيفانو..
أمتعض فأغمغم:
- لآ.. هاحكى لك عن الواد سيد ابن الوليّة الشلق.. اللى بيدينى كل
يوم علقه!
- علقه.. ها ها ها ها ها ها !
- أبدأ فى الحكى.. فيفغر فمه.. ويحملك بعينيه فى الفراغ ويسرح.. يتوه..
فأتوه معه.. وأندمج.. يمضى بنا الوقت.. فأسمع الشيخ عبد المولى يؤذن
العشاء.. فأقوم لأنصرف!

.. حتى لو كانت البوابة الحديدية مغلقة كنت أدخل.. أضرب ببطن كف

يدى على قضبان الحديد.. وأنادى:

- يا عم سيماعين.. يا عم سيماعين!

يفتح الرجل الباب لى ويستقبلنى بسعادة من رأى ولدا يذكره بأولاده:

- خش يا علىّ يا بنى.. خش!

أهزول مسرعا إلى الداخل.. فيلقانى صوت هدى الواقفة فى البلكون

تداعب الريح شعرها الذهب.. فيتطير فى كل اتجاه:

- علاء لسه فى المدرسة يا علىّ!

استدير بظهرى لأعود إلى الحارة فتنادينى من جديد:

- إسنّتى يا علىّ.. اطلع.. أنا عاوزاك!

أصعد سعيدا مسرورا.. ها هى ساعة أو ساعتان من السحر الخالص

سأمضيها وحدى مع صندوق العجائب فى غرفة علاء.. هيا إلى صندوق

المسرات.. إلا أن هدى تعترضنى لدى السلم:

- تعال أوضتى يا علىّ شويّه!

ينقبض صدرى وأبتئس فأزرم شفّتى ممتعضا.. هاهما ساعتا المجلات قد

ضاعتا.. تقرأونى وتضحك:

- ما تخافش يا عم.. موش ها خليك عندى كتير.. تعال تعال!

تقتادنى وقد طوّقت عنقى بذراعها العارى البض وتميل تلتصق بى

فاستشعر ملمس الثدي المسجون داخل المشد المتعصب وحوله قميص النوم

الشفاف.. أرتعد فأبتعد مذعورا:

- اللهم اخزيك يا شيطان!

تسمعنى فتسهل بالضحك كمهرة خرجت من محبسها إلى العشب:

- ما تخافش يا سيدى.. موش ها كلك!

تدخل الغرفة.. فأدخل وراءها.. وعيناي فى الأرض.. ها نحن وحدنا فى
الغرفة.. خير اللهم اجعله خير.. أتلقت حولى.. فأرى صندوقا مستطيلا
كالحقيرة.. تدور فى قلبه قطعة حديد اسطوانية سوداء اللون.. وفوقها ذراع
صغيرة صفراء تدور معها.. وكان الحديد يغنى:

" أبو سمره السكرّة

أبو ضحكة منورة

فات وعدّى

ولّا لسه.. يا ترى!"

ترانى مضطربا حائرا فتضحك حتى يرتى ظهرها إلى الخلف.. وتصرخ
فى حبور:

- عارف الجهاز اللى بيغنى ده اسمه إيه يا على؟

- إيش عرفنى؟

- اسمه الجرامفون يا حبيبى.. اسمه إيه؟

أضطرب أكثر فأغغم متلعثما.. فتضحك من جديد.. وتمد كفيها تمسح
دمع السرور الساقط من عينيها. تعتدل فى الفراش.. وتريح الساقين إلى
الأمام.. فيصعقنى لون البشرة الأبيض المشرب بالاحمرار.. تجلس وسط
الفراش فتتوسد وسادة صغيرة زرقاء الغطاء تضمها إلى صدرها وتضغط.. ثم
تبتسم:

- اقعد يا على واقف ليه؟ عندك كرسى "التسريحة"!

أجلس فوق المقعد الصغير الواطىء بعيدا عنها فتهمس:

- تعال قَرَب بالكُرسى من السرير .. خايف من إيه؟
- يبدو أن هذا نهار لن يفوت .. ماذا تريد تلك الفرس الهائجة الآن منى يا ترى؟ ألم تنفق على أن هذه الألاعيب لا مكان لها فى ذلك البيت؟ تعود هدى فتقرونى من جديد وتضحك خجلانة:
- بلاش أفكارك الوحشة دى يا علىّ .. أنا زى اختك!
- يستغرقنى الخجل يغطينى من قمة شعرى حتى إصبع القدم الصغير الذى أخذ ينمّل .. كيف سوّلت لى نفسى أن أتصورها هكذا؟ آه من ذكاء تلك الأنثى .. كيف تقضح ما يجول بخاطرى بهذه السهولة؟
- عارف أنا عاوزاك ليه يا علىّ؟
- لأه...!
- علشان تحكى لى عن مريم!
- يرتج جسدى فيهتز .. وينتصب شعر رأسى .. فأنطق لاهثا:
- مريم؟ وهو انتى عارفة مريم؟
- طبعا يا سيدى .. حبيبة قلبك مريم!
- عارفاها منين؟
- إيفون الله يرحمها قالت لى كل حاجة!
- إيفون؟ هو انتى عارفة إيفون كمان؟
- آه .. إيفون .. احكى لى يالّا!
- ها اقول لك إيه عنها بس؟
- كل حاجة .. يالّا يالّا .. أى حاجة تيجى على بالك قلها!
- أمرك يا ستى!

.. مريم يا هدى امرأة ليست كالنساء.. مريم يا هدى نور ونار وبهجة..
وهج إن لمسته أضاء لك عمرك كله. مريم عيانا تبحرين فيهما فتتعلمين
السباحة.. فإن نزلت تعومين غرقت فيهما.. غرق يا هدى لا يمينك بل
يحييك. مريم فيضان من الحب إن أصابك رذاذه لأصبحت طائرا يحلق في
السموات العلا بلا جناحين. آآآآآه يا هدى لو عرفت مريم كما أعرفها..
ساعتها ستعشقين الكون والوجود والناس.. بل والحجارة!

.. مريم يا هدى ترياق يشفيك من كل الأمراض.. بلسم يطيل العمر..
هواء إن تنفسته تظلي ترقصين في هيام مدى الحياة.. سترقصين وترقصين
فلا تكل أبدا من الرقص قدماك. مريم ماء زلال لو رشفت منه رشفة واحدة
فلن تظمئ بعدها ما حييت. مريم خمر تسكرك سكرنا بينا- أنت التي في
عمرك ما قربت الخمر!

.. مريم يا هدى يدان من حنان أخاذ إن مسّتك يداها مسّة واحدة
فسترتعشين رعشة الوجد التي لا رعشات مثلها أبدا ولا يعرفها إلا العارفون
الواصلون بوصلهم للمعشوق الأكبر جلّ في علاه. مريم قدما ليستا كقدميك
أو قدمي أو أقدام البشر.. قدماها مغسولتان بعطر خالد لو استنشقتيه
لانتفجرت شرايينك من فرط اللذة فلا تشعرين بألم.

آآآآآه يا هدى من صوتك يا مريم.. بلور يتكسر فوق حصي أنيق أملس
يبكي من الحنين لو سمعته ل تمنيت الصمم الأزلي كي لا تسمعين صوتا
بعده. هل جريت يا هدى صوت الأم تهدد رضيعها كي ينام؟ فذلك صوت
مريم. هل رأيت يا هدى أنثى عصفور سقط فرخها من الأغصان فهرولت
نحوه تضمه بجناحيها فيزقزق في حبور شاعرا بالأمان؟ فذلك صوت مريم.

هل سمعت تسابيح إمام الفجر تخرج من صدره الآهات المعبقة بالشجن حبا
فى مولاه؟ فذلك صوت مريم. آآآآآه يا هدى من مريم!

تفاجئنى هدى فتضمنى متشججة تبكى محمرة العينين لاهثة الأنفاس
ترتعد.. فتهمس من بين دموعها:

- تعشقها يا على؟

- كلّ من عرف مريم وقع فى حبالل العشق يا هدى!

تفرد هدى شعرها الذهبى المتهدل كشعاعات الشمس فوق كفيها وتتمتم:

- فحدثنى عن شعرها.. ألسعرها جمال شعرى يا على؟

- لا يا ست هدى.. لمريم شعر غير شعر كل الناس..

.. شعرها يا هدى أسود فاحم ترين فيه الليل حين يغيب عن الليل قمره..

فإن هى فردته فوق وسادتها قفزت إليه النجوم تاركة مواقعها لتنام فوقه وتغط

فى النوم وتحلم. تسأليننى عن شعر مريم؟ آه من شعر مريم يا هدى إن هى

عقدته ضفائر .. ساعتها تصحو ملكات الجن يتسابقن يتسلقنه باحثات عن

البركة التى لا تزول. شعرها؟ آه من شعرها يا هدى عندما تتحمم فتدعه

ينفلت فيغطى الكتفين والظهر .. عندها سترين البرق يهبط من السماء نازفا

ضياءه سعيا لقبلة مقدسة فوق الشعر المسترسل.

- آآآآآه يا على.. وصدرها؟

- لا.. ليس كصدرك أنت يا جميلة.. صدرها لا وصف له.. فوق كل

الأوصاف صدرمريم يا هدى!

- فماذا عن عفتها؟

- مريم يا هدى هى العفة تمشى على قدمين.. ولو أن كل عفة بنات

حواء

اجتمعت لكانت قطرة فى عفتك يا مريم!

- طيب.. وعبد الستار؟

يرعبنى السؤال المباغت.. فأغضب.. ويعتصرنى الألم.. وأصرخ فيها:

- وهذه تعرفينها أيضا؟.. ما كان لإيفون أن تطلعك على سر كهذا!

- لا تغضب يا على.. وحياتى لا تغضب.. أنا أحب مريم مثلك..

ولن أبوح بسرّ ائتمنتى عليه إيفون.. ولا بسرّ ائتمنتى أنت عليه!

- لا يا هدى.. لا أحد يحب مريم كحبنى لها.. فكفاك حديثاً عن مريم!

- أريد أن ألقاها يا على.. فخذنى إليها!

- سأسألها وأرى..!

نسمع باب الحديد يفتح على مصراعيه.. ويأتينا صخب" الباص"

العتيق.. فأنطلق مستحثاً الخطى:

- عن إذنك يا "أبلة".. علاء وصل..

- لا تنسى يا على والنبي!

- اطمئنى.. لن أنسى

أخذنى علاء إلى عالم المغامرات الملونة.. فأخذته إلى عالم المغامرات الحقيقية المؤلمة فى الحارة.. سلبت الحارة لَبّه واستولت على جنانه.. لكنه لم يصمد طويلا. اقتادنى- عن غير قصد- إلى دنيا من رعاة البقر البارعين فى سحب مسدساتهم بسرعة فائقة فيقتلون منافسيهم فى غمضة عين من أول طلقة رصاص.. واقتدته إلى دنيا من "ولاد الفلاحين" البارعين فى سحب ألسنتهم الطويلة لتتفجر منها الألفاظ الجارحة السليطة.. فيصرعون منافسيهم من أول طلقة لسان!

عبر بى إلى السماوات المفتوحة الفسيحة فرأيت الرجال الخارقى القوة المفتولى العضلات يطيرون فى الهواء.. سويرمان.. وباتمان.. وسبايدر مان.. فى سعيهم الدؤوب لإقرار العدل وإنصاف المظلومين.. وعبرت به فرأى الرجال المطحونين الموحولين فى الروث الساعين سعيا دعويا للقمّة عيش نادرة قلما يجدونها.. فيظلمون ويتظلمون!

تبادلنا- أنا وعلاء- عالمينا.. أدخلنى هو عالمه المغسول بماء الصنابير النظيف والصابون المعطر.. وأدخلته عالمى الغارق فى الأوحال والماء المطينّ المجلوب من المصارف والترع العكرة والظلمبات الحبشية البلدى المفتوحة على ماء المجارى والمخلفات البشرية والقذارة.

قال لى ذات ليلة:

- يا على.. خذنى معك للحارة!

قلت متعجبا:

- لن تستطيع مع أبناء الحارة صبرا.. سلىنى أنا المكوى بنارهم!

أصرّ وهز رأسه فى عناد أولاد الذوات عندما يعاندون:

- جَرَبْنِي.. وسوف ترى!

أَلَحَّ.. فتشابكت يَدانا.. وغادرنا قصر أبيه المنيف.. وولج علاء الحارة في ساعة عصارى.

لعلاء "لكنة" فى نطق الكلمات استمدها من اختلاطه الدائم بأقاربه الكثيرين بالعاصمة.. تحسبها- أنت المنقوع فى طين الحارة ولكنتها العجيبة- ميوعة ترقى إلى كلام النساوين وخلاعة البنات "الساوية على حلّ شعرها". علاء كان يفتح نهايات الكلمات.. ينطق الكلمات دائما منصوبة بالفتحة.. بينما عيال الحارة كلماتهم مجرورة بالكسرة. يقولون لك مثلا: "إحنيه" ويقولها لك علاء "إحنا" .. أو يقولون: "قلت لهى" بكسر الهاء وهو يقولها: "قلت لها" .. أو يقولون "جوزكى" وهو يقولها "جوزك" .. وهكذا عندما هبط علاء من الجنة إلى الأرض- من القصر إلى الحارة- أيقنوا على الفور أنه ليس واحدا منهم ولن يكون. كانوا عندما نزل إليهم يقسمون أنفسهم فريقين استعدادا للعب.. فرأونى ورأوه:

- مين الواد ده يا واد يا ابن فاطمة؟

- صاحبى!

- طظ فيك أنت وصاحبك.. إمش بعيد ياد انت وهو!

هكذا قال ديستيفانو بغضب فاستقبل علاء الصدمة الأولى بصبر وذكاء.. ومع ذلك فقد تربصوا به فلم يصمد معهم طويلا. كان قاموس ألفاظهم الغربية عليه أقصى من قدرة احتماله. إلا أنه- وعلى الرغم من تحذير أبيه له- قرر الاستمرار إلى أن وقعت الواقعة.

كنا نلعب الكرة.. هجم عليه ديستيفانو يأخذ الكرة منه. ديستيفانو معتاد أن نترك له الكرة دائما..

"يا عم ده ديستيفانو ابن الصقراوية سييها له يغور بيها..!"

لكن علاء كان ابنا للعطار.. قام علاء بتزقيص ديستيفانو "ترقيصة" من ترقيصات أبناء البندر. سحب الكرة على هيئة الرقم سبعة.. فأطاح بالباشا ديستيفانو القادم إليه كالثور الهائج.. فشاط ديستيفانو الأرض.. وتألّمت أصابعه.. فضحك على خيبته العيال.. وحينئذ اهتزت الأرض هزتها الكبرى.. وصرخت السماء!

.. هجم "الرهيّب" على علاء الطرى الهش المدلل وطرحه أرضا.. ولاك له اللّكمات.. فرأينا أحمد الصقراوى وقد هرول إلينا مسرعا كالصاعقة.. أنهض ابنه من فوق علاء وهوى بعصاه الغليظة على رأسه فشجها شجا وسال الدم.. كانت المرة الأولى التى نرى فيها أحمد الصقراوى يضرب ابنه.. فتعجّبت الحارة كلها.. وتعجبت أنا معهم.. لماذا كان الصقراوى مرعوبا مذعورا خائفا هكذا حتى أنه نسى أن ديستيفانو هو ابنه الأصغر ودلوعة أمه؟ كيف يأتى الصقراوى بلباسه الداخلى وبدون الجلباب ليضرب ابنه؟ بعد ذلك عرفت السبب.. قاله لى عم إسماعيل الجنائنى!

قَبِضَ اللهُ لى عَمَّ إِسْمَاعِيلَ الْجَنَانِي لِيَكْشِفَ لى الْمُسْتَوْر .. وَيَمِيطَ اللَّثَامَ عَنْ سِرِّ أَسْرَارِ السَّرَايَةِ.

للرجل فى أَقْصَى الْحَدِيقَةِ "خَصَّ" بِنَاهُ مِنَ الْخَوْصِ الْمَتِينِ الْمُرَبَّطِ بِبَعْضِهِ بِحَبَالٍ مِنَ الْكَتَانِ الْقَوَى الْمَفْتُولِ .. وَعَرَّشَهُ بِالسَّدَّةِ - أَعْوَادٍ مِنْ سِيْقَانِ حَطَبِ الْقَطَنِ وَقَشِ الرَّرْزِ وَالْغَابِ الْبَلْدَى السَّمِيكَ مَدْعُوكَةً بِالرُّوثِ وَالطِّينِ وَالطَّمَى - وَالْخَصَّ مَفْتُوحِ الْبَابِ دَائِمًا لِيُظَلَّ الرَّجُلُ يَرِاقِبُ الْحَدِيقَةَ كُلَّ سَاعَةٍ وَكُلَّ لَحْظَةٍ.

قَالَ لى: جِئْتُ يَا عَلِيٌّ مِنْ بَلَدٍ بَعِيدٍ فِى الْجَنُوبِ اسْمُهُ الصَّعِيدُ!

يَكْدَحُ عَمَّ إِسْمَاعِيلُ طَوَالَ النَّهَارِ فِى الْحَدِيقَةِ الْمَتْرَامِيَةِ الْأَطْرَافِ .. فَإِذَا إِتَى الْمَغِيبُ يَكُونُ حَيْلُهُ قَدْ انْهَدَّ .. وَنَالَ مِنْهُ التَّعَبُ كُلَّ مَنَالٍ. يَجْلِسُ عَلَى بَابِ الْخَصِّ يَسْوَى شَايَا عَلَى مَوْقِدٍ مِنَ الْفَحْمِ فَيُشْرِبُهُ .. شَاىَ غَرِيبٍ .. لَا سَكْرَ بِهِ .. وَفِيهِ مَلَأَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ شَايَ أَسْوَدَ خَشَنَ يُوْجِعُ الْبَطْنَ لِمَنْ لَمْ يَعْتَدِهِ. وَكَانَ يَدْخُنُ "الْجُوزَةَ" فَيَسْحَبُ دَخَانًا كَثِيفًا مِنْ سَاقِ الْغَابِ الْقَصِيرِ الْمَدْبَبِ الطَّرْفِ .. ثُمَّ يَخْرِجُهُ مِنْ فَتْحَتَى الْأَنْفِ. يَغْمُضُ الرَّجُلُ عَيْنِيهِ وَيَسْرَحُ بِخِيَالِهِ عَائِدًا إِلَى بِلَادِهِ الْبَعِيدَةِ. كَانَ يَفْكُرُ فِى أَبْنَائِهِ الَّذِينَ تَرَكَهُمْ لِلْهَمِّ وَالْفَقْرِ وَالْجُوعِ وَمَعَهُمْ أَمَهُمْ فَلَا يَزُورُهُمْ أَبَدًا!

قُلْتُ لَهُ: وَلِمَاذَا لَا تَسَافِرُ إِلَيْهِمْ؟ غَمَغَمَ: "عَلَى تَارٍ يَا عَلِيٌّ يَا وَلَدِي!" .. فَلَمْ أَفْهَمْ مَا مَعْنَى التَّارِ؟

إِسْمَاعِيلُ يَعْرِفُ أَهْلَ الْحَارَةِ وَاحِدًا وَاحِدًا وَيَعْرِفُونَهُ .. يَدْخُلُ الدَّوْرَ كُلَّهَا بِلَا اسْتِئْذَانٍ فَلَا يَعْتَرِضُهُ إِنْسَانٌ .. وَكَانَ يَأْكُلُ عَلَى أَى طَبْلِيَّةٍ يَلْقَاهَا مَمْدُودَةً .. يَشْتَمُ الْجَمِيعَ بِالْأَمِّ وَالْأَبِّ فَلَا يَغْضَبُونَ بَلْ يَضْحَكُونَ. وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ هُوَ الصَّدِيقُ الْأَوْحَدُ لِلْحَاجِّ قَنَاوَى الْعَجَوَانَى .. لَكِنْ مَرِيْمٌ كَانَتْ تَكْرَهُهُ! تَقُولُ لى:

نحن وهو "بلديات" لكنه مفترى.. كنت أتعجب فلا أقرأها على وصفها له..
فتقدم قائلة: إسكت.. إنت موش عارف حاجة!

ومن بين الجميع لم يكن إسماعيل يحترم كائنا في الحارة إلا جد
الصقاروة" متولى" .. كان يفقهه عندما يأتى الحديث عند الجد ويصيح:

ده راجل صح.. عنده بين فخذه بضاعة تخطف الأبصار!

كنت أندش كيف عرف إسماعيل أجزاء الرجل العجوز الحميمة.. بل
وكيف عرف ما كان بينه وبين صفة:

يا على يا ابني دى حكاية طويلة!

رأى إسماعيل عليًا فى الحارة كثيرا قبل أن تطأ قدما على أرض القصر
المنيف. . فلما رآه مع علاء امتعض وصاح:

إيه اللي جاب الواغش ولاد الكلب دول هنا؟

.. لكنه بعد أن تعارفا فعرف كل منهما الآخر على حقيقته.. صارا
صاحبين.. فكان يناديه: "يا ولدى". أحب إسماعيل عليًا.. ووقف على علي
سر هذا الحب. إن لإسماعيل ابنا فى مثل عمره؛ هناك فى الصعيد.. سمّاه
إبراهيم. يرى إسماعيل عليًا فيتذكر إبراهيم وتقيض بالدمع عيناه وقلبه
بالحنين. يدعو إسماعيل عليًا إليه كلما تيسّر اللقاء.. يتحدث إليه بلهجة
صعبة لا يكاد يفهمها فيتبسّط إسماعيل معه ويتكلم بلهجة أبناء الحارة..
وتفاهما.. الرجل الملفوف فى غمامة من الغموض والصبى الذى يذكره
بولده.. ورويدا رويدا انقشع الغموض.

.. نسى إسماعيل نفسه ذات يوم- أو ربما تعدّد النسيان لغرض فى
نفسه!- ففضح سره الأكبر فى كلمات سريعة مقطومة ملغزة.. انتزعتها منه

انتزاعا "الجوزة" العامرة بالحشيش الأصيلي المجلوب من الشام فوق جمال
امتلك الحاج منها الآلاف وكان عبد الستار يقودها له. قال لعلّي:

"ذبح الأندال شقيقا لي.. فذبحت منهم ستة ثمناء لدمه.. وها هم الآن
يطاردونني يريدون دمي.. أتراهم سيعرفون طريقى يا علىّ يا ولدى؟"

توطدت العلاقة، فصار دون وعى - ولأنه رأى فى علىّ صورة ولده الذى
لن يفضحه - يسرّب له كل يوم قطعة معلومات مبهمّة شحيحة عندما جمعها
علىّ معا فى خيط واحد تبيّنت له الحقيقة المرعبة .. قال إسماعيل:

هذا القصر فى الليل يا ولدى ليس كما تراه فى النهار .. الليل فى القصر
غاية مظلمة من الأسرار والجرائم والفتن .. فإياك يا علىّ أن تقرب "الحوش"
فى الحوش ناس رائحة وناس تانيين جايين .. والله وحده العالم بكل شىء.
.. ثم كانت المعلومة الأخطر:

- أبوك عبد الستار الجمال .. ما انت عارفة .. موش كل يوم عند مريم
وينشفوه؟

- ما له عبد الستار يا عمّ سماعيل؟

- هو وابوك أحمد الصقراوى بيشتغلوا عند الحاج .. وهنا كل ليلة فى
الحوش!

فماذا يعملان معه؟ السؤال أرق عليّا طويلا إلّا أن كشف سرهما استغرق
وقتا طويلا من إسماعيل:

- يتاجران معه يا ولدى!

عبد الستار الجمال - حبيب مريم - قادر على سياقة الجمال فى الدروب
الوعرة. يحمل كل جمل فوق ظهره البضاعة المحرّمة .. ويظل عبد الستار
يضرب بأكباد الإبل فى الصحراوات الشاسعة والبرارى والممرات الضيقة

المظلمة الليالى والأيام. يصل إلى هنا.. فيدخل من هذا الحوش.. ينزل بضاعته.. فيحملها إلى المخازن عبيد سود أشداء لا يعصون للحاج العطار أمرا ويفعلون ما يؤمرون!

- طيب واحمد الصقراوى يا عمّ سيماعين؟
- الصقراوى يا ولدى جوال فى النجوع والكفور وحوارى البنادر.. مجرم عرييد قاتل قاسى القلب.. يخشاه الرجال.. وتتعشقه النساء.. إياك يا علىّ أن تصدّقه حين يزعم أنه يطوف بالبلاد يبيع القماش للنسوة.. لا يا ولدى.. بل هو يبيع للناس تجارة العطار الحرام.. فنذهب بعقولهم.. وتخرب بيوتهم.. وتحرق أموالهم و أنفسهم!

أسأله محتاراً طائش اللب مشوّش الأفكار:

- تجارة إيه دى يا حاج.. بيبيعوا إيه بالظبط؟
- يا ولدى أنت صغّير.. بيبيعوا المخدرات يا ولدى.. حشيش وأفيون وهورابين وبلوى سوده!

- بس الحاج العطار بتاع عطارة وراجل مصلى ومتديّن؟
- قال مصلى قال.. صلى على النبى يا ولدى.. صلى على النبى!
.. ثم جاءت قطعة المعلومات القاصمة المفجعة.. نطق بها إسماعيل بعد "شدة" نفس من الجوزة شدّها بضمير فأسعلته وأغرقت عينيه بالدمع وأنفه بالمخاط.. قال إسماعيل:

- وابوك جناوى معاهم يا ولدى!
قلت وقد هرّنى الخبر.. وارتجف قلبى من الخوف:
- قناوى ابو مريم؟
- إيوه.. أبوها!

- ومريم عارفة؟

- لا يا ولدى الشهادة لله.. مريم مرضانة وراكبها الجن يا ولدى!

الآن حصص الحق وعرفت كل شىء يا على فتدبر حالك. العطار
يتاجر فى الممنوعات وتطارده الحكومة.. وما هذا الوجه الصبوح الضحوك
الورع إلا قناع مصنوع يتخفى الحاج "الطاهر" من ورائه!

.. لكن علاء وهدى كنزان لا يفنيان ولن أفرط فيهما مهما كان.. الحاج
يتاجر؟ فليتاجر وليحمل وزره فوق ظهره وحده.. أما علاء فلن أفرط فيه ما
حييت.. فلتنذهب المخدرات والحاج والحكومة وعبد الستار والصقراوية إلى
الجحيم.. أما علاء فلا.. إلا أن الرياح ما كانت أبدا تأتي على هوى السفن!
.. قبل أن أتركه دائخا أترنح أكاد أنهار على الأرض.. يلقى إسماعيل فى
وجهى قنبلة المؤجلة:

ويتاجرون فى النساء أيضا يا ولدى!

الكتاب الثالث

”بيت الأسطى“

الفصل الخامس عشر

مزداد اللحم

"يتمايل الحاج بجسده فى حركات كحركات النسانيس..
فيستدير بظهره للجالسين مبرزاً مؤخرته.. خابطا الكفين
على الإليتين.. يقهقه الجالسون بعنف.. ينطلق صوت من
بينهم: عجبن الفلاحة يا حاج!"

٤٦

أدخل إلى الحديقة.. فأجد الباب الحديد مفتوحاً على مصراعيه على غير
العادة. دخلت فصرع الضوء الساطع بؤبؤى عينيّ فأغلقتهما على الفور اتقاء
للضوء.. ثم فتحتهما ببطء.. فاعتادت الضياء.. ما هذه الكهارب المنتشرة فى
كل مكان؟ ما هذه المصابيح المدلاة من أغصان الشجر كالأقمار فى ليال
التمام؟ أعند العطار احتفال ما؟

أردت أن أمضى فى طريقى المعتاد لأصل إلى البوابة الزجاجية للفيلا
كيما أصدق إلى علاء إلا أن يدا فولاذية ثقيلة امتدت فقبضت بعنف محسوب
على ذراعى فالتفت مذعوراً لأراه.. عم إسماعيل:

- يا ولدى.. جيت ليه دلوجتى!
 - فيه إيه يا عم سيماعين.. عندكم حفلة ولا إيه؟
 - تعال يا ولدى.. تعال الله لا يسينك خل يومك يعدى على خير!
- جرّنى إلى الخصّ جراً فأدخلنى عنوة وأغلق الباب:

- اجعد هنا ودنك ساكت يا ولدى.. إوعاك تطلع برّه!

- طيب فين علاء وهدى والجماعة أوّمال؟

- الحاج سقرهم مصر!

- حفلة إيه دى؟

- ده" مضاد" يا ولدى.. مضاد!

- مزاد ازاي يعنى؟ طيب ها أتقرّج!

- لا يا ولدى.. لو شافوك موش ها يحصل طيب!

تركنى كامنا فى ركن قصى من الخصى ومضى يخدم الجالسين. كانت الحديقة قد امتلأت عن آخرها بالموائد والطاولات من جميع الأحجام.. وفوقها زجاجات شراب مختلف الألوان والأنواع.. وكؤوس بلورية من زجاج شفاف دقيق فائق النعومة كلما انعكس عليها الضوء تبرق.. وأطباق من الخزف المشرشر المزخرف عند الحواف فارغة تنتظر الامتلاء.. وخدم سود ارتدوا أزياء كأزياء الفراعين التى يراها على فى مجلات علاء فتسحره. كانوا يجوبون الحديقة فيمرون على الجالسين يملأون لهم الصحون والكؤوس بكل ما لذّ وطاب من صنوف الطعام. شممت رائحة الطعام فسال لعابى ومغصت بطنى من الجوع.. لكنى تصابرت.

حول المناضد جلس رجال جاءوا من كل أنحاء الدنيا.. عرفت من لكناتهم الغريبة أن منهم المصريين ومنهم ما دون ذلك.. تحلقوا حول المناضد فعلت أصواتهم فى لغط وصخب بلغا عنان السماء.. أى نوع من المزايدات هذا يا ترى؟ فى وسط الحديقة.. بجوار فسقية الوحش الذى يبيخ من بطنه الماء على الناس.. نصبت منصة هائلة مستديرة لها سلالم خشبية من جانبيها ومن أمامها ومن ورائها.. وفرشوا أرضية المنصة ببساط أخضر سندسى من

حرير .. وفى الركن جلس "تخت" من الموسيقيين ارتدوا بدلات سوداء على أكمامها شرائط مذهبة.. واعتمروا فوق رءوسهم قبعات عجيبة كالطرابيش التى سقط منها الزر.. كانوا كالمساخيط.. أو كتماثيل الشمع الصامته التى رأيتها فى مجلات علاء.. وأمسك كل من أعضاء التخت آله الموسيقية؛ فهذا عود، وذاك قانون، وتلك طبله، وهذه كمنجة.. تلك الآلات التى كم أدهشت عليا وهو يتابع أغانى أم كلثوم فى تليفزيون أبلة بشرى.. فتساءل على: هل أم كلثوم ستغنى هنا؟ لا.. لم تكن أم كلثوم.. بل جاءوا براقصة! ينظر على- المختبئ فى ركن مدفوس داخل الخص- فيرى الحاج العطار صاعدا إلى المنصة.. فتسكت الأصوات جميعا..

لكن ما هذا؟

فرك على عينيه غير مصدق ما يرى.. أهذا هو الحاج حقا؟ فماله يرتدى تلك الملابس الغربية المضحكة؟ بيجاما فضفاضة مخططة فاقعة الألوان.. أحمر نارى فى أصفر ملعلط فى أزرق داكن فى أخضر زرعى.. وفوق رأسه قبعة اسطوانية سوداء.. وفى القدمين حذاءان برتقاليان مدببا الطرفين بمقدمة كل منهما لوزة صغيرة بيضاء تعلقت بالحدائين بخيطين من كتان يتعثر فيهما الحاج فيسقط ثم يقوم.. ويضحك الناس! كان الحاج كمهرجى السيرك الذين أماتونى من الضحك وأنا فى حزن بشرى التى كانت تضحك هى أيضا فتضغط على "اللب" تقزقه بشراهة.. وتهمس: شايف "البلياتشو" يا على؟ يمسك الحاج بالميكروفون المنصوب على عامود من الحديد اللامع.. ينفخ فى كرة الميكوفون نفختين.. "هوف.. هوف".. ثم يصقّر بشفتيه.. ويقول بصوت مبجوح:

- إليكم الآن القرد اللوزعى.. والشيمبانزى الألمعى.. الحاج العطار
الأبهة المجدعى!

يتمايل الحاج بجسده فى حركات كحركات النسائيس.. فيستدير بظهره
للجالسين مبرزاً مؤخرته.. خابطا الكفين على الإليتين.. فكأنه قرد جلبوه من
حديقة الحيوان ليرقص.. يقهقه الجالسون وينطلق صوت من بينهم زاعفا:
- عجين الفلاحة يا حاج!

يجلس الحاج العطار على ركبتيه.. فيرفع رأسه وصدرة إلى أعلى ثم إلى
أسفل باسطة يديه إلى الأمام.. ثم يطلع وينزل كأنه يعجن فاسأل نفسى:

- لماذا يتمسخر الحاج هكذا؟ أى مزاد هذا؟

يصرخ صوت آخر من بين الجالسين:

- نوم العازب يا حاج؟

يتقلب الحاج على ظهره وبطنه وجنبه.. فيقذف أحد أعضاء التخت له
بوسادة يضعها بين فخذه ويلعب مع الوسادة لعبة الفحشاء.. فأتذكر بشرى و
يستبد بى الغضب.. يصرخ صوت ثالث:

- أيوه أيوه.. إدينى أكثر يا حاج.. ياللاً رقصة المجنونة الله يكرمك!

يخلع الحاج القبعة.. ويعبث بشعر رأسه فينكشه نكشا.. ويظل يدور
ويدور كالنحلة.. ويرقص مقعدته ويفتح للجالسين عينيه على اتساعهما..
ويفرد أصابع كفيه بجوار شحمتى أذنه مخرجا لسانه للجميع.. ثم يبصق
عليهم.. ويميل فيخرج من مؤخرته فرقة صنعة بشفتيه المضمومتين إلى
الأمام.. ثم ينحط على الأرض متصنعا البكاء.. فينفجر الجالسون كالبركان
فى ضحك هيسيرى مزلز.. ينهض الحاج فيشاركهم الضحك لاهثا.. فيسأل
على نفسه: هل أصاب الحاج مسّ من جنون؟ لماذا يهزل الحاج الوقور

الرزين المحترم كل هذا الهزل؟ أى مزاد هذا يا ترى؟.. ثم تصعق عليًا الحركة التالية؛ يخلع الحاج العطار كل ملابسه.. فيصير عاريا كيوم ولدت أمه.. ويعبث بعورته أمام الجالسين.. بينما يغطى عينيه بكفيه متصنعا الخجل.. يضحك الجالسون مرة أخرى ويقترب الحاج من الميكروفون ضاحكا لاهثا ويقول من بين سعلاته المتقطعة:

- والآن مع الراقصة البقلاوة.. صاحبة العصمة والدلال والشقاوة..

سنّا وتاج راسنا عزيزة حلاوة.. أرجوكم صفقوا لها تصفيقا حادا! يصفق الجالسون.. فيبدأ التخت فى عزف" يا خارجة من باب الحمام وكل خد عليه خوخة!".. تدخل راقصة ترتدى ثوبا مقطعا من أسفله إلى شرائط رفيعة وخيوط لا تكاد تخفى عريها.. وتروح تقطع المنصة جيئة وزهابا.. وكلما رفعت بيديها الشرائط إلى أعلى هلّل الجالسون وصفقوا وقرعوا كنوسهم بعضها ببعض. تعلّقت بها أعين الجالسين وتسمّرت فكأن المرأة المهترئة اهتزازا مرعشا قد سلبت عقولهم.. تنزل المرأة من المنصة فتدور على المناضد.. وتشرب جرعة من كأس هذا.. وتلكز هذا فى بطنه.. وتقرص ذاك فى صدغه.. ثم تتناول أوراق النقد الكبيرة التى يمدون أيديهم بها إليها فتدسها فى صدرها.. وتصعد إلى المنصة من جديد.. فيتساءل على: أى مزاد هذا؟ .. تنهى الراقصة نمرتها.. فتمضى رافعة يدها بالتحية للجالسين الذين أهلكوا أكفهم تصفيقا لها وشفاهم تصفيرا.

.. تصعد إلى المنصة امرأة أخرى.. عجوز.. دهنت وجهها بكل ألوان الطيف.. منفوخة الجسد.. ممثلة.. سمينة الأعطاف والبطن.. هائلة المؤخرة.. وثدياها الخارجان كلهما من فتحة صدرها بالكامل كانا كثنبي بقرة ولدت لتوها وأوشكت على الإرضاع.. كانت ترتدى فستانا مطرزا بخرز لميع

يتجاوب مع شعاعات الضوء فيتألأ.. تمسك بالميكروفون وتتكلم بصوت محشرج.. خشنه التدخين الدائم والحشيش والدخان.. كان صوتا لرجل أكثر منه صوتا لامرأة.. تقبض على جرس نحاسى كجرس مدرسة "الناصرية" لكنه أصغر وأكثر بريقا. تأخذ المرأة العملاقة شهيقا صعبا فتخرجه زفيرا مصحوبا بالألم.. تدق الجرس بملعة طعام فضية.. وتسعل.. ثم تقول:

- فتح المزاد.. لدينا هنا يا محترمون بنات من كل حذب وصوب..

جلبناهن لكم من كل أنحاء الدنيا.. فمن يرغب فى الشراء.. فليكتب رقم البنت والسعر الذى يعرضه على البطاقة التى أمامه.. وسيكون الفائز ذلك الذى كتب السعر الأكبر.. فليأخذها ويطير هنيئا مريئا حلالا بلالا وليذوب معها فى عرق العافية إن استطاع!

تنظر المرأة إلى خلف المنصة وتصرخ فى ميوعة:

- يالآ يا بنات...!

تصعد إلى المنصة نساء عاريات إلا من رقاقة رقيقة من ستان ناعم أبيض تغطى صدورهن مكتوب عليها رقم البنت.. وتحت الرقم السعر المطلوب فيها. يفعل الجالسون فيصرخون فى جنون.. وتبدأ البنات فى الدوران بخطوات محسوبة فيتذكر على أبقار حظيرة الصقراية التى تدور فى السواقى ليل نهار معصوبات الأعين مكدمات الأفواه. تمسك البنت بالتدبين فتقلبهما إلى أعلى وإلى أسفل فكأنما تقلب قماشا أمام زبونة تغريها لتشتري.. وكذلك كن يفعلن بالأرداف والأفخاذ والمؤخرات والألسن شديدة الاحمرار.. تنتنى البنت فيرى الجالسون الأجزاء الحميمة التى ستجعلها تباع بالثمن الأعلى.. يصفق الجالسون ويصفرون ويتصايحون ويمسك كل واحد منهم

بالقلم المرمى أمامه ويسجل الثمن الذى سيدفعه. يهز على راسه متعجبا
ويحدث نفسه:

آآآآ ه.. يا عطار الكلب.. هذا إذن مزاد تباع فيه النساء للرجال!
تسكت موسيقى التخت.. وتتكلم المرأة السمينة.. فتتهذى بطرائف ونكات
وقفشات بذينة سمجة لم يفهم على منها الكثير.. إلا أن الجالسين كانوا
يفهمونها فينطلق من حناجرهم ضجيج جبار.. ويصرخون:

- واحدة كمان والنبي يا "أسطى"!

أشعر بيد حانية تمس كتفى فالتفت فأرى عم إسماعيل وقد حملت يداها
طبقا مترعا بطعام لم أره من قبل.. وشرائخ من فاكهة مقطّعة على هيئة
مكعبات وأهلة فيسيل لعابى.. وأنظر إلى إسماعيل ممثتا.. فيتمتم لى:

- كل يا ولدى.. زمانك جوعان!

- مين الناس دى يا عمّ سيماعين؟

- آهم ناس وخلص يا ولدى.. كل وانت ساكت.. وإياك حد يشوفك!

ألقى بعظمة البطة التى أجهزت علي لحمها تَوّا.. فأقبض على صدر
دجاجة محمّرة حريفة المذاق فأقضم ثم أمضغ فى استمتاع وينسينى الطعام
نفسى فأبرز بجسدى إلى خارج الخص وأقف لدى الباب.. يتساقط فوقى
الضوء فأصبح فى مرمى بصر الواقفين فوق المنصة.. وهكذا صرت مكشوبا
ولا أدرى.. أنظر فأرى البنات يتجمعن وسط المنصة فاتحات سيقانهن للريح
يعرضن بضاعة لطالما سلبت عقول الرجال.. يقتربن من بعضهن..
يتلاصقن.. صانعات من أجسادهن اللدنة جسدا واحدا عاريا فاضحا أخاذا
غارقا فى التعرّق الذى نشعت منه رائحة الشهوة العارمة الكاسحة فدوّخت
الجالسين.. فصاروا يشهقون فى حسرة ويطلقون الآهات. يصعد العطار

فيدهس بحدائه بغير اكتراث اللحم المتراكم.. تزعق البنات متألمات..
ويستغرق هو في ضحك مدو ويخاطب الجالسين في استعلاء:

- أليس لمثل هذا خلقت النساء؟

تسكت الموسيقى فجأة.. فتتقدم "الأسطى" العملاقة الجسد إلى مقدمة المنصة.. وترسل عينيها كسهم مسموم صوبته بإحكام فعرف طريقه بمنتهى الدقة إلى فريسة غافلة لاهية تمضغ صدر دجاج وتتلذذ.. أرسلت الملعونة عينيها إلى عينيّ على.. رأتها بنت الكلب واقفا منتشيا يتفّرج ويمصمص عظام بطة في استمتاع قبل أن يلقط من الصحن صدر "الفرخة" فصرخت:

- سمع هس.. والآن مسك الختام!

أشارت إلى ضاحكة متهللة وقد سبّلت عينيها:

- تعال لى يا نور عيني!

- مين؟ أنى؟

- إيوه انت أوّمال أمى؟.. تعال هنا يا وله!

ركبت روح على رعدة جبارة مفاجئة.. وملاه خوف شلّ أعضائه فلم يعد يقو على حراك.. أراد أن يهرب لكن قدميه التصقتا بالأرض.. امتدت إليه يد المرأة الفولاذية كصقر ينقضّ على ضحيته.. كانت أسبق منه.. سارعت كالرهوان فأمسكت بتلابيبى.. وحملتني كعصفور ضائع وصعدت بى إلى المنصة ثم صرخت:

- والآن مسك الختام.. وغاية المرام.. هذا صبى للبيع يا كرام.. فمن

ذا يشترى منى ذلك الغلام؟.. المزاد الآن برفع الصوت.. فهيا

تزايدوا!

.. فى لحظة كأنها البرق كان الحاج العطار قد طار إلى المنصة طيرانا..
ودفع المرأة فى صدرها فى غضب جامح فتهاوت على الأرض تتلوى مشدوهة
غير مصدّقة. قبض الحاج على عنق على وصاح:

- هيا هاتوا لى سكيننا.. سوف أذبح هذا الكلب أمامكم الآن.. فقد رأى
مالا ينبغى له أن يرى!

ساعتها ضجّت السماء بعويل كالهياج.. واهتزت الأرض كزلزال..
فتطايرت المناضد والطاولات وانهارت المنصة وتبعثرت العاريات فى الهواء
كريش دجاجة ذبحتها أم شفيق فسلقته وراحت تتنف ريشها المبتل.. هبطت
من الفضاء البعيد حبيبتى مريم صارخة فى غضب:
- اتركوه!

سحبت مريم عليًا من يده وسارت بين الجميع فلما أن رأوها ركعوا لها
خاشعين.. ألقت على الحاج العطار المقعّى على الأرض مبهوتا نظرة من
نار ودمدمت:

- أما أنت فحسابى معك بعدين أيها القرد!
.. رمقتى بنظرة عاتبة حانية وابتسمت.. ومدت سبابتها والإبهام ففركت
شحمة أذنى هامسة:

- موش قلت لك ما تجيش هنا تانى يا على!

لم أك أحسب أن هذه العجوز الشمطاء التي كادت تتسبب في ذبحى
 بحديقة العطارين- لولاك يا مريم- تقيم فى الفلاحة.. بل وفى بيت ليس
 يبعد عن الحارة. ولم أك أحسب أن كل من بالبلدة يعرفونها.. بل وكان بعض
 رجال حارتنا من زبائنهم الدائمين ويترددون على بيتها بانتظام. ولم أك من
 قبل أعرف أن بالبلدات- كبلدتنا وكذلك بالبندر- بيوتا تختلف عن بيوتنا..
 يسمونها" بيوت المتعة" إلى أن وقع بالحديقة ما وقع.. وفسد المزاد بسببى..
 قالت "الأسطى"- وقد خسرت رأسمالها- على نفسها إلا أن تنتقم منى
 وتعاقبنى أشد العقاب.. أرسلت رجلها القوى "المنجلاوى" يسعى فى طلبى.

- هاتھولى من تحت طقاطيق الأرض.. فاهم!

- هاجبيھولك ھوا.. يا "ستى"!

كان ذلك أهون طلب طلبته منه" ستہ". تسسل إلى الحارة.. رآنا نلعب..
 سأل العيال عن اسمى.. تعقبنى.. فأمسك بى وأنا أتحباً فى خرابة البغدادى
 من العيال ونحن نلعب"إثبت!".. عصب عینى بعصاة سوداء.. وكم فى
 بمندیل كریه الرائحة كنتم أنفاسى.. وجرجرنى.. فأوثق وثاقى من القدمين و
 الیدين.. حملنى "ھیلا بیلا".. ودفس جسدی فى جوال قديم معبق ببقايا القيىء
 الأدمى الذى يتقیأونه فى بيت الحريم وهم یسكرون ویلتحمون.. وكانت
 بالجوال ثقوب عديدة كى أنتفّس فلا أموت.. ألقى بى خلفه فوق حماره..
 ومضى یسیر ببطء:

- شى.. یا حمار!

.. نصل إلى بيت قديم عتيق ذى باب مخّلع الأبواب مفتوح على حوش
 به شوك ناتى یدمى الأقدام وزجاجات تهشمت ألقى بها السكارى المنتشون

من النوافذ وهم فى نشوتهم الكبرى. ألقى بالجوال إلى الأرض بلا حذر
فسقطت تكاد عظامى تتكسر.. وهتف:

- يا ام حمادة.. يا ام حمادة.. يا أسطى!

أستمع- أنا المحبوس فى الظلام والقيء والخنقة التواق إلى الهواء النقى-
فأسمع نساء يتصايحن ويهبطن على عجل فيهتز قلبى رعبا وهلعا.. يحملننى "
مراعبة".. إحادهن تمسك بساقى.. والأخرى بالساق الأخرى.. وثالثة بذراعى
اليمنى والرابعة بالذراع اليسرى.. يرفعننى إلى أكتافهن ويتصاحكن.. وتنزل
الخامسة تحتى فتقبض على الإليتين بيديها تساعد الأخريات.. ويبدأن
المسير.. يصعدن السلّمات الخمس الخشبيات فيصلن إلى الشقة.. وينزلننى
على الأرض بالراحة. يغرد منهن صوت ناعم فى تهتك:

- الواد بتاعك أهو يا معلمة.. تعالى.. هىء هىء هىء!

أحس بيدين قويتين تكان عصابة عيني فلا أرى.. ثم رويدا رويدا..
أرى.. فتقع عيناى المجهدتان عليها فأصرخ مفزوعا:

- موش انت الوليّة اللى....

- وليّة أمّا تولول عليك.. بتصرّخ ليه يا وله.. شفت عفريت؟

تقترب فنتشّممنى وتبعد أنفها منزعجة وتزرق فى متأففة وقد سدّت فتحتى
أنفها فى اشمئزاز وتصرخ متقرزة:

- إيه ده يا واد.. انت عملتها على روحك؟

تتلفت حوالها فتشير إلى بنت بيضاء حمراء ترتدى قميص نوم وردى
ينتهى عند الردفين فيكشف عن فخذها ومفتوح عند الصدر حتى أسفل
الثديين.. لم تكن البنت تكبرنى كثيرا.. لكنها بدت كامرأة فى الستين.. قالت
لها المرأة السمينة قبل أن تغادر داخلة إحدى الغرف:

- يالآ يا بتّ اقلعى وحدى الواد ده حمّيه.. واوعى يهرب منك!
أطلقت البنت ضحكة لم يسمع علىّ مثلها من قبل أبدا.. كانت ضحكة
من الحزن الشفيف المغلف بفجور مصطنع.. وعهر ليس كأى عهر.. عهر
طاهر.. نظيف.. مغسول بدمع العيون وحشرجات الليالى:

- هىء هىء هىء.. ياللا يا روح خالك تعال احمّيك!
حمام بيت "الأسطى" كان معجزة خالصة.. عالما من النور الأحمر
الزاق والنظافة والفخامة والشهيق والزفير اللذين ينفثان فى الجو بخارا كبخار
الماء المغلى. لم يكن الحمام حمّاما واحدا، بل عشرة حمّامات فى حمّام واحد.
كنت إذا انتهت معك الصالة تعرّج على يمينك فتجد "الطريقة".. دهليزا طويلا
مضاء بضوء أحمر خافت لا يصل إلى الأرض فيسود الأرض الظلام. لا
ترى موطىء قدميك وأنت ماشى.. فتضطر للسير الهوينا كى لا تتعثر خطاك
فتسقط. كل نور بيت "الأسطى" كان أحمر.. بيتا من الاحمرار الذى يملأ
النفس بالهياج والانتعاش والرغبة والغموض. على يمين الطريقة تراصت
حمّامات منخفضة الأسقف تحنى لها رأسك وأنت داخل.. وليس للحمّامات
أبواب.. بل ثمة ستائر من مشمّع رقيق شفاف كيما يرى السائر فى الطريقة
كل نشاط محموم يجرى داخل الحمّامات العشرة. شرحت لى المعلمة فيما
بعد- عندما آنستى فأحببتى- السر وراء عدم تركيب أبواب.. وسبب تلك
الشفافية الكاشفة الفاضحة الصريحة.. قالت ضاحكة:

"يا على.. الرجالة عينيه زايغة.. يحبوا يتلصصوا علينا واحنا بنستحمّا..
يجبوا يقفوا هنا قدام الستارة من دول.. ويبصوا على البنات.. ويجروا جرى
على الغرف اللى جوّه يفصّوا حمولتهم.. بدمتك يا علىّ يا ابنى موش أنا ها
خد ثوابهم برضه؟"

داخل كل مستطيل تراصت بانتظام مستلزمات خمسة لا غنى عنها للمستحمين.. طست نحاسى كبير لامع.. طبق صاج مسطوح فى وسطه مكعب صابون معطر عطرا خفيفا كانت المعلمة تسميه "نابلسى".. ثم منشفتان هائلتا الحجم حمراوا اللون.. كرسيان خشبيان قصيرا الأرجل لكل منهما مقعدة ناعمة حمراء.. وأخيرا كوز اللوف الأصفر الفاتح، الذى نصفه ناعم والنصف الآخر خشن. أترنّج من ألم العظام والجوع والخوف.. تقتادنى "هنيّة" فندخل واحدا من المستطيلات.. تتعرى بسرعة من قطعة الثياب القصيرة الحمراء.. ثم- وببيدين مدينتين مجريتين- تتضو عنى ثيابى بسرعة فائقة فأصير عاريا مثلها. عاريان فى حمّام واحد فماذا ستكون النتيجة؟ أحملق فى كل شىء بها فتصرخ بصراصة مفاجئة:

- عيب يا وله.. إنت لسه صغير على الحاجات دى!

تمر "هنيّة" على كل جزء فى لحمى فتفركه باللوف فى منتهى الإلتقان.. أتعجب: كيف لم ينتقل إليها شبق روحى؟ كانت لاهية عنى سارحة فى دنياها البعيدة.. تمضغ العلكة المعطرة بين أسنانها بغلّ ظاهر فكأننى لست موجودا هنا. كنت فى يديها كرضيع أوكلوا إليها تنظيفه فراحت تتنّف. أنظر فى عينها فلا أراى.. تنتظر فى عينى فتبتسم وتهمس:

- يا خراشى يا وله.. عينيك حلوة وتندبّ فيها رصاصه!

تتعمد حشوعينى برغاوى الصابون كى لا أبهلق فى عريها الأبيض الأحمر الأسود المدهش.. ينقطع حبل أفكارى اللئيمة الحاملة.. فأصرخ من ألم الرغاوى. وساءلت نفسى: مال هذه البنت باردة هكذا كلوح تلج؟ مالها ليست كبشرى؟ بعد أيام عرفت الإجابة: هنيّة هنا منذ الصغر وعركها الرجال بقسوة

فعركتهم باستسلام.. وكرهت كل الرجال.. وهاهى الآن لا ترى أمامها سوى"
عيل" قالت لها المعلمة: حميه!

تفتح المعلمة الستار علينا فجأة فيتهلل وجهها فرحا:

- يا حلاوة يا ولاد.. ما انت زى الفل أهو يا واد.. خد البس!

تقف فى وجهى بكومة من الهدوم.. فلا تمهلنى هنية لأتلقفها بل تتلقاها
هى فتكمل مهمتها.. ألبستى بيجاما حمراء نظيفة على "قدى" بالضبط..
أندش فأسألها:

- جبيتوها منين البيجاما دى؟

- بتاعة عزيز ابن عزيزة.. ماهو قدك يا مضروب على عينك.. بس
انت أحلى منه يا وله!

تحشر جسدى فى البيجاما الحمراء وجسدها فى القميص الأحمر.. نخرج
معا.. فتستقبلنا "زفة" من البنات اللاتي تحلقن حول "الأسطى" فى دائرة
حمراء.. تغنى الدائرة مع تصفيق حاد: "يا خارجة من باب الحمام وكل خد
عليه خوخة!".. أسمع فأذكر التخت الذى كنت أسمع إليه قبل أيام فى
حديقة العطار.. فأين الراقصة اللولبية يا ترى؟ آآآآه.. ها هى هناك.. واقفة
وجسدها إلى الحائط فى زاوية الصالة تراقبنى عن كثب.. كنت أرتدى بيجامة
ابنها الوحيد فكيف لا تراقبنى؟ تتناقل الأسطى عزيمة الأرداف فتجلس فى
أقرب مقعد وأمامها سماط ممتد رصت فوقه أطباق طعام.. تسارع البنات إلى
الطعام يتخطفنه ويمضغن فى نهم ويمسحن أفواههن فى الأكف وفى الأرداف
وفى لحم الأذرع البيضاء البضة اللدنة ويضحكن. أنظر إليهن فيسيل لعابى
أكاد أموت.. ترانى المعلمة.. تشهق وتخبط على صدرها كالتى نسيت الشىء
الأهم:

- جعان يا نن عين امك.. تعال يا حبيبي كل.. وسّعى يا بت انت وهى .. قبر يلّمك منك لها!
- أحشر الأكل فى فمى على عجل حشرا.. أبلع بلا مضغ فيتناثر الرذاذ على صدرى فتلكزنى الأسطى ضاحكة:
- يا واد بالراحة.. ما تاكلش فى آخر زادك.. هو الأكل ها يطير؟
بالمتعة الشبع.. بالهناة الامتلاء.. بالبهجة الارتواء بعد ظمأ قاتل وجوع أقتل. فجأة أتذكر أنى مخطوف فأنتبه وأتعجب: لماذا لا أشعر بالخوف؟
أنظر إلى المعلمة متسائلا:
- إنتو بتتبعوا إيه هنا يا خالة؟
تضحج الصالة بضحكات كالبركان.. حتى أن المنجلاوى الغارق فى شيشته ضحك هو أيضا.. قالت الخالة:
- هىء هىء هىء.. بنبيع حب يا عين أمك!
.. فضحكت الصالة من جديد. ولم تكن الصالة وحدها من ضحك.. بل تسربت إلى أذنّى ضحكات الجدران والحجارة والرجال الكامنين فى الغرف المغلقة على الأسرة ينتظرون "الدور" .. كانت الغرف الغارقة فى "الحب!" كلها تضحك.. نظرت المعلمة نحوى فى عطف:
- والله يا واد أنا قلبى انفتح لك.. ضحكتنا يا مزغود.. أنت اسمك علىّ موش كده؟
- إيوه..!
- زمان امك قلبها محروق عليك يا قلب امك!
- أومال خاطفنى ليه يا خالة؟

يقهقه المنجلاوى الذى كان يرمى المعلمة بنظرات ذات مغزى.. ويدمدم
متهكما:

- عشان نحمّيك فى الحمّام يا عين امك!
- تضحك البنات فتصرخ فيهن "الأسطى" فى غضب يخرسهن جميعا..
- نظرت إلى المنجلاوى.. وشخّطت آمرة:
- قم فز على حيلك يا عزة الرجالة رجّعه لومّه!
- إنت اتهبلتى فى مخك يا وليّة.. ولما يتكلّم ؟
- ولولو عليك ساعة وانفضّت.. قم فز قلت لك!
- طيب ولو قال لهم اللّى حصل؟
- موش ها يتكلم.. موش كده يا على؟
- لا والله ما هاقول لحد يا خالة!
- وها تيجى لنا تانى يا على.. موش كده؟
- آه.. كل يوم!
- ضحكت البنات فهمست إحداهن:
- الواد باين عليه وقع ولا حدّش سمّى عليه!
- ينهض المنجلاوى متثاقلا فنقول له المعلمة:
- ابقى عزّفه بييجى هنا تانى ازاي!
- تغطس كفى الصغيرة فى كفه التى كخف الجمل.. يصحبني.. نخرج..
- تلنقى عيناى بعينىّ المعلمة.. فأبتسم مبتهجا وتبتسم بتواطؤ.. فأعرف أننى
- سأعود إليهن قريبا. وكأنها قرأت أفكارى فهمست:
- ها تيجى لنا تانى يا على!

يتركنى المنجلاوى عند أول الحارة عند باب الجامع الكبير.. وكانوا قد
أدوا العشاء فخرجوا.. أجرى.. فلا أعود إلى البيت.. بل تقودنى قدمائى إلى
بيت العجوانى.. تتلقانى مريم فاتحة ذراعيها فى حنان:

- كنت فىن يا على.. أمك قالبة الدنيا عليك.. وأبوك ها يتجنن!
- يتجنن ولا يولع.. إسكتى ع اللى شفتو يا مريم!
أجلس بجوارها على الفراش.. فتضمّنى.. وينساب تيار من أمان وسلام
وسكينة يغمر روحى.. أدفس رأسى فى صدرها وأحكى كل ما جرى لى..
تبتسم:

- وها تروح لهم تانى يا عفريت؟ والله ما انت جاييها البر!
- ها روح يعنى ها روح!
- طيب روح وابقى سلّم لى على هنيّة الغلبانة!
تلجم المفاجأة لسانى؛ أوتعرفين هنيّة أيضا يا مريم.. أليس فى الكون
شئ أبدا لا تعرفينه يا بنت العجوانى؟ تبتسم.. تدغدغنى فأضحك وتضحك:
- بس ماتتنساش تحكى لى كل حاجة.. فاهم؟
- ماشى يا سنّى!

الفصل السادس عشر هنية

".. حتى عندما كانت تنهار - وهى تتاجيه - فتبكى .. كانت دموعها نظيفة .. فيخرج على لسانه .. ويمتص الدموع بلهفة العطشانيين ..
تضحك منبهرة .. وتهمس: والنبي انت طيب يا واد يا على!"

٤٨

" الدهشة" .. كانت الإحساس الذى سيهيمن عليك فيحتل روحك ويستعمر وجدانك إن أنت قدر لك أن تفقد قدمك فتدخل بيت "الأسطى". كان بيتا للمتعة وتفانين الهوى الرخيص ممزوجة بالحزن المقيم. رقصات النساء وتهكتهن وشهقاتهن المصطنعة لم تكن سوى صرخات لراغبات فى الخلاص صادرة عن بشر ركلتهن الحياة، فأوجعتهن وأوغلت فى الإيلام.
جرت رجلا على البيت.

فى البداية كانت الزيارة مرة واحدة أو مرتين فى الأسبوع .. فلما أن وقع الجميع فى إيساره، فلم يعد ممكنا الاستغناء عنه، صار يروح لهم كل يوم. اكتشف - فى إحدى مرات هروبه المتكرر من متعقيه الراغبين فى ضربه بالبيت والمدرسة والحارة - فتحة فى جدار المدرسة مخبوءة خلف شجرة وغطتها الأوراق المتساقطة المهملة .. كانت الفتحة باب النجاة له من الجحيم اليومي المستعر. يدخل بيت الأسطى فى الصباح .. حيث البنات فى أوقات فراغهن من "الشغل". يكدحن طوال الليل فإذا أتى الصباح ينتظرن انتصاف

النهار ويستيقظن كسلانات.. دائخات.. متألّمات العنق والأكتاف والأجناب
والسيقان والعظام .. مصدوعات الرعوس.. مكدرّات المزاج.. فيطلبنه:

- تعال يا واد يا على.. كبّسنى!

شرحت له الأسطى بالتفصيل أصول "التكبّيس" .. فاستوعبها كالعفريت فى
جلسة تدريب واحدة.. أدّهشتهم جميعا مهارته.. "أصابعك مرهم يا مضروب!"
هكذا كنّ يهمسن له بعد أن يستلقين أمامه على البطن ليبدأ تجواله السحرى
فى اللحم اللدن المنهك. يبدأ التدليك دائما من أعلى الرقبة بأربعة أصابع؛
إصبعين يذلكان الجانب الأيمن واثنين للأيسر.. نصف ضغطة هنا.. ربع
ضغطة هناك.. ثم تسرح الكفان كثعبان أملس إلى تحت.. إلى بقية الجسد
المسترخى فى استسلام. تصلان إلى الكتفين.. هنا يجب أن يصبح التدليك
بالأصابع العشرة كلها مع الاحتفاظ بوتيرة واحدة فى المسح ببطن الكف مع
فرد الأصابع ثم ضمّها.. فإذا ولجنا إلى منطقة الظهر يتحول التكبّيس إلى
القفز من فقرة إلى فقرة فى سلسلة الظهر مع لمّ الفقرة بإحكام بين السبابة
والإبهام.. وينبغى الانتقال من الفقرة للأخرى بنعومة وسلاسة ودون مفاجآت
موجعة:

- آآآآآ.. آيوه.. هنا بالظبط يا على.. ياللا اضغط جامد يا وله..
لا..

لا.. بالراحة شويّة يا "سيدى".. آيوه.. كده تمام.. تسلم إيدك يا حبيبي..
يا سلام!

كانت الأسطى- العليمة بطباع بناتها، اللاتى تربّى معظمن على يديها،
المحيطة بفراغة عيونهن، المعقورة بسعار فتحاتهن اللاهبة، التى لن يملأها
إلا التراب- قد أصدرت فرمانها الحديدى فأصبح ميثاقا مقدسا التزمت به

البنات الالتزام الكامل.. ما عدا هنيئة التي كان لها مع على لحظات انسجام
لن ينساها الصبي أبدا. قالت المعلمة للبنات:

- " الواد لسه صغير.. ومسئولية.. بلاش قلة أدب معاه!"

الفرمان كان مختصرا مختزلا بليغا وحازما كالسيف البتار فوق رقابهن
التي برع على في دلکها ولا أمهر "مدلکاتی" . تصل الکفان إلى بداية استدارة
العجز.. فتضحک البنت محذرة عليا في دلال:

- إيدک يا معلم.. لحد هنا وكفاية يا بطل.. المعلمة تخنفنى.. هىء
هىءهىء!

..لكن..أحيانا كان على ينسى نفسه، أو يتناسى، فيرغب في اقتحام
الغابات الكثيفة. كان حينئذ يتذكر شراة بشرى التى سمحت له بولوج
مناطقها السبع.. وبكل شىء.. لكن هنا كان الأمر مختلفا.. يتشج اللحم بين
يديه فجأة.. يرتعد.. تعلن المؤخرة رفضها فتتمرد وتتصلب.. وتصرخ فيه
البنت غاضبة غضبا حقيقيا:

- " قلنا كفاية يا عين أمك. ده دى!"

فكان يسائل نفسه: لماذا هن رخيصات للجميع متاحات لكل من قادته
قدماه إلى هنا فإذا وصل الدور إلى أنا يتمنن؟ سأل فوجد الإجابة عند
مريم.. قالت:

- " يا على.. إنهن معك يبحثن عن لحظة طهر نادرة في حياتهن
فلا تسرقها منهن يا حبيبى!

رسم على خطته المحكمة كالتالى: يحيى العلم مع العيال فى الحوش
 ثلاثا: تحيا الجمهورية العربية المتحدة.. تحيا الجمهورية العربية المتحدة..
 تحيا الجمهورية العربية المتحدة.. ثم يدخل الفصل فيتحمل عذاب الجلادين
 لحصة دراسية واحدة.. يسمع بترقب دقة الجرس النحاسى مؤذنة بانتهاء
 الحصة.. يرى الأستاذ يخرج ليذخن سيجارته خارج الفصل.. يتوجه إليه
 مصطنعا الألم.. واضعا يده اليمنى فوق بطنه.. واليسرى فوق الشئ الذى
 أسفل بطنه.. يتمتم من بين أسنانه.. مغلقا عينيه:

- موش قادر يا افندى.. موش قادر.. ها اروح "الدورة"!

- غور يا ابن الصرمة بسرعة.. ملعون أبوك!

يجرى كالرهبان فلا ينسى أن يدمدم لنفسه:

- ملعون أبو اللى خلفتك!

ينزل الحوش.. يتسحب بجوار الجدران كقط أجرب يهرش تخلصا من
 تميل لحمه.. يصل إلى الحفرة السحرية.. و.. حانت لحظة الحرية.. ينطلق..
 يحرص أن يغيب عن أعين الناس المحيطين بالمدرسة.. لو أن أحدا رآه
 فسيصرخ ويفضح الدنيا: "إلحقوا الواد ده طفشان من المدرسة!".. وساعتها
 سينقلب ميزان الكون كله.. بعد دقائق يكون فى بيت الأسطى ليدلك البنات
 ويسمع الحكايات!

تراه الأسطى فتضحك سعيدة به:

- تعال كل لك لقمة يا وله!

يزرد الطعام بسرعة.. ويتكلم فيفتفت.. وتتناثر حبات الطعام خارجة من
 فمه.. ويسأل ملهوبا:

- هـى " هنية الطرية" هنا ولا خرجت؟

- آهى مرزبة عندك جوه.. أنا عارفة انت بتحب البنـت دى على إيه؟

هنية غواها الشيطان فى بلدتهم البعيدة عن "الفلايحة" تحت الكافورة بجوار التـرعة فى نهاية نهار أغبر بعد طول عناء فى لم اللطع.. انحنـت تقـطـع الورقة المكـدسة ببيض الدود.. لا شىء عندها يستر شيئاً.. جـلباب قديم مهلهل ليس تحته شىء سوى البياض المشرب بالاحمرار. بانـت المؤخرة الصابحة للـخولى المترصد منذ بداية الصيف.. كمن لها .. استفرد بها.. تـلـذـذ فتـلـذـذت.. خسرها ساعة آذان المغرب. وفى بلدتهم البعيدة من تـلـذـذ تموت.. هربت من القتل والفضيحة والجوع فزحفت على بطنها تبحث عن خن يؤوبها والتقطتها يدا "الأسطى".. كانت هى البضاعة الأكثر طلبا من الرواد الراغبين المكويين بنار الرغبة الوحـارة الباحثة عن التنفيس. " صغيرة وناعمة ونضيفـة وريقها حلـو".

تميزت هنية بميزات ثلاث جعلتها مقصد القاصدين؛ نعمة لم يجدها على أبدا فى أى واحدة من نسائه.. وكلما رقدت أمامه للتكبيس ما كان ليـجد عظمة واحدة نائنة بل لحما على لحم.. فسـمـوها عند الأسطى " هنية الطرية".. تلك هى الميزة الأولى.. فاما الثانية، فكانت شدة الصخب والضجيج والصراخ والجلبة ساعة اللقاء. الغافلون الغارقون فى لهائهم حسـبـوه صراخ متعة وهو صراخ استغاثات ألم تنتزعها البنـت انتزاعا من قاع القلب وحتى الكعبين.. فتخرج من الحلق أنات أنثوية كأنات الشهوة وما هى بالشهوة. وعرف على الميزة الثالثة عندما ألقت به الأسطى إليها لتحـممه يوم أن خطفوه.. النظافة عشقها الأكبر. كانت أنظف امرأة رآها على فى حياته. نظافة من يسعى دائما إلى غسل روحه من الدنس فلا يقتنع بأنه قد اغتسل

بجد فيعيد الكرة من جديد. قبل اللقاءات الحميمة- التي كانت تسميها " أكل عيشى يا على" نظيفة.. بعد انتهاء المهمة على خير نظيفة.. وهي تأكل.. وهي تمشى.. وهي تحتضنه عند الانفراد به نظيفة.. حتى حينما كانت تتهار- وهي تتاجيه فتبكي- كانت دموعها نظيفة.. فكان على يخرج لسانه ويمتص الدموع بشغف العطشانين للطهر.. تضحك منبهرة.. وتهمس:

"والنبي انت طيب يا واد يا على!"

بالنهار.. البيت ليس البيت الذى فى الليل. يتجول على بين الغرف فيرى
البنات عاكفات على التنظيف.. فمنهن من انكفأت على الحمامات تعيدها
إلى نظافتها المعهودة.. و من انحنت تمسح وتكنس الأرضيات والحوائط
بالماء والصابون.. و من رحن يطبخن بعد أن يكون "المنجلاوى" قد عاد
بحمارته من السوق محملاً بطعام يكفى حارة بكاملها.

وبالنهار.. البنات لسن هن البنات اللاتى فى الليل. لا طلاء على
الشفافة.. ولا أصباغا فوق الوجوه.. بل وجوه شاحبة هائمة فى دوامات الخوف
من المجهول القادم. الشعر الذى حفل بالأمس بكل الباروكات المصطنعة
عاد الآن سيرته الأولى.. معقوفا إلى الخلف فى إهمال "ديل حصان".. أو
ملموما "كعكة" فى كومة أمسك بها شريط مطاطى رفيع كى لا تنفلت منه
الخصلات. خلعت البنات الأحمر والأخضر والأصفر فلا يرى على الآن
عليهن إلا جلابيب باهتة واسعة مرهطة. كنّ نساء بلا تدويق ولا عطور ولا
ادعاءات اقتضاها "أكل العيش".. كنّ كما هنّ!

وبالنهار.. الأسطى ليست هى الأسطى الليلية التى تقود كتيبة المتعة
كجنرال صارم عرك المعارك فعرخته فصار يكسبها الواحدة تلو الأخرى..
وأمر صارمة.. شخطات.. ضحكات ماجنة متهتكة.. بل وصفعات وركلات
إذا اقتضت الحاجة لزيون "نطح" امتنع عن الدفع أو تلكأ.. ساعتها تتحول
الأسطى الجنرال إلى قبضة من حديد.. وعينين من نار.. ولسان من غضب
الله.. تمسح بكرامته الأرض.. فيدفع صاغرا.. بل ويبيوس الأيدى والأرجل..
وأنذ نعود "حبايب" كما كنا.. فتضحك له الجنرال بعد أن يكون ثدياها قد

احتضنا المعلوم فاطمأنت .. حينئذ نلهو يا " عينيًا " ونلعب .. ولا مانع من أن نلذك لكزة في عصا رجولتك التى عادت للارتعاش بحثا عن رهز جديد:

- يا راجل عيب .. دا البيت بيتك. هو انت غريب!

- أنا خدامك يا قمر .. واحنا نقدر؟

يتردد صدى الضحكات المائعة فى أرجاء الدار .. فينتهى الموقف على خير دون الحاجة إلى تدخلات " المنجلاوى " الحاسمة.

.. فى الليل المعلمة ماكينة للمّ الفلوس .. وفى النهار ماكينة لإنفاقها!

و فى النهار؛ لا يا على .. ليست تلك هى المعلمة التى رأيت فى الليل .. تلك امرأة عجوز ستينية زائغة العينين .. تترنح من ألم الأسنان والمفاصل .. يمضى بها الوقت محطوطة على المقعد الكبير تهذى .. وأحيانا تنفلت منها نظرة حانية وتهمس لك:

- مصيرهم يعرفوا انك بتطفش م المدرسة وتيجى لنا يا على!

- يتحرقوا بجاز!

وبالنهار .. الغرف ليست هى الغرف التى أضاءها فى الليل شبق العيون
النهمة المتعجلة .. ولا أشعلها اللهب المتفجر فى الأعضاء التى شبت بعد
جوع .. ولا هى الغرف التى أتت من أُنات الألم أطلقتها أجساد تدعى
الاستمتاع غصبا تحت ثقل أجساد ضخمة لا هم لها إلا البحث عن المتعة.
فى النهار عادت الغرف غرما بلا شهقات ولا لهاث .. مقلوبة الأسرة رأسا على
عقب تترقب غسل "وسخ" القاذورات التى أغرقوها بها ليلة الأمس. ينظر على
فيرى الحاشيات والمراتب فى ناحية .. والوسائد فى ناحية .. والمفارش المدهونة
ببقع البياض المشرب بالصفرة فى ناحية .. والمحارم التى كرهت روائحها فى

ناحية. هذا نهار لإزالة آثار المعركة حامية الوطيس التى شهدتها الغرف ليلة
الأمس!

الغرف كانت صفا مصفوفا فى مواجهة صفّ الحمامات حتى إذا فرغ
المعبأون بالماء اللاهب من الإفراغ هرولوا إلى الحمام. سبع غرف.. فى كل
غرفة سرير صغير من حديد صدئت أعمدته.. وبالكاد يكفى شخصين فلا
تتوفر الراحة أبدا للمستلقين فوقه:

"إحنا موش جايين ننام هنا.. يالّا يا عين امك روح نام فى بيتكم.. فيه
غيرك مستتى!"

هكذا كانت تزعق فيهم "الأسطى" فينسحبون إلى الخارج مطأطئى الرأس!
.. ويجوار السرير "كومودينو" فوقه لمبة "سهارى" تضىء بالكىروسين.
أفهمت الأسطى عليّا أن "الموضوع ده" يستحسن أن يتم فى الظلام.. إذ
الضوء الساطع يكشف للزبون عيوب البنات. ثم هناك الطست النحاسى
ليغتسل الزبون على السريع فلا يترك خلفه رائحته النفاذة تؤذى البنات أو
الزبون القادم.. وهناك مشجب وضع أساسا للطرايش إذا جاءنا صاحب
طريوش.. فإن لم يأت فالمشجب للجلايب.. وثمة خزانة ملابس من ضرفة
واحدة تخزن فيها البنات "هدوم الشغل". وكانت أجمل الغرف غرفة هنية. كان
بها شيئان إضافيان؛ راديو ترانزستور صغير معلّق فى عامود السرير..
وصندوق خشبى بنى اللون به تصاوير قصّصتها هنية من مجلات ملونة
كان أحد الزبائن قد أتى بها معه فنسيها بسبب "اللهوجة"..

"الغلبان ما كانش له فى الموضوع خالص.. قام اتبرجل.. قام نسيها!"

قالت هنية لعلّى ثم ماتت من الضحك!

يدخل علىّ عليها الغرفة.. تراه.. فتبتسم:

- ما تخشش دلوقتي يا علىّ.. البلاط لسه مبلول.. خليك فى الصالة مع المعلمة..

ولما استحما وانصف.. أوبأه تعال!

تعرف الأسطى ما يجرى بين علىّ وهنية وتباركه. فى البداية اعترضت.. لكنها عندما رأت تحسن أداء البنت- التى أصبحت "بتجيب فلوس حلوة"- تركتهما. أكلت النار قلب المنجلاوى.. فشخطت فيه المعلمة:

- جرى لك إيه.. بنكسب من وراها كويس.. خليه يتحرقوا سوا!

روت هنية لعلىّ عن الشبراوى الخولى الذى خسرها شرفها.. وروى لها علىّ عن بشرى الحلوة التى خسرت براءته. تعجّب من ثورة غضب هنية عندما حكى ما جرى بين بشرى وبينه.. أدهشته الصرخة المستتكرة التى أطلقتها.. ومن الخطبة المؤلمة على الصدر اللدن:

- بنت ستين كلب.. تعمل كده مع عيل صغير.. موش عيب؟

- عيب إيه يا هنية.. ما انت طول الليل يعنى...!

- يعنى إيه يا سى علىّ إن شاء الله؟

- أقصد مع راجل شكل يعنى!

تتفجر هنية فى بكاء حارق مكتوم؛ وكأنه أهانها.. تنزوى فى ركن الفراش فتتوقع كقط منبوذ.. تدمدم:

- كده برضه يا علىّ؟

- معلش.. ما تزعلش والنبى يا هنية.. آدى راسك آهيه!

- دا أكل عيشى يا علىّ!

يحتضنها.. فيقبل رأسها.. فتسكره رائحة الصابون.

- ريحتك حلوة أوى يا هنية..

تضحك فكأنها هي الطفل وهو الكبير!

لم تكن تترك نفسها أبداً له.. فقط نظرات وهمسات ولمسات على السريع وحكاوى.. أما الموضوعه إياه ده فلا يعنى لأ.. "روح للجربوعة بتاعتك امشى!"
ينتهى العمل بالبيت فيصير "قلة" .. وتتصرف كل بنت إلى شأنها انتظارا
لقدوم الليل. ينفرد على بهنيّة بمباركة من الأسطى. ينظر فى عينيها.. تنتظر
فى عينيها.. ويفيض اللسانان بالكلام الذى من القلب. الهمّ واحد يا هنيّة..
والعذاب هو العذاب. أنت طفشانة من المهانة فى غيط بلدكم إلى مهانة أكبر
وأعس فى بيت المعلمة.. وأنا طفشان من مهانة الجلد فى المدرسة وفى
البيت وفى الحارة.. نحن متساويان.. هيا حظّى همّك على همّى وتعالى
نتسامر. وكان يحدث أحيانا أن يقتحم عليهما المنجلاوى الخلوة.. يقتله
الشوق.. تلفحه الرغبة.. تأكله الغيرة.. فيفتح الباب عنوة.. يراها مستكنة فوق
صدر على كأنها رضيع يتشم رائحة الثدى. يغضب.. يزوم.. يعتزم البطش
وهو البطّاش القديم.. تعاجله الأسطى بقبضة من حديد فى ظهره.. يلتفت
مذعورا:

- سيب الواد والبت فى حالهم يا "جلنف" .. مالك بيهم؟

يستسلم.. يكتّم ناره فى جنبه.. يدمدم شاتما المعلمة وعلّيّا والدنيا كلها
ويمضى. المنجلاوى يعلم أن أى شجار مع المعلمة الآن مآله الخسران.
المعلمة جبارة ولا قبل لك بها أيها الهارب من السجن ينتظر القبض عليه فى
أى لحظة فلماذا المغامرة بالشجار؟ ثم أنه يعرف أن المعلمة - رغم الأسنان
المهشمة وتيبس الأعضاء تشتهيّه - وتغار عليه.. تريده لها وحدها وسط تلك
الأكوام من اللحم الطرى المجانى.. يبرطم:

- طظ فى أبوكو كلكم!

تمد هنيّة أناملها التى نَعَمّها تكرر الاغتسال والعطر المجلوب مع الزبائن
فى السر من وراء الأسطى.. تدير مفتاح الترانزستور.. فينبعث الصوت
الشجى: " غلبت اصالح فى روحى!" تفرك عينيها المندأتين بالدمع.. تغرق
فى عينيهِ.. يغرق فى دموعها.. تغلق عينيها فيمد أصابعه يفتحهما عنوة.
يسمع دقات قلبها موسيقى فى أذنيه.. فيهمس:

- بصى لى يا هنيّة!
- أهو يا سيدى.. بصينا لك!
- يالآ.. فضفضى علشان ترتاحى!
- قل لى يا ابن المدارس.. من أين تأتى الراحة والنبي؟
- الراحة والشقاء توعم تاه واحدهما عن الآخر يا هنيّة!
- فمتى يلتقى التوعم توعمه يا على؟
- فى الخيال!
- فأين هذا الخيال؟
- فى فضاء روحك
- لكّنّا على الأرض؟
- ليس على الأرض سوى الألم يا هنيّة فارضى واصبرى!
- شقائى لا حدود له يا على..
- وشقائى أنا أيضا.. لكن ماحيلتنا؟
- والعشق يا على؟
- ألا تعرفينه فى أحضان رجال الأرض جميعهم هنا كل ليلة؟
- لا يا على.. بل أموت بدلا من المرة عشا مع كل شهقة!
- إذن أغمضى عينيك وأنت فى لحظات الضمّ وتخليه..

- أنت صغير يا علىّ ولا تفهم.. كيف للعشق والقذارة أن يلتقيا؟
- إغتسلى قبل الضم وبعده وانسى آلام الإثم!
- الرجال هنا قساة القلوب يا علىّ..
- بل هم كسيرو القلوب وجاءوا عندك يبحثون عن الراحة المفقودة
- مأوئهم فى بطنى نجاسة لا تحتمل يا علىّ..
- طهره أنت بماء روحك !
- كيف؟
- قولى لنفسك: هى ساعة شيطان وتمضى.. ولى بعدها الدنيا كلها
- أريد الفرار يا علىّ!
- من أين.. وإلى أين يا مسكينة.. وأنت التى بلا مستقر ولا مأوى؟
- مأواى جهنم وبئس المصير..
- بل مأواك الرحمة.. ولمن تكون الرحمة إن لم تكن لك أنت يا هنيّة؟
- كلامك حلو يا علىّ..
- عذابك أنت أحلى!
- والسكينة يا علىّ؟
- السكينة وهم جميل.. فتوهميها..
- معك أنت وحدك أحس بها..
- تعايشى مع اليأس وانسى نفسك
- وكيف تطاق الحياة إذن؟
- بالغرق فى بحار البهجة الكاذبة!
- فى قلبى نار يا علىّ..
- إذن ابلعى نارك قبل أن تبلعك.. ألم ترينهم يأكلون النار فى الموالد؟

- يؤلموننى كل ليلة.. فأتوجع.
- بسيطة.. اتركى لهم الجسد.. وعضىّ بالنواجز على الروح!
- وهل تتفصل الروح عن الجسد؟
- الجسد طين زائل.. وأما الروح فنور فيّاض.. فحافظى على نورك!
- فماذا عن نجاساتهم التى تغرق أحشائى كل ليلة؟
- قليل من الماء يطهرك!
- أغتسل كل ليلة فأتمنّى لو يسقط جلدى كله.. ألا ترانى؟
- أرايت.. ببعض الرغبة يزول الدنس!
- طيب.. ودنس الروح يا علىّ؟
- آآآآآ.. هذا دنس لا يغسله إلا الدم يا هنيّة!
- كلامك حلو..
- العبير المنتشر من روحك ألقى..
- يعلو صدر هنيّة ويهبط فتخلّق بروحها فى السماء.. تتسى نفسها فينحسر الثوب عن بياضها الشاهق.. ينظر علىّ إلى النضارة السائلة من كل شبر فيها فيشم رائحة الطهر تعبق جو الغرفة.. يهمس مسحورا:
- "ضمينى إليك يا هنيّة!"
- تأخذه بين ذراعيها فتهمصره هصرًا فيستكين ويهدأ.. تلمس مفتاح الترانزيستور.. فينساب الصوت الملائكى:
- "غلبت اصالح فى روحى علشان ما ترضى عليك"

يشعر على بدقات قلبه تكاد تتوقف.. وينشفان اللعاب فجأة. لقد رأى ما ألجم لسانه.. رأى الحاج مصطفى "فحل" بشرى يدخل من باب بيت المتعة.. وبين كفيه كيس ضخ من "اللب".. فتلتف حوله البنات صاحبات مزغردات.. تكاد عيونهن تطقّ من الفرحة.

كانت نفس على قد تاقّت لرؤية بيت الأسطى فى الليل.. ذلك الليل الذى يبدأ عندهن بعد انتصاف الليل. أجهد نفسه فى التفكير محاولاً إيجاد حجة ليبيت خارج بيتهم فلا يضربه أبوه عند العودة.. لم يجد حلاً.. فتدخلت السماء. مات جدّه لأمه.. فسافرت الأم المحزونة والأب المضطّر إلى القرية المجاورة للدفن وللتعزية. "يا واد يا علىّ ها نبات هناك.. خل بالك من اخواتك!".. هاهى قد فرجت بعد أن ظن الفتى أن لن تفرج! نامت الجدّة العجوز.. نام الأشقاء.. تصنّع هو النوم ولم ينم.. غطّوا فى نومهم.. تسلل.. أغلق الباب بإحكام خلفه.. ثم أطلق ساقيه للريح. الضجيج والصخب استقبلاه من أول "شارع المنجى" الذى يقع على ناصيته البيت المقصود.. بيت الأسطى.. صعد السلّمات الخمس.. باب الشقة مفتوح نصف فتحة.. مدّ رأسه من فتحة الباب فرأى ما رأى.. ورآه المنجلاوى.. فجاء مسرعاً يطرده:

"إيه اللى جابك يا ابن الجزمة دلوقتى.. امش يا ابن الكلب بعيد!"

لا جدوى.. فلنعد.. خاف من بطش العملاق المتحفّز الذى سد الباب بقامته المديدة فنوى العودة.. إلا أن صوتاً كالرعد دوى فى أذن الفتى وأذن البغل الغاضب.. كان صوت الأسطى:

خشّ يا واد يا علىّ.. سيبه يا مانجه!

تقرّس المنجلاوى بغضب هادر فى الأسطى.. ثم فى على.. أمسك بذراعه يعصرها، لكنه سرعان ما أفلتها.. لتلتلقه يد المعلمة التى هزتها هى الأخرى المفاجأة.. قادتة إلى زاوية محشورة بين دولاب الصينى والجدار. كان بالزاوية التى لا يصلها الضوء كرسى حمّام صغير واطىء.. أمرته الأسطى بصوت هامس مخنوق بالحقن:

إترزى هنا ما اسمعلكش حس.. لو حدّ شافك ها اقطع فرطك!
هأهآت.. وسرّسعات.. وشهقات.. وضحكات ماجنة فاحشة.. وقبلات تطير من شفاه البنات الرائحات الغاديات.. فيحملها الهواء الساخن الذى استقر فى جو الصالة الفسيحة ليلتلقها رجال مسحورون أعماهم الشبق.. دوشة صاعقة للأذان صعقت أذنّى علىّ. رجال من كل صنف؛ تجار فى عباأتهم الفخيمة الفضفاضة.. موظفون صغار السن فى قمصانهم الباهتة وينطالاتهم المكرمشة.. فلاحون فى جلابيب وفوق رءوسهم الطواقى.. وصنایعية فى "الأوفارولات" الزرقاء المشحمة المشبعة بالزيت والكیروسین. كانوا عشرة رجال، أو یزیدون قليلا، جلسوا فوق مقاعد الصالة.. التى بعضها "قوتیهات" وثيرة أنيقة رحبة.. وبعضها كراسى خشب عادية.. وفوق دولاب الصينى وضعوا "الجرامفون" الذى كان أكبر قليلا وأكثر صخبا من ذاك الذى رآه علىّ عند هدى.. وكان المنجلاوى- الذى اسمه باللیل مانجه!- یغیر الاسطوانات كلما سكت صوت الاسطوانات.. تعجّب علىّ: لماذا كانت الأغنيات كلها لأم كلثوم یا ترى؟ استنتج علىّ أن هنیّة هى التى اشترت تلك الاسطوانات.. یعرفها.. تموت فى أم كلثوم! یصدح الجرامفون فیسمعه علىّ من مكمّنه:

نتعّب؟ آه.. آه.. آه.. آه

نغلب؟ آه.. آه.. آه.. آه

نشتكى منه..

لكن بنحب!

يمدّ "مانجه" أصابعه فيخلق الجهاز.. وتدخل ثلثة من البنات فى صفّ واحد.. كأنهن فى طابور الصباح بمدرسة الناصرية. لم يكن يستترهن شىء إلا شريط يتيم من قماش لمّاع أحمر استقر فى استرخاء بين الفخذين فلا يكدر يخفى شيئاً. أهؤلاء هن البنات اللاتى يراهن علىّ فى النهار يكنسن ويمسحن ويطبخن؟ ما لهن يتلعبطن متآلفات مبتسمات ظريفات هكذا؟ أين ذهب البؤس؟ أين اختفت تكشيرات النهار والشفافة الممطوطة قرفاً وزهقاً؟ أين اصفرار الوجوه وانتفاخ الأعين المسهدة؟ تتحلق البنات فى دائرة مغلقة ممسكات أيد بعضهن البعض.. ثم يأخذن فى الدوران.. فيتوالى دخول أعضاء التخت إلى الصالة. يهزّ علىّ رأسه: "آه.. هذا هو التخت الذى رأيت فى مزاد بيت العطار". بعد قليل تدلف الأسطى إلى الصالة.. فيصرخ المنجلاوى فى الجميع: "سمع هس.. سلام مربع يا جدع لأجدعها ست فى الحتّة!". تعزف الموسيقى السلام الجمهورى فيسائل علىّ نفسه: من عروسة الحلاوة هذه؟ آه.. إنها الأسطى وقد أخذت زينتها وجاءت تتبختر. تسكت الأصوات فلا يعلو صوت على صوت المعلمة التى راحت تختلس النظرات إلى علىّ الفاتح فمه فى ذهول.. وتكاد تضحك.. رمت إليه بنظرات اقشعر لها جسده النحيل.. ثم تكلمت:

- مرحب بالرجالة العترة.. عاوزينها الليلة دى دانص ولّا قنص؟

صرخوا جميعا فى نفس واحد:

- مشيها دانص.. مشيها دانص.. مشيها دانص!

يعرفون أن" الدانص" حتما سيعقبه قنص.. وهل هرولوا إلى هنا إلا للقنص؟ وهل يطيب القنص داخل الغرف المغلقة الخافتة الضوء إلا بعد شراب وطعام ومزيكا ولعبطة؟ تبدأ البنات الرقص فيرقصن رقصا عجيبا.. ضربات خفيفة بالأكفّ على الصدور العارية.. ثم فوق البطون كأنهن يقرعن طبولا فارغة.. ثم على الأفخاذ.. فالمؤخرات. يتعرقن فتنتشر رائحة العرق تختلط بروائح الخمور والحشيش والخيار المخلل والبخور الذى مرّ به الآن المنجلاوى عليهم فى طاسة هائلة تطلق دخانا أزرق خانقا للأرواح مهيجًا للشهوات.. تميد الأرض بعلّى.. ويدور رأسه.. يدوخ.. فتتوقف البنات عن الحركة فجأة وتخرس الموسيقى.. يتجمد المشهد للحظات فتصرخ المعلمة صرخة أسد هائج:

- ياآلا.. دلوقتى يا بت انت وهيا!

تمدّ البنات كلهن أصابعهن بخفة تدرين عليها طويلا.. فينزعن فى خطفة واحدة شريط القماش اليتيم.. ويلقن بالشرائط الحمراء فى الهواء.. فيتقافز الرجال كالقروذ المجنونة إلى أعلى.. فيمسك كل واحد منهم شريطا.. يحتضن صاحبة الشريط ولسان حاله ينطق: أنت الليلة لى وحدى.. فقد قنصتك اقتناصا!.. وأما الذين لم ينجحوا فى الإمساك بشىء فينظرون إلى المعلمة فى حسرة بالغة.. فتغرق فى الضحك.. ويتساءل الذى فاته الدور حزينا:

- طيب.. وأنا؟

تصرخ فيه المعلمة بغنج مصطنع:

- ها اعمل لأمك إيه؟ طول عمرك عويل.. إستنا الدور الجاى!

يخلع كل رجل من "القناصين" ملابسه كلها فيلقى بها على مقعده.. يحمل البنت فوق كتفه.. فتصرخ فى دلال تصطنع المقاومة وتضرب بذراعيها

وساقىها فى الهواء؛ كطفلة أرغمتها أمها على الاغتسال وتسلل الصابون إلى عينيها فأحرقهما.. تظل ترفس الرجل وترفس.. يجرى الرجل بغنيمته.. ويهرول الجميع إلى الغرف. تخلو الصالة إلا من المعلمة والمنجلاوى ورجلين خائبين جلسا يأكلهما الغيظ ينتظران خلو غرفة من الغرف وبنتا من البنات.. تتجه المعلمة إلى "مانجه" فتتحطّ فى حجره.. ويغيبان معا فى قبلة طويلة.. ثم تهمس له متعبة:

- صبّ لى كاس يا وله!

يسارع المنجلاوى إلى الزجاجات المرصوصة فوق "الدولاب".. فيمسك بواحدة منها يرحها رجًا.. ويملأ الكأس حتى حافتها.. وقبل أن يعود لا ينسى أن يضع اسطوانة جديدة فى الجرامفون الذى ملّ الصمت.. وها هو أخذ يغنى:

"لا تشغل البال بماضى الزمان

ولا بأت العيش قبل الأوان

واغنم من الحاضر لذاته

فليس فى طبع الليالى الأمان.."

ترشف المعلمة رشفة وقد أغضت عينيها.. ثم تتذكرنى:

- واد يا على.. يخرب بيتك.. اطلع يا واد كل لك حاجة.. زمانك

جعان!

يخرج علىّ من مخبئه جاريا إلى الطعام المبعثر فوق منضدة بالصالة فيحشو فمه بطعام لا يقوى على مضغه فيبلعه بلعا.. تضحك المعلمة:

- إنت زى ما انت.. جانتك نيلة!

ينظر إليها واحد من المنتظرين الدور فى استغراب:

- مين الواد ده يا وليّة؟

- خليك فى خيبتك انت.. دا على ابن اختى!

يعود الرجل فينكفىء على نفسه متأففا.. ويغرق فى الصمت. يتوافد الرجال على الصالة عاندين من رحلة القنص المنهكة؛ الواحد تلو الآخر؛ فمنهم من أصابه التوفيق فشبع، ومنهم من خاب فجاء مهزوما يلتهمه جوعه. يتهاكون على المقاعد ساهمين منهكين مغلقى الأعين.. فتضحك المعلمة فى خلاة.. وتتهكم: "شفيتم!".. ثم تفتح كفيها تتلقى المعلوم المتق عليه من كل واحد فتدسه فى صدرها. تأتى البنات متباطئات يتمطعن ويهرشن أسفل بطونهن.. وتعود الصالة إلى الالتئام والصخب من جديد.. يسارع "مانجه" إلى تقديم الكئوس للرجال المرهقين.. وإلى الجرافون يرفع صوته الذى كان قد حجه صخب الصاخبين.. ينبعث الصوت الشجى:

"أفق خفيف الظل هذا السحر

نادى دع النوم.. وناغ الوتر

فما أطال النوم عمرا.. ولا

قصر فى الأعمار طول السهر.."

يتململ على فى مكمته.. فيشتاق إلى هنية.. أين هنية؟ لماذا لم تشارك فى هذا السيرك المنسوب حتى الآن؟ أهى مريضة؟ هل سافرت؟ إلى أين وهى التى ليس لها فى الدنيا أحد؟ هل طردتها الأسطى؟ مستحيل.. إنها الأورّة التى تبيض لها كل هذا الذهب.. أين هنية؟ يغرق على فى أسئلته فيوقظه دق عنيف على الباب.. يهب المنجلاوى يفتح.. يرى القادم.. فينحنى فى خشوع:

- يا مرحب يا حاج.. يا مرحب!

- إزبك يا واد يا مانجه..

تفتح عينا علىّ على اتساعهما من هول المفاجأة.. من هذا؟ أهو الحاج مصطفى؟

تفرع الأسطى مبهوتة مندهشة.. لكن فرحانة:

- حاج مصطفى؟ موش معقول.. فينك من زمان يا نور العين؟

- إزبك يا بت يا هيام!

كانت تلك هى المرة الأولى التى يعرف فيها على اسم "الأسطى" الحقيقى.
يضمها مصطفى إلى صدره كمن اعتاد ضمها منذ سنين.

- دا احنا زعق لنا نبى النهارده يا حاج.. بت يا هنية.. بت يا هنية يا
بت..

حبيبك جالك أهو يا بت!

يكاد قلب علىّ أن ينخلع.. يرى هنية تسارع إلى الحاج مهرولة.. فتقفز
تتعلق فى عنقه.. وتدفن رأسها باكية فى شعر صدره الكثيف المنتصب
كالشوك.. تنهه البنت سعيدة مشتاقة.. تسبل عينيها فى وجل تائه كتوهان
العاشقين.. تهمس فى عتب كعتاب المحبين:

- فينك من زمان يا حبيبى!

- أدينى جيت لك أهه يا قمر.. وكمان جببت لك "اللب" الللى بتحبيه!

تطفح روح علىّ بالحدق الدفين.. يتذكر بشرى.. ويريد أن يصرخ.. إلا أنه
يمسك نفسه بصعوبة فيكتم ألمه.. يدمم مغتاظا: "ترى.. مالذى يفعله هذا
الرجل فيسحر به النساء؟" تقترب الأسطى من الحاج تكاد تطير.. فتخبط
أسفل بطنه.. وتميل على أذنيه تقطر فيهما كلمات انفجرت لها حجرة الرجل
بجلجلة سمعها الجميع:

- طول عمرك شيطانة يا بنت العفاريث.. عندك واحدة تانية؟!

- تعالى (أ.....) واقول لك!

ينفجر الحاج بالضحك من جديد فتدمع عيناه:

- آه يا بنت الكلب.. ما فيش فايده فيكى.. طول عمرك (ش....)!

تضحك.. وتغمز لهنيئة غمزات ذات مغزى فتسحب البنت بسرعة تتأهب.. تصحبه المعلمة من يده كعريس سيبدأ طقوس ليلة دخلته.. تغمز له:

- يالآ يا حاج.. الأوضه جاهزة.. والبنت بأت على سنجة عشرة..

منجلاوى ها يلحقك بالجوزه والصينية والمرة الطازة!

يبتسم الحاج.. يلقي لها بلفافة فى حجم كف طفل.. ملفوفة بعناية فى ورق شفاف.. يأمرها مازحا:

- حشيش أحدث ماركة.. "أمل حياتى" معتبر.. جهزى القعدة..

واكرمى الرجالة.. ما تحرميش حد.. خلصى انت على ما اخلص

انا وآجى لك نخلص سوا!

يحمل الحاج هنيئة على كتفه فيدخلان سعيدين إلى الغرفة.. وتسيل دموع

القهر على خدى على. تصيح "الأسطى" فى المنجلاوى:

- ارفع صوت المزىكا يا وله!

يرتفع صوت الجرامفون:

"لا توحش النفس بخوف الظنون

واغنم من الحاضر أمن اليقين

فقد تساوى فى الثرى راحل غدا

وماض من ألوف السنين"

يحمل المنجلاوى صينية الشراب.. والشيشة المتوهجة.. وذكر البط
المكتوف اليدين والساقين المطهى بعناية فائقة.. الذى ينثر بخاره الشهى
المبهج فى الهواء.. فيدخل على هنيئة والحاج التائهين فى عالم آخر.. ويتردد
صدى الجرامفون فى الصالة:

" أطفئ لظى القلب

بشهد الرضاب

فإنما الأيام

مثل السحاب..!"

يحملك أخوك- أنت الخائر القوى لا تتوقف عن البكاء- فيساعده بعض الرجال:

- هاخذك دلوقتي على البيت تستريح لك شويه.. علشان بالليل نحضر المعزى.. انت ابنها الكبير.. وما يصحش ما تحضرش يا على!

تنظر حولك.. فترى نساء الحارة خلعن" الطرح" فألقينها من فوق رعوسهن.. وشققن الجلابيب من عند الصدور فلم يحفلن بالأثداء العارية التي برزت تتأطح الريح. كن يلطن وجوههن حتى أدمينها.. وكن يبركن فوق التراب في الحارة فيعفرن به الجباه بتلذذ شديد كأنهن يعشقن الحزن.. وكن يصرخن:" الحاج العطار مات يا ولاد!"

رجال الحارة انتقخت أعينهم من البكاء.. وخرجوا متتاسين الجلابيب الزرقاء المفروشة بالرقع.. فبرزوا للناس بالسراويل. وكانوا هم أيضا- كنسائهم- يلطمون الخدود:" الحاج العطار مات يا ولاد!"

ينظر على مبهوتا في تليفزيون بشرى التي كانت هي الأخرى تبكى أيضا.. فيرى عبد المولى شيخ الجامع وقد خرج إلى الشاشة- المجللة بشرط حداد أسود في زاويتها اليسرى- باكيا مرتديا بدلة سوداء.. راح يخطب في أهل الحارة:" يا أهل الحارة الكرام.. لقد فقدت حارتكم رجلا من أعز الرجال.. وأظهر الرجال.. أبوكم الحاج العطار مات يا ولاد!"

أغلقت محلات الحارة أبوابها.. وحسبت البهائم في حظائرها.. ومنعوا الأطفال من الخروج إلى المدرسة.. وأعلن شيخ الحارة الحداد في الحارة أربعين يوما.. وأرسل المنادين يجوبون الطرقات يعلنون:

" يا أهل حارتنا الكرام.. نظرا لوفاء راعى الأيتام.. مفخرة الليالى والأيام..
وسلطان الغرام .. فقد تقرر أن تتعطل حياتكم يا لئام.. فلا يستيقظ واحد
منكم أو ينام.. ويمتتع عليكم طبخ الزفر من الطعام.. أو الاجتماع بحريمكم..
فلا لمس ولا همس ولا كلام.. فالصمت أقل ما نقدمه لذكرى هذا البطل
الهمام!"

يحضن على يد سناء.. ويتسلان إلى التعريشة.. فيهمس لها:

- عارفة يا سناء.. العطار ده كان بياكل إيه؟

- لأ يا على.. ما عرفشى!

- كان بياكل النسوان!

تغرق فى الضحك.. فيحتضنها.. وتسأله :

- وانت يا على.. بتاكل إيه؟

- عيب يا بت اخرسى.. بلاش غلبة!

تأتى السيارات الضخمة، ذات المقطورات والعجلات الهائلة مسرعة.. ثم
تبطيء من سرعتها.. فتدخل من بوابة القصر المنيف.. تختفى قليلا ثم تعود
هاربة.. وعلى متنها البضاعة الثمينة التى أخفاها العطار قبل رحيله عن
عيون الناس فرآها على. يجرى على نحو إسماعيل الجناينى.. فيحتضنه
الجناينى باكيا.. ويدمد:

- خلاص.. كلنا مفارجين يا ولدى!

- ها تروح على فين يا عم سماعيل؟

- بلاد الله خلق الله.. الدنيا وسيعة يا على يا ابنى..

يلمح على هدى وعلاء والبنات.. كلهم غارقون فى الحزن متشحون
بالسواد.. يريد علاء أن يجرى إليك.. يتذكر أنك قد اكتشفت حقيقة أبيه

الراحل خالد الذكر فيتردد ولا يصافحك.. تشعر بألمه الدفين وتحترم آلامه..
أنت المعجون بماء الألم والوجع.. الملسوع بسياط العذاب.. المكتوى بنار
الإهانات الدائمة. ها قد بلغت رسالة علاء فوعيتها.. أقول لنفسى: "يوما ما
سنلتقى أنا وأنت يا علاء فى زمن غير هذا الزمن الكئيب..! "تراك هدى..
فتلّوَح لك بيدها وتصيح فى عتاب مستتر:

- ما تتساش تسلم لى على مريم يا على!

آه.. ها هى سيارة الموتى الكئيبة؛ سوداء اللون والنوافذ والستائر والقلب قد
أنت متباطئة.. جاءت تحمل الميت. تتابع بعينيك الأسرة المكلومة الباكية
تأخذ جثة كبيرها وترحل.. تلتقى عينا علاء بعينيك فيرتجف قلبك.. لا
يطاوعك الدمع.. بينما كانت عينا علاء تهطلان بالدموع.. ويمضى موكب
الحرانى.. فتسمع أنت وجيب قلبك.. تصحو من غفوتك على وكزة أخيك"
معلش يا على.. الله يرحمها.. كلنا هانموت".

الفصل السابع عشر

وادی الجنیات

" فی هذا الوادی.. لا وجود للذكور ولا للرجال.. كل شیء
بالوادی كان أنثى.. الشجر أنثى.. حبات الرمل والطیر
والحيوان والجماد إناث.. ولأنه لا حاجة للإناث- بین الإناث-
لغطاء.. فقد كن جميعهن عرايا!"

۵۳

تدفق الدم ساخنا فوارا إلى رأس علی.. المخبوء خلف الدولاب المظلم..
فاندفع كاندفاع لهيب الغضب والغل والغيرة والمهانة المتصاعد من أتون
روحه. ضرب الباب بمشط رجله فانفتح الباب على مصراعيه.. رأى الامتطاء
فركل رأس الفحل بقدمه. كان الحاج مصطفى آنئذ آخذا وضع الحمار مدلدل
اللسان ورأسه ناحية الباب. نظر الحاج مصعوقا إلى علی ونظر إليه علی..
كانت هنيئة الناعمة الطرية تمتطى ظهر الحاج.. ودلدلت قدميها.. وعلقت في
رقبته شريط عورتها الأحمر اللاهب فكان كالسلبة التي يعلقونها في رقاب
البهائم بزربية الصقاروة ليسهل قيادها.. بدا الحاج كحمار أو ككلب في عنقه
طوق.. وبكعب القدمين الصغيرتين المغسولتين بالصابون المعطر راحت
هنيئة تطعنه في جنبه طعنات تألم لها وتأوّه وابتهج.. وكلما نخزته هنيئة أكثر
تألم أكثر.. ثم ضحك! شجّ علی رأس الحمار المستمتع بالطعن.. ساعتها
كانت هنيئة تقبض بأسنانها على الأذن اليمنى وتعض.. فينزف الدم كنافورة

فائزة من شحمة الأذن الملتهبة.. دم أحمر قان سال على الحاجبين فأغرقهما
ثم سار إلى العينين فحجب عنهما الرؤية وتدرج إلى العنق النافر العروق.
كانت ساقا على أسرع من ساقى المنجلاوى الذى رآه يجرى من خلف الدولاب
رائحا إلى غرفة اللقاء الحيوانى الشاذ والنهيق فهول خلفه. انهالت الساقان
الغاضبتان رفسا على جسد الفحل الناهق فانقلب على ظهره يخور رافعا رجله
إلى أعلى لا يدرى ماذا يفعل. رأى الحاج عليا فى ثورته فانعقد لسانه من
الدهشة وتلقى الضربات مذعورا.. وسقطت هنية من فوق ظهر الحمار
تتدرج وتلطم صدغيها وتصرخ فتمزق شعر رأسها المتعرق باللذة والتوهان
والمتعة. لحق الثور الهائج "مانجه" بعلى فلم يعرف على أى جزء فيه بالضبط
يؤلمه.. انهالت الضربات المجنونة على جسده من كل اتجاه.. شبت كل ذرة
فيه ألما وعذابا من عنف الضربات الطائشة من قبضتى "مانجه". رأت هنية
الدم يغطى وجه على فقفزت إليه كنمرة تحمى صغيرها من أسد أماته الجوع
فهاجم الصغير.. تكومت هنية حول على فصنعت من جسدها درعا واقية
وتلقت هى الضربات.. كانت تتشنج.. وتغمغم:

ها تموتوا الواد.. ها تموتوا الواد.. إلحقينى يا معلمة!

نهض مصطفى متهالكا مجلا بالعار والانطفاء المباغت بعد ذروة كانت
فى طريقها للانفجار. رمى "الأسطى" - التى كانت قد بلغ بها السكر مبلغه
فلم تفهم ماذا يجرى بنظرة من نار - ثم دمدم:

طيب يا "رمة" يا بنت الكلب.. إن ما ربيتك.. إيه اللي جاب الواد ده هنا؟
ظلت درع هنية تصد الرفسات بدلا من الصبى حتى أوصلته إلى الباب
ورنت إلى عينيهِ فى حزن كأنها تودعه الوداع الأخير.. وهمست:

مع السلامة يا على!

جريت وجريت وجريت حتى بلغت باب الجامع الكبير فلم يكن أحد هناك.. كان الفجر قد أتى قبل قليل ثم ولّى فشقق الصباح.. تحاملت على نفسى إلى أن وصلت إلى باب بيتنا ثم طرقت.. لا أحد يفتح.. كانوا نياما فطرقت من جديد.. فتحت لعلّى أخته الصغرى وفغرت فاهها للتصرخ فأسكتها بنظرة حديدية أخرستها وارتمى فوق الشلّة بجوار الحّمّام وراح يبكي. كل ما فى جسدك ينزف يا علىّ غير أن نزيف روحك كان أفدح.. خلاص.. لن أرى هنيّة بعد الذى جرى.. خلاص هنيّة انتهت.. وبدأت الحمى تطحن عظامه فهمس لشقيقته:

- باموت يا راجية.. روحى اندهى لى مريم!

- مريم المشلولة بنت العجوانى؟

- روحى لها انت بس ومالكيش دعوة!

غامت الدنيا فى عينيه.. غاب عن الوعى.. فلم يفق إلا بعد أيام.. وعندما صحا كان فوق فراش مريم.. أرسلت له عبد الستار فحمله على كتفه وأتى به.. فلما عاد الأب والأم من "المأتم" وأرادا استرجاعه شخط فيهما صاحب الجمل بغضب: "سيبوه معاها.. يالّا انت وهى من غير مطرود!" أيام من الغيبوبة والوجع والكمّادات الباردة وشراب اللارينج الشديد المرارة تقطّره مريم لك فى فمك تقطيرا ودعوات عم قناوى ودموع مريم. تنظر حزينة إلى عينيك الغائمتين الغائبتين الدامعتين من الحمى فتدمع عيناها من الحزن.. يلتقى الدمع بالدمع.. تبكى وتتنظر للسماء وتدعو: "عافيه والنّبي يا رب.. والنّبي يا رب تشفيه لى..". استجاب الله لدعائها فشفاه فعاد من غيبوبته.. وعندما عاد قال كلاما لا معنى له لكنها فهمته.. هزّت رأسها وهمست له فلم يسمعها: "أرأيت يا علىّ.. فهذا ألم الفراق الذى حذرتك منه من قبل.. هل عرفته الآن؟"

أفاق.. فناجاها وناجته.. حدّثها عن هنيّة وما جرى بينهما.. ابتسمت.. وأحسّ بأنها امتلأت بالغيرة.. ضعفت أمامه فكشفت له سرّها الأعظم: "اسمع يا على.. أنا لست إنسيّة!"

.. قالتها فتناهت إلى مسامعه صرخة جبارة عظيمة آتية من الخلف؛ من خلف فراش مريم. نظر علىّ فإذا الصوت آت من البساط الأخضر المعشوشب الممدود خلفها.. رأى المهرة الوادعة وقد تحولت إلى بركان نار متفجر بالفرع والغضب والسؤال.. كانت كتلة من نشاط وحيوية وصخب.. ترفع صدرها وساقها الأماميتين إلى أعلى ثم تهبط على الأرض فتتفجر الأرض تحت حافريها ينابيع ماء فائر يغلى.. وكانت تصل صهيلا أحيا الموتى في كل مكان.. يرتعد علىّ يزلزله الخوف.. ما هذا؟ هل مهرة البساط تتحرك؟ تضحك مريم.. تلملنى فى حضنها وتقول: لا تخف يا علىّ فالمهرة صديقة لك وتحبك. تشير مريم للمهرة النافرة فتشق الجدار برأسها وتخرج فتترك على أرض الغرفة. تمسك مريم بيد علىّ وتهمس فى أذنيه: اركب يا علىّ.. هيا يا علىّ لتتعرّف على أهلى!

فى وادى الجنّيات لا ذكورا هناك ولا رجالا.. نساء فقط! كل شىء بالوادى كان أنثى.. الشجر أنثى.. حبات الرمل.. والطير والحيوان والجماد إناث. ولأنه لا حاجة للإناث- بين الإناث- لغطاء يغطيهن فقد كنّ جميعهن عرايا.. لا معنى هنا للتعري؛ لا ملابس مزركشة تخفى غير المرغوب فيه وتبدى فقط مكامن اللهب.. لا عطورا عجننتها أيدي العطارين بل عطرا أبدعته يدا السماء.. الأنوف هنا لا تتلف اصطياذ رائحة الشبق المدوّخة.. لا شبق هنا. كل الوجوه سواء.. مغسولة بماء المطر.. زينّها البرق المولود من تلاقح

السحاب مع السحاب. فى وادى الجنيات لا مزاعم ولا ادعاءات كاذبة.. بل نساء.. نساء فحسب.. نساؤك يا على!

- كيف تكونين إنسية وجنيّة معا يا مريم؟

- هذا حديث مؤجل بيننا.. فاخلع نعليك.. وتأهب للرحلة!

تحمله مريم بين ذراعيها الرحيمتين كوليد.. تضعه فوق المهرة التى رأت مريم فعادت لهدوئها المرسوم فى الرسم خلف سرير مريم.. تركب خلفه ممسكة بلجام من حرير قبضت عليه المهرة بأسنانها. تطير به مريم.. تتجاوز الفيافى والصحارى والجبال الشاهقة.. تغطس فى الغيوم.. فإن جاع مدت كفيها تقطف له نجمة من نور يتلّج بها.. فإن عطش سقته سحابة ماؤها زعفران فيرتوى. موسيقى السماء لم تكن أبدا كموسيقى جرامفون الأسطى، ولا جرامفون هدى، ولا موسيقى تليفزيون بشرى.. كانت موسيقى من الصمت اللذيذ. لا صخب هنا ولا ضجيج.. وإنما سكينة فى إيقاع واحد أزلّى؛ إيقاع الصمت. يتسمّع علىّ فيبلغ أذنيه رجع صدى صوت مريم همسا: "هل سبق أن سمعت صوت الصمت يا على؟.. هيا يا حبيبى فأنصت!" يمرّان على الغابة التى طولها سبعون ألف سنة وعرضها ثلاثون ألف ليلة.. رأت كائنات الغابة مهرة مريم المقدسة فحيّتها فى خشوع وسبّلت الأعين. بلغا الوادى. حطّت به المهرة فى مهبط من سندس أخضر.. قادته مريم من يده وتركت المهرة ترعى العشب الأخضر كاخضرار الرعود.

تعال.. سوف أريك أُمى يا على!

ملكة الجان كانت إنسية؛ أو كالإنسية.. يتعجب على ويدمدم: "أمك إنسية مثلنا يا مريم؟" تضحك الجنيّة وابنتها ضحكا رائقا وقورا جذلانا.. تحتضنه مريم وتوشوش فى أذنيه: يا على.. هى اتّخذت تلك الهيئة لترأها.. فالبشر لا

يستطيعون رؤية الجن.. هيا صافحها ولا تخف! آآآآآ.. من لمسة اليد لليد.
آه من بركان السكينة الذى سرى من اليد إلى الروح فسكنت الروح. آه من
الراحة.. أنا مازلت حيًا أم فى عداد الراحلين؟ رغم العرى إلا أن شعر الجنية
الأم امتد فغطى كل شىء بها صانعا رداء من جلال ومهابة واحتشام..
تلصص على بعينه نحو الانفراجات التى بين الشعر المسترسل ليملاً العينين
بالجمال الرهيب.. تلدغه الرؤية فيلقى بعينه إلى الأرض بسرعة خجلانا كى
لا ترى الجنية العينين فتقرأ ما خبأه الدماغ.. تضحك الجنية الأم مبهورة فى
عطف حان.. وتمسح خديه:

- آه يا عفريت.. كم أفسدتك بشرى يا على!

- أو تعرفين بشرى أنت أيضا؟

يتذكر أنها جنية.. فيعيد عينيه نحو الأرض من جديد.. وتقول مريم:

- يا على.. الجن يقرأون أفكاركم.. فيأكل أن تتذاكى هنا أو تكذب!

تشير مريم بسبابتها فتسرع المهرة إليها. يعتليها على فتبتسم المهرة مسرورة
فى حبور.. وتهتف له: " هيا اركب يا حبيب حبيبتنا مريم!" طارت به المهرة
فوق دروب جبلية غطتها الثلوج الكثيفة والعشب.. هبطت المهرة ثم صهلت
فنبهت بصهيلها حوريات كن يمشين ببطء.. سارعن إليه.. حملنه.. أنزلنه..
وهرولن من أمامه فجرى خلفهن يريد قبض النعومة السائلة بيديه.. لم
يستطع.. يرى نهرا قفزت إليه الصبايا ورحن يسبحن.. أشرن إليه أن تعال..
خاف.. تذكر ضربات أبيه "يوم الترفة" وخاف.. باغتته دفعة من الخلف
ألقت به فى الماء.. خلعت البنات عنه ملابسه.. رحن يحمنه فتذكر هنية..
مست إحداهن فكيه بحنان فانفتح فمه وقطرت له حورية أخرى بعضا من ماء
النهر فى حلقه.. شرب فجحظت عيناه من المتعة التى لا وصف لها.. أتاه

صوت مريم من الغيب: " تلك شربة لن تظماً بعدها أبدا يا على! " تغطس البنات فيختفين ويجد على نفسه وحيدا على حافة النهر: " ما هذا المكان؟ " أسير مترنحا من العبير الذى رمتى به الصبايا.. أرى دربا ضيقا لا يسمح إلا لى وحدى بالمرور.. كان طريقا بين جبلين شاهقين شقت قمتاهما قلب السماء.. أمشى فتظلم السماء وتتلاطم الغيوم فى شجار اهتز له قلب على ثم أضاعت السماء مؤذنة بفض الشجار فيبرق الكون ببرق خطف بصره وسمع دوى رعد أذهله عن نفسه. أفاق.. فوجد الماء قد ملأ الدرب وطفا هو فوق الماء. أخذ الماء فألقى به أمام مغارة وقفت على بابها أنثى فهد سوداء حادة النظرات متوثبة للهجوم. ارتعد. عرفته فأشاحت عنه بوجهها ثم مضت فدخل المغارة.. سار فقاده الممر الضيق إلى فناء واسع قامت على حراسته نساء وجوهن مطموسة ولا عيون لهن.. كالعماوات كنّ يدرن حول أنفسهن فى حلقات منحنيات وبأيديهن حراب مسنونة.

مشى.. فرأى صلبانا من حديد مصهور تسيل منها النار وعلقت فيها نساء من أرجلهن؛ رعوسهن إلى أسفل والأرجل إلى أعلى.. تمر عليهن المطموسات الوجوه فيغرسن الحراب فى الفتحات السفلية المشقوقة.. تصرخ المعلقات فتصرخ فيهن العماوات: " اخرسن.. فهذا جزاء كل من خانت الحبيب! " يهرب.. فيجد صلبانا أخرى من نحاس مصهور.. علقت بها نساء من شعورهن.. تسارع إليهن عماوات أخريات يلهين لحمهن بسياط من نار.. فينبجس الدم الأسود المتقيح من الفتحات الحميمة المشعرة.. تصرخ الضاربات بالسياط: " وهذا جزاء المنجبات بناتهن من حرام! " يهرب على فيدخل فناء ثالثا.. فيرى نساء فى أثمار بالية.. مشقوقات الشفاه يهرولن نحوه يردن تقبيله فتباغتهن عماوات بسكاكين من حجر مصهور يقطر نارا

بطعنات نافذة فى بطونهن فنتبعثر الأحشاء ممزقة على قدميَّ علىّ.. أصرخ
مذعورا وأجرى فأسمع صرخة العمياوات: " هذا جزاء كل من أغوت طفلا قبل
أن يبلغ الحلم!" أجرى.. فأرى فناء رابعا علّقت به امرأة وحيدة دقّوا أثداءها
بمسامير .. أنظر فأعرفها فأكاد يغشى علىّ: "إنها بشرى!" تشير إلىّ..
تستغيث فى صوت خافت: " يا علىّ!".. يتألم علىّ فيقترب منه قارب يختطفه
ويمضى به بعيدا.. يأخذه التيار.. يرى بشرى كدائرة تتضائل وتصغر.. ثم
تغيب عن عينيه.. يبكى. تخرج له مريم من الماء.. وتزجره فى غضب:

- " كنت تحبها إذن؟

- كانت تحبنى!

- بل أغوتك يا مغفل فسممت لك روحك!

- المسامح كريم يا مريم!

تتركه مريم غاضبة.. فيغضب عليه الماء أيضا ويتهيّج يكاد يغرقه.. تمتد
إليه ذراعان بضتان يعرفهما على الفور: "هاتان ذراعا هنيّة".. يخرج من الماء
فيراها جالسة على حافة النهر تبكى.. يمد يديه يريد احتضانها فتخرج من
الماء كفّان غليظتان كثيفتا الشعر تخطفانها وتسحبانها إلى القاع.. كانتا يدي
الحاج مصطفى! يصرخ علىّ فتمتد يدان توقظانه.. كانتا يديّ مريم.. يتلفّت
حوله فيرى غرفة مريم.. ويرى الرسم فوق الحائط فيتأوه ويتساءل: أين أنا؟
تمسح مريم بكفيها عرق جبينه.. وتوشوشه: كنت محموما يا علىّ وكنت
تهذى.. والآن وقد تعرّقت فقد برئت..

يحتضنها ويروح فى النوم من جديد!

تعاود الغيبوبة والرعدة والحرارة المتقدمة وبرودة العظام الحادة كالسيف عليًا
 فيتوغل في الرسم من جديد.. يفاجئه المطر فيحتمى بأغصان شجرة..
 تحتضنه الأغصان فيغوص بداخلها ويلج قلبها المظلم.. يفتح القلب على
 درب متعرج يسير به على يكاد يخنقه التعب. يرى باب الجامع الكبير فيجلس
 يستريح.. ويسمع الأنين. يزحف على ركبتيه وكفيه يدخل صحن المسجد ليجد
 الشيخ عبد المولى جالساً فوق أريكة مرتفعة القوائم مرتدياً قفطانة المذهب
 الحواف مغلقاً عينيه يفرك حبات مسبحة ويسبح. دون أن يفتح الشيخ عينيه
 ينادى: "تعال اجلس بجوارى يا على.. الآن ستبدأ المحاكمة!". أمام عبد
 المولى نصبت طاولة من بوص غليظ القوام يبرز الشوك منه.. وفي البوص
 مسامير رقد فوقها جسد عار حليق شعر الرأس والوجه والصدر والساقين
 والعانة.. موثق بالحبال ممدود الذراعين تتدلى بين ساقيه ماكينة رجولته
 فتكاد تبلغ حصير الجامع. كان عملاقاً وكل ما فيه ضخّم ومنتفخ. يتأمل
 على الوجه جيداً فيعرف صاحبه؛ إنه الحاج مصطفى فحل بشرى وهنية.
 يصرخ عبد المولى:

- يا ملعون.. أتعرف جريرتك؟

-

- التغرير ببناات الناس جريمة لا يستهان بها يا مصطفى!

-

- واستلاب طهر الطاهرات محرم فى كل الأديان والملل!

-

- الإيلاج من غير كتاب مكتوب وفاتحة قرأت وشهود شهدت.. هو
زنى محض يستوجب الرجم يا أزنى من القروء!

-

- قل لى يا أفجر من فجر.. كم من أغشية العذراوات مرّقت يا لص
الأعراض؟ .. قل لى كم!

-

- ألم تسمع عن تحريم سفك الدم يا عرييد.. فكيف سوّلت لك نفسك
إراقة أنمن الدماء وأكثرها عقّة يا أفحش الرجال؟

-

يميل الشيخ على أذن على ويسأل:

- ما حكمك على هذا السافل يا على.. وأنت الذى أوديت منه فبلغ
بك الإيذاء كل مبلغ؟

- !

- إذن فالحكم اليوم لى أنا.. حكمى عليك أن تظل تنزف ماء رجولتك
الآثم حتى يجف فى ظهرك الماء وتنقطع ذريتك.. يا حرّاس..

تقتحم صحن المسجد الكبير عصابة من رجال الحارة الأشداء الغاضبين..
عرف علىّ فيهم عبد الستار صاحب الجمل، وأحمد الصقراوى أبا بشرى،
ومانجه صبى الأسطى فى بيت الملمات. يشير إليهم عبد المولى.. فيتقدمون
فى بطء كأنهم كتيبة مقاتلين فى معركة حربية تلقوا من قائدهم الأوامر
بالهجوم.. يهجمون .. يمد عبد الستار قبضتيه الفولاذيتين يعجن بهما ماكينة
رجولة مصطفى بالماء وبالصابون المعطر ثم يعصرها فى انسياب ونعومة..
تنتشى الماكينة فتنتشر وتمتد ويندلق الماء شلالا غزيرا فى وجه صاحب

الجمال فيبصق في وجه الرجل الذاهل التائه الحائر بين الاستمتاع والرهبة المطروح فوق الطاولة.. يدمدم عبد الستار: "ملعون مأوك في كل كتاب!" يهصر عبد الستار اللحم اللين المسترخى بين كفيه في هدوء مرة أخرى فيعود الماء اللزج إلى الانبثاق من جديد. بين العصر والدلق المتواليين يتحول أنين مصطفى إلى صراخ متألم ثم إلى صراخ مروّع فكأنه امرأة تولول! يتقدم أحمد الصقراوى فيكمم فم مصطفى ليوقف الضحيج ثم يلصق الفم بشريط مطاطى أسود يغلق الفم تماما. ترتعش أطراف الرجل الملقى فوق المسامير والأشواك وتتضاءل غزارة الماء رويدا رويدا ويتغير اللون فإذا هو عكارة تتخللها الدماء. بعد قليل تطلق الماكينة المعجونة نزيفا دمويا حادا متواصلا ينساب كالطرر فيغرق حصير المسجد كله.. ويبلغ أقدام الرجال يبللها. ينظر على وجه مصطفى الذى اعتلته الصفرة الموشكة على الموت.. وتقفز عينا المربوط من محجريهما فتنتزلقان تتدحرجان حتى خديه.. ويبدأ اللهاث. تتقاذف شفتا المربوط مبتعدة عن فمه فتبلغ جبين شيخ الجامع تلتصقان بها وتصرخان:

"وأنت ماذا كنت تفعل فى قصر العطار بالأمس يا شيخ القروء؟"

يرتعش الشيخ.. فيسير نحوه "مانجه" الغاضب ويعاجله بصفعة تسقط أسنانه على الفور.. يسحب.. فيخلع عنه قفطانه والجلباب والسروال.. يصير عاريا.. يصوب المنجلاوى سكينه الحاد نحو ماكينة الشيخ المذعورة الضئيلة المنكمشة فيجزها من المنبت جزاً ويرمى بها إلى حجر على المبهوت الذاهل عما حوله.. ينفجر الدم نهرا يغرق المسجد كله فيصحو على مفزوعا يرتجف.. تضمه مريم إلى صدرها.. ينقل ناظريه بينها والرسم العجيب فوق الحائط خلفها.. يرى الرسم فى مكانه.. فيهمس: أين أنا؟ تبتسم وتتحنى فتقبل أذنيه وتهمس: يا نور عيني كنت تحلم!

على أصوات نساء يصرخن وصخب وضجيج يستيقظ على.. يرى أمه تلطم صدغيها محمّرة العينين باكية فى هلع: " حريقة يا ولاد.. حريقة!" ..
يجرى.. يأخذ سلم البيت فى قفزة واحدة. فى الشارع يرى الدخان يغطى سماء الحارة.. والرجال يحملون مقاطفهم المترعة بالتراب والسبخ.. والنساء - حافيات - يحملن صفائح الماء فوق رؤوسهن.. أرى سناء تجرى خلف أمها لاهثة مبهورة الأنفاس.. أقبض كنتفها فى هلع وأسأل مخطوف الأنفاس:

- فى بيت مين الحريقة دى يا بت؟

- فى بيت الرقاصين..!

يطير كالسهم إلى هناك.. إلى بيت الأسطى.. يغرق السواد عينيه .. كل شىء احترق.

عرايا يجريين وفى أعطافهن النار تشتعل تلتهم اللحم الطرى.. رأى على البنات. يجرى إليهن فيحول بينه وبينهن الزحام.. يرى رجال الحارة يلقيين بالخيش المبلل على الأجساد التى أكلتها النار فأحرقتها ثم شوهتها تشويها.. صار البيت أطلالا محترقة فأين هنيّة؟ يدخل البيت فى غفلة من المزدحمين يملأ صدره الدخان الأسود.. يسعل ويعطس ويسأل "عزيزة" التى خرجت كيوم ولدتها أمها تحتضن ابنها المنبعثة من جلده النار.. تصرخ عزيزة.. فيأخذون منها الولد يغمرونه بالتراب.. وتلطم صدغيها فيقترب علىّ منها كالمجنون يتعلق بمؤخرتها ويصرخ:

- هنيّة فين يا عزيزة.....؟

- هنيّة هربت مع مانجة والأسطى.. نطوا من الشباك وسابونا!

- يعنى هنيّة ما اتحرقتش؟

- ما اعرفش!

سعيدا تغمرنى الراحة رغم التعب الرهيب فى الساقين والعينين والظهر
مصابا بالدوار متيسيس القدمين فلا أتحرك أستند إلى الجدار. هنيئة بخير..
فلتحترق إذن الدنيا كلها بمن فيها!

الفصل الثامن عشر

العيد

" ويجذبون الأقدام جذبة رجل واحد.. فيترنح العجل.. ثم
يميل على جنبه فينطرح أرضاً.. ناحية اليمين.. يبرك
فوق الرقبة رجب.. ويصرخ كالرعد: حلال الله أكبر..!"

٥٦

مع الفجر تصحو العصافير. توقظك العصافير المبهجة الفرحانة النشيطة
المغردة تزرق وتصفق بأجنحتها.. إنه العيد. تتقلب في فراشك يا على فتصدم
ذراعاك رأس شقيقك الأصغر منك الغارق في نوم هانىء تمنيته لو كان لك
أنت. يغمغم الولد في نومه بكلمات لا تفهمها فلا تهتم. تمد كفيك تفرك
جفنيك طاردا بقايا نوم هو والقلق سواء. تأبى الكوايس أن تغادر ليلك ونومك
و أحلامك. بالكوايس ولدت.. وبالكوايس سوف تموت يا على. تعتاد عيناك
بدايات الضوء المتسرب من خصاص شيش النافذة فترى جدتك المطروحة
تهذى فوق فرشتها التى علاها الاصفرار وسكن " الأكلان" كل شبر فيها.
تسمع شخيرها فتخالها ستموت.. فلا تهتم! تجول بعينيك فتمسح العينان
بياض أجساد شقيقاتك النائمات التى أخذت كل الأوضاع؛ هذه تباعدت فيها
الساقان والفخذان.. و تلك انكشف عنها الجلباب فبانَت السراويل.. والثالثة
فتحت فمها فسال اللعاب اللزج من زاويتي الفم. تبتسم أنت ثم تخجل من
نفسك فتغض الطرف. رغم الفقر والبؤس وتراكم الهموم كنّ جميلات شقيقاتك

يا علىّ. خرّاط البنات خرطهن مبكرا فصرن الآن حديث جدعان الحارة
فأمسكتهن أمك فى الدار يطبخن ويكنسن ويغسلن "المواعين" .. انحسرت
عنهن "الهدوم" .. تتظر فتتذكر انحسار الثوب عن جسد بشرى الناعم الظمآن
دائما للارتواء والشبع .. تمتعض فتكتتب .. يهتف فيك هاتف من داخلك
بغضب: " شقيقاتك لسن كبشرى يا علىّ .. شقيقاتك مثل مريم! " يملأ أذنيك
فجأة النداء المحبب الرخيم الدافىء يخطفك من سرحانك ويسكر حواسك
فترتعش مغتبطا. نداء تقجرت به القلوب الخاشعة فرددته الحناجر الملتهبة
بالحماس ونقلته إليك مئذنة الجامع الكبير :

" لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك
والملك .. لا شريك لك " ..

آآآآ .. ها قد بدأ العيد يا علىّ فاستعد. الآن يأخذك أبوك معه لتصلى .
فى العيد .. أبوك ليس أباك الذى اعتدت. فى العيد أبوك يبتسم .. بل
وأحيانا يفعلها ويضحك. يضغط الرجل على نفسه فينتزع من روحه الجافة
اليابسة ابتسامة يغتصبها اغتصابا .. ربما لأننا "ها يبجى لنا ضيوف!" .. ليت
ابنسامتك تدوم إلى الأبد يا أبى .. لكن هيهات .. لن تدوم .. فأنا أعرفك حق
المعرفة .. أنت فظ غليظ القلب نادر الابتسام. "معلّش" .. دعنا يا علىّ
نستمتع بساعات من الفرح مخطوفات من الزمن خطفا وبعدها فليكن ما
يكون. يا علىّ .. إنه العيد .. فلنفرح!

ترفض أن تحممك أمك .. "خلاص كبرت يا امّه!" .. تغتسل وحده .. هنيّة
علّمك الاغتسال " اللى على حق الله" .. بعد الاغتسال بالماء والصابون
المعطر وكوز اللوف .. تتوضّأ .. لا تهتز لوقع الماء البارد على جلد
مؤخرتك .. ولا لاقتحام الصابون وتغلغله إلى ما تحت جفنيك .. هنيّة حبيبتك

فى سخونة الصابون فى عينيك وأرشدتك إلى الشقوق المخفية والفتحات
المخبوءة والثنايا السرية التى لا يجب نسيانها أبدا وأنت تدعك! ترتدى البيجاما
"الكستور" الجديدة المخططة بالطول التى طوتها لك بالليل أمك طيّا محكما
ودفنتها تحت حاشية الفراش فكأنها طالعة من تحت يد الكواء الآن: آهى يا
على.. الكسرة فوق الكسرة.. إوعا توسّخها يا حبيبى! حتما ستنتسخ البيجاما
بعد دقائق معدودات.. أنت تعرف ذلك.. وأمك أيضا تعرف.. لكن "آهى غلبة
والسلام!" تمضيان - أبوك وأنت- فتدلفان إلى صحن المسجد الكبير. يجلس
هو فتجلس أنت ملاصقا له كتفا فى كتف. يردد أبوك النداء الجليل همسا فى
خشوع.. بينما تردده أنت- ومعك عيال الحارة- زاعقا فى صخب مشاغب.
يشتمل المسجد بالجلبة التى لا ينكرها الكبار.. تتسابقون لإثبات جدارتكم
بأحقية اصطحاب آبائكم لكم وكل منكم يريد أن يصرخ: "ها أنا ذا قد أصبحت
رجلا.. ألا تسمعون خشونة الصوت؟! تعلق أصوات الهاتف وتختلط:"
"الله أكبر كبيرا.. والحمد لله كثيرا.. وسبحان الله بكرة وأصيلا.. لا شريك
لك"

تتقضى الصلاة فيتصافح الكبار ويسارع الصغار إلى البيوت يلتهمون
"الفنة" التى عكفت على إعدادها الأمهات طوال الصباح؛ فنة غارقة فى المرق
زينّتها قطع اللحم المكسوة بالدهن والدسامة والطعامة.. هذا عيد للحم بلا
منازع واللحم فى كل دار.. وبعد قليل سوف يذبحون! يخرج علىّ إلى خرابة
البغدادى التى ازدحمت بكل رجال الحارة ونسائها وعيالها فيرى سكين رجب
الصقراوى تلمع فى كفه فينقبض قلبه. يقود رجب عجلا سمينا متخما بالصحة
والعافية وتفوح منه رائحة الموت. يرتجف العجل ويتقهقر للخلف رافضا أن
يتتبع.. فهل يعرف المقبل على الذبح أنه ذاهب إلى حتفه؟ يربط رجب-

والرجال معه- أقدام العجل الأربعة بحبل جبار مفتول مدهون بالزيت ثم يصيحون جميعا: "الله أكبر" ويجذبون الأقدام جذبة رجل واحد فيتزنج العجل ثم يميل على جنبه فينطرح أرضا.. ناحية اليمين. يبرك رجب فوق الرقبة ويطلق صرخة كالرعد: "حلال الله أكبر" ثم يخطب العنق بالسكين خبطة واحدة فيقفز من العروق الدم الحار يغرق الوجوه ويهمل الجميع وتبدأ ملحمة السلخ والشطف والتقطيع.. إنه العيد.. وستأكل الحارة كلها اليوم لحم الذبيح! ينتصف نهارك يا على فتجري مزهواً ببجامتك الجديدة وجسدك المعطر وبطنك المتخمة باللحم تكاد تتجشؤه.. تجرى إلى مريم. يعرف على أن وجهه أول وجه تريد مريم أن تفتح عينها عليه فى هذا اليوم المشهود فيسارع إليها.. قالت له ألف مرة: "يصبح الصبح تيجى لى على طول.. فاهم؟!".. وهاهو قد جاء. تحتضنك مريم فتقبلك بين عينيك وتهمس فى تحذير شديد اللهجة:

"غمّض عينيك يا على.. إوع تفتحهم ألا اما أقول لك.. إوع تبص يا وله!"

تغلق عينيك تلاعبها اللعبة التى تعشقها عشقا. هأنت تمثل أنك لا تعرف المفاجأة مع أنك تعرفها وهى تعرف أنك تعرف؛ ستفتح لك كفك.. وسوف تدس الحنّة أم خمسة.. ثم تطبق هى بنفسها أصابعك بإحكام على الشلن المعدني الجديد:

- يالآ فتّح عينيك..!

- إيه ده يا مريم.. شلن مرة واحدة؟

- يالآ يا عم هيّص.. كل سنة وانت طيب يا حبيبي..

تأخذك فى حضنها وتبلل وجنتيك بالقبلات فيرتجف جسدك وتقبل خدّها على السريع ثم تهرب من أمامها لا تحتمل رجفة المتعة الحنون التى انتابتك.. وتجرى. تمرّ على بيت الصقاروة فتراك بشرى الواقعة فى الشباك

بقميص النوم الأحمر النارى يكاد الشديان الناهدان يقفزان عليك منه قفزا..
تتهرك غاضبة: رحت لحبيبة القلب يا روح أمك؟ تعال اتهيب خد عيديتك!
تهز رأسك فى عناد وتصرخ غاضبا: لأ.. موش عاوز منك حاجة! تقهم
بشرى مغزى كلامك.. تقرأ أفكارك.. تعرف أنك قلت لنفسك- فضحتك عيناك
المتلصصتان: "وهل يأخذ الرجل عيديه من امرأة ضاجعها؟.. عيب!".. تطلق
ضحكتها المسرعة اللعوب التى كم حركت كوامن الشوق فى أعضائك
فأنهكتك.. تهرب من أمامها صاعدا سلالم بيتكم تنتظر وصول جحافل
المهنئين.. وعطاياهم الثمينة!

اليوم يوم الحصاد يا على.. وستملئ جيوب بيجامتك الجديدة بالفلوس..
وستكون اليوم أثرى الأثرياء.. خالك سعيد- القادم من العاصمة يعيد على
أمك- أفضل الجميع فى المنح.. سينقدك "ربع جنيه" بحاله.. وستعطيك كل
واحدة من خالاتك شلنا ورقيا جديدا برّاقا" يذبح أجعصها رقبة!".. وسيتوالى
تدافع القروش النحاسية الصفراء الرنانة والشلنات الورق والبرايز الفضة
اللامعة.. ستجتمع كلها فى حبيك تحت قيادة قائدها الأعظم "ربع جنيه خالك
سعيد!".. تبسط كفيك فتقبض.. ثم تقبض.. وترمى بالفلوس إلى الجيوب
فتنتفخ الجيوب.. إهنا يا على.. ها قد تجمعت لديك ثروتك السنوية الموعودة..
تنتابك غصة فى الحلق ويدق قلبك وتغزوك الذكرى المؤلمة فتمتعض وتسبّ
أباك فى سرّك؛ إن ثمة "موثقا" بينك وبينه إياك أن تتقضه؛ هو يمنح العيديات
للأبناء الأقارب.. والأقارب يمنحونك أنت وإخوتك العيديات.. فيعود أبوك
ليأخذ منكم كل شىء ساعة الغروب فلا يترك لكم إلا أقلّ القليل. لقد باغته
العيد فى غفلة منه فأنفق على ملابسكم الجديدة كل ما معه ولم يعد معه الآن
شىء تقتاتون به.. تلك "العيديات" هى طعامكم فى أيام العيد يا على.. فلا

تتس. تقرصك أمك فى شحمة أذنك تتعمد أن تؤلمك كى لا تنسى: " إوع تصرف الفلوس كلها يا على.. أبوك يموتك.. حاسب على الفلوس يا حبيبي ..!" طبعا.. يحفظ على الموائيق كلها عن ظهر قلب.. وهل مثل نقض الموائيق مدعاة للضرب المؤلم والإهانات والتلطيش؟ لا يا عم.. الطيب أحسن.. خلى العيد يعدى على خير.. فهل حقا سيمر العيد على خير؟!

بين الحارة والساحة الفسيحة- التى بجوار "القطع"- مسيرة نصف ساعة إن أنت مشيت الهوينا.. فإن تعجلت فى الخطو قطعت المسافة فى نحو ربع الساعة.. لكنك لو كنت عليا.. وكنت فى العيد.. وكانت جيوبك تئن بحملها.. فلن يستغرق الأمر منك أكثر من عشر دقائق.. إذ أنك حتما سوف تجرى ملهوفاً لتلحق بمعمعان العيد الصاخب المدهش. أدخل العيد.. فتبتلعنى الساحة اللاهية بالأضواء والصياح والزحام.. كل الأجساد تصير جسدا واحدا ملتحما ككتلة واحدة ترزق.. تأخذك الساحة .. فيذهب عقلك.

- رايح فين يا على؟

- رايح العيد يا امه!

- طب حاسب على نفسك.. إوع تتوه!

تكتئب.. وتشتتها وأباك والدنيا بصوت خافت لا يسمعه أحد.. وتجرى تطلق ساقيك تسابق الريح. هيا إلى التوهان المدوخ.. والمتعة الكاملة.. والحرية التى لا مثيل لها. تدخل العيد.. فتستقبلك "المراجيح". قارب ممسوك بأسياخ من حديد صدأ مشبوك بحديد آخر فى السقف ويدور حول عجلات صغيرة مثبتة بعناية.. وعلى القارب رسومات مزركشة. القارب سيصعد بك إلى السماء.. ثم يهوى بك فجأة فيلمس الأرض من جديد. تشعر بالدوخة

وبروحك تكاد تطلع منك.. ينظر نحوك الرجل ذو الجلابب الأزرق الممزق
صاحب المراجيح.. يراك.. فيصرخ فيك:

- تركب يا ابني؟

- آه.. بكام يا عم؟

- الربع ساعة بقرش صاغ..

- لأ.. بتعريفة بس!

- طيب.. يالّا انتيل اركب ركبك عفريت!

تلقى إليه بالتعريفة.. وتصعد.. فتقف منحنيا للأمام.. تقدم ساقا للأمام
وأخرى للخلف.. وتشخط في صاحب المراجيح: "ما تدّينا زقة للنبي يا عم!".
تحرك جسدك "رايح جاى".. فيطير بك المركب في الهواء.. تهز مؤخرتك إلى
الخلف ثم إلى الأمام.. وفخذيك عكس اتجاه الهواء أعلى وأسفل.. فتتذكر
بشرى.. أرجوحتك المميّنة.. تستغفر الله.. وتضغط عينيك متناسيا المشهد
الحميم.. وتعلو وتعلو.. ثم تهبط.. تقول لنفسك: "اليوم سأقلب المرجيحة"!..
قليلون هم الذين ينجحون فى "قلبها" وجعلها تدور حول محورها فى لفّة كاملة
٣٦٠ درجة.. وأنت يا علىّ واحد من هؤلاء القليلين.. وهامى الأرجوحة
تتقلب.. فيصبح رأسك إلى أسفل وساقاك إلى أعلى.. ثم تدور من جديد!
ومع أول "قلبة" ينخلع قلبك فتتشبث باستماتة بيديك على القضيبين الحديد..
لفّة وراءها لفة وتغرق فى المتعة ويستغرقك "القلب" المتوالى ويبلغ قلبك أقصى
خفقانه.. وتدوخ فتحمّر وجنتاك وأذناك وعيناك ويغطيك العرق كالفيضان يبلل
بيجامتك الجديدة.. تلهث فيشعر بك صاحب المراجيح ويخاف عليك ويشدّ
كوابح الأرجوحة ببطء.. تتباطأ حركة الأرجوحة وحركتك ورويدا رويدا تتوقف

الأرجوحة وينقطع فيك تيار متعتك. تنزل تتخبط تلتف فيك الساق بالساق..
تجلس على الأرض دائخا تنقياً فينهرك ذو الجلباب الأزرق.. يصرخ فيك:
- كنت ها تموت وتضيّعنى معاك يا ابن الكلاب!

ترد له الصاع صاعين.. وتدمدم:

- روح فى داهية انت وامك.. موش خت التعريفة بتاعك؟!

تمضى تترنح فتقع عيناك على "صاحب البرواز" كابسا فى رأسه طرطوره
الملون الذى يشبه القرطاس. آآآآه من سحر البرواز يا على.. كم أغراك
السحر فى كل عيد فأوردك موارد التهلكة.. حب المقامرة يجرى فى دمك..
وها هو البرواز أمامك والعيدية فى جيبك.. فهيا إلى غواية البرواز. مستطيل
كبير من زجاج.. مقسم إلى مربعات أخرى صغيرة.. فى كل واحد منها صورة
تحتها رقم. عند الرقم "سبعة" - الذى علمتك بشرى أن تعشقه عشقا - ثمة
صورة لامرأة شابة بيضاء شعرها أصفر كنساء مجلات بشرى الشقراوات
اللائى ليس فى حارتكم مثيلا لهن.. المرأة عارية تماما تجلس فوق كرسى من
المخمل تغطى ثدييها بكفيها واضعة ساقا فوق ساق يكاد لحم الفخذ يكسر
الزجاج ليقفز بين ذراعيك.. تعمر المرأة بعينها اليسرى لك تتاديك. بجوارها -
فى المربع الملاصق رقم ثلاثة - صبى يشبهك راكبا دراجته ويسبح فى
الفضاء.. وعند الرقم "واحد" ثعبان لامع الجلد عيناها من نار التفتّ حول نفسه
ينظر إليك فى تحد يوشك أن ينقض عليك.. وفوق الرقم خمسة ثمة شيخ
جليل أمسك بمسبحته وراح يسبح.. وتتوالى المربعات.. يلمحك صاحب
البرواز المفتول العضلات فيقرأ الوهج فى عينيك.. ويناديك:

- تلعب يا ابنى؟

- ألعب.. ما العيش ليه؟

علىّ يعرف أصول اللعبة جيدا.. كيف لا وهو الذى يلعبها فى كل عيد فتسحقه؟ ستناديك المرأة الجميلة اللعوب فى إغراء.. وستلفحك نار الشوق فتقفو إليها وتلقى بروحك فى دوامتها السحيقة. حسنا يا عم علىّ.. هيا العب على الرقم "سبعة". سيضع الرجل قطعى الزهر الرخاميتى الملمس داخل كوب من بلاستيك قوى.. وتضع أنت رهانك فوق أحد المربعات التى استهوتك.. ويلقى الرجل بالزهريين.. فإن جاء مجموع رقميهما ماثلا لرقم المربع الذى اخترت فقد فزت.. تحصل على نقودك ومثلها معها.. فضلا عن هدية؛ طرطور ملون، أو قليل من "الملبس"، أو قطعة من الملبن المدعوك فى السكر المطحون، أو مسخوط صغير.. وربما تتال كرة ملونة إن أحببت. سيراهن علىّ على المرأة اللعوب.. ألم يراهن عليهن دائما؟ حطّ القرش فوق حلمة الندى اليسرى للمرأة: "اخترت الرقم سبعة.. فهيا ارم الزهر يا صاحب البرواز". يا للعجب.. لقد جاء الزهر الأول يحمل الرقم ثلاثة.. والثانى أربعة.. وافرحته.. إن المجموع سبعة.. تكسب يا بنى فتعال خذ مكافأة فوزك..

- تلعب كمان؟

- ألعب.. ما العبش ليه؟

يأتى الزهر هذه المرة على غير ما تشتهى.. ستة زائدا أربعة!

- تخسر يا ابنى.. تلعب تانى؟

- ألعب..!

تعتصر الرغبة المجنونة فى تعويض خسارتك قلب روحك فتلعب وتلعب وتتوالى الخسارات. تتحداك البنت ذات الأفخاذ السائلة وتخرج لسانها لك

وتهمس: "إلعب يا عيل!". يشعر بك المقامر الأكبر - صاحب البرواز -
فيشفق عليك.. يغلق علبة البرواز صائحا فيك:

- عارف خسرت كام يا ابني لحدّ الوقتي؟
- لأ...!

- ربع جنيه!
- يا خبر اسود.. ربع جنيه خالى سعيد ضاع.. ها اللعب علشان
أعوّض!

- لأ.. روّح لأمك أحسن.. كفاية كده!
تمضى حزينا فتلتمح "شعر البنات" يتراقص خارجا من الماكينة أحمر
وأبيض كالبخار فيسيل لعابك.. رائحة الفانيليا تكاد تقتلك.. فتسارع إلى
الماكينة:

- هات بتعريفة يا عم!
- لأ.. الكيس بصاغ!
- خد...!

.. وتمشى تتسكع فيأخذك النهار وتستهويك لذة الإنفاق وتتسى أباك وأمك
والدنيا جميعا وتشترى كل ما تشتهي. لماذا التأجيل يا على؟ هيا عبّ من
الفرحة عبّا فللغد رب يدبره.. تمد يديك إلى جيب البيجاما الجديدة فتفجؤك
الفاجعة.. لقد خلا الجيب من النقود.. أنفقت العيديّة كلها يا على؟ سننك
سوده! يقلّص قلبك خوفا وهلعا فتغزو سامعيك الموسيقى المألوفة لأذنيك
قادمة تتسحب من بعيد: " .. غلبت أصالح فى روحى!" آآآآآه.. "إن هنيّة"
هنا.. فى العيد! تجرى تطاردك الروح التى تأبى التصالح.. تقترب من الخيمة
المقسومة قسمين وبابها من قماش متين مطوى إلى الجنب فلا يسمح إلا

بمرور شخص واحد. يريد على أن يدلف فتقبض يد من فولاذ على عنقه؛ يد
معريدة مشعرة جبارة المسك.. أتعرفها يا على؟ نعم.. تلك أصابع "مانجه"
صبي العالمة الذى يراك فيصرخ:

- هو انت تانى يا وله.. إنت ورانا ورانا يا ابني؟

- عاوز أخش..!

- إبتتلّ خش.. خشت عليك وخذت أجلك!

تتسحب إلى الداخل فترى مقاعد الخوص رصت فى صفين بينهما ممر
وأمام المقاعد نصبوا المنصّة؛ منصّة كمنصّة مزاد العطار.. فأين التخت؟
آه.. ها هو التخت.. وهاهم الرجال الأربعة؛ عازف الكمانجا.. ولاعب
القانون.. والناياتى.. وقارع الطبلّة.. فأين الراقصة؟ تسكت الموسيقى فتدخل
الأسطى "تقدم الراقصة للجالسين المبهورين المفتوحى الأعين على اتساعها.
هنيّة.. لكن ما هذا؟ لقد أتت راكبة حمارا من بشريرعرفه على فى الحال..
الحاج مصطفى. ينهض الحمار متعبا فيسحب كرسيه من الخوص ويتهالك
فوقه.. حليق الرأس والشارب مصفرّ الوجه ممصووس القوام وفى عينيه
الزائغى النظرات الذل كله.

نعم.. تلك هنيّة.. فلماذا تغطى وجهها هكذا؟

يعرف على جيدا ذلك البياض الشاهق الذى كم دوّخه والذراعين اللتين كم
أراح رأسه عليهما ونام والساقين اللتين كم تشمم عبيهما فى نهم.. يعرف
الصدر العامر واستدارة الردفين وسحبة البطن للداخل ورقّة الأصابع التى كم
قبّلها سعيّدا وتمنى أن يأكلها أكلا.. فلماذا تغطين وجهك كله هكذا يا هنيّة؟
تلتنقى عيناه بعينيها فتتوقف للحظة عن الهز وتكاد تتعثر لكنها تتماسك وتهبط

من المنصة رقصا وتتجه نحوه.. تضمه إلى صدرها بشغف فيصفق جمهور
الجالسين.. وتهمس:

- ما تمشيش يا على.. روح الخيمة الثانية!

يغبت قلبك فيدق بعنف.. يلمحك مصطفى فتشتعل عيناه بغضب
كالنار.. يقفز يطارك.. وتجرى أنت تلهث.. ويضحك الجمهور. تنهى هنية
نمرتها "فتسارع إليك.. تحضنك وتبكي. كانت "الأسطى" المتكومة المقعية
فوق فرشة من الخيش الممزق في الركن ترأقبكما صامتة وتسأل أنت هنية:

- ليه مغطية وشك كده ليه يا هنية؟

تدمدم الأسطى غاضبة:

- وشها اتحرق في الحريقة يا عين امك!

تنزع هنية ملابسها كلها القطعة تلو الأخرى.. تصير عارية تماما إلا من
غطاء الوجه تبقى.. وتغير ملابسها. تشير في حزن إلى البقع البنية المحترقة
المنتشرة فوق الصدر والبطن والفخذين:

- شايف النار عملت فيا إيه يا على؟

تتألم تكاد تبكي فيباغتكما مصطفى صارخا:

- ابن الجزمة ده إيه اللي جابو هنا؟

يقبض على عنقك يريد خنقك فتشقهق هنية بيبكاء يمزق القلب وتدمدم
بكلمات كسيحة: والنبى تسييه يا مصطفى. يبتلع لعابه ويسب أباك وأمك
ويتركك ويخرج نافضا جلبابه الباهت لاعنا هنية والأسطى والأيام وترتمى
أنت على قناع البنت تريد أن تنزعه فيعاجلك مانجه بصفحة تدير رأسك
ويشخط فيك:

- امش يا واد من هنا.. عارف لو جيت هنا تانى.. هاقاطع فرطك!

- معلّش يا على.. امشى دلوقتى..!

تهرب باكيا.. تتذكر وجه هنيّة الجميل وتبكي.. تتعثر قدمك فى حبال الخيمة فتهوى فوق حجر وينزف الدم من شفّتك وأنفك وجبهتك لكنك تنهض تجرى كالمجذوب تغادر العيد. وكعادته يأبى العيد أن يرحل دون وداع مؤلم. ستخبط أمك على صدرها ملّاعة وسيسألك أبوك مصعوقا: فين الفلوس يا ابن الكلب؟ وسيصفعك صفعته الشهيرة تحت أذنك؛ تلك الصّفة التي دائما ما أطفأت نور عينيك حتى وأنت فى العيد:

- صرفت كام يا ابن الحرام؟

- ٧٦ صاغ يا بابا..!

- طب يالّا زى الشاطر.. خش الحمّام.. واخلع هدومك!

تخلع. يفتح عليك الماء وتهوى العصا الخيزران الرفيعة الناعمة الملمس كحبة رقطاء فوق بدنك العارى. يتمزق الجلد وينبجس الدم راسما وشما من المثلاثات و المربعات والدوائر خطوطه المتشابكة حمراء وسوداء فوق ظهرك. تتذكّر مربعات البرواز فتصرخ وتتدخل أمك تلطم صدغيها وتمسك بيده لتوقف جنونه الذى اشتعل فأنساه نفسه.. يدفعها فتنهار على الأرض ويصدم رأسها الحائط فيسيل الدم.. تصرخ فيه:

- حرام يا ابو على.. والنبي كفاية.. إحنا فى العيد يا اخويا!

- عيد أسود عليك وعلى ولادك..

يركلك ويخرج كالثور الهائج.. ترتضى عليك أمك تمسح عنك دمك وتمسح أنت دماءها.. وتتاجيك: معلّش يا على.. أبوك طيب.. بس عصبى.. تنسحب ذليلا مكسورا.. تقطر روحك دم الإهانات المتواصلة. تتذكر وجه هنيّة المحروق فتدفن وجهك فى الوسادة الغارقة فى دمك.. وتبكي فى العيد!

يتهدج صوت المقرئ المترعب فوق مقعد مذهب اليدين مرتفع القوائم..
ويقرأ: "يا أيتها النفس المطمئنة.. ارجعي إلى ربك راضية مرضية.. فادخلي
في عبادي.. وادخلي جنتي.. صدق الله العظيم.. الفاتحة". ينقضي الصوان.
ينهض الجميع يتوجهون نحوك فيصافحونك ويصافحون أخاك.. أنتما الواقفان
على باب الصوان:

- شد حيلك يا أستاذ. البقية في حياتك..

- الشدة على الله.. شكر الله سعيكم..

تتطفئ أنوار الصوان؛ المصباح تلو المصباح.. يسود الظلام.. فتتهالك
على مقعد خشبي ويهمس شقيقك لك:

- بقينا نص الليل يا على موش معقول ها تروح مصر دلوقتى!

- لأ.. ها اروح!

- الدنيا ليل..

- قلت لك ها امشى.. معايا السواق

- زى ما تشوف.. طول عمرك راسك ناشفة

تشير بأصابعك إلى عرفة الجالس غير بعيد يغالبه النوم فنتساقط منه
رأسه فوق صدره: يالآ بينا يا عرفة. يجلس خلف المقود وتتهالك أنت بتقلأك
كله فوق المقعد الخلفى بوجع مفاصلك وآلام عظام ظهرهك وصداع رأسك
والكدر الذى انتشر كالوباء فخيّم على روحك.. تتمنى لو أن الدنيا كلها تموت
الآن كما ماتت أمك. تنهب السيارة حارات "الفلايحة" وطرقاتها الضيقة المتربة
يطاردك نباح الكلاب التى كم طاردتك وأنت فى طريقك إلى بيت مريم. تبلغ
مدخل البلدة. يريد عرفة أن يتكلم ليسرّى عنك ويسليك.. وبالمرة يطرد النوم

من عينيه: طولة العمر ليك يا باشا! يفجر صوته- الذى أوقف جلال الصمت التام من حولك- موجات الاكتئاب المعقدة فى روحك كالأبخرة المغليّة فتأمره بغضب: سوق وانت ساكت. يصمت كقبر فتتظر من نافذة السيارة. تكتشف أنك تمر الآن بالجبانة.. ترى أمك توقظك من النوم بلكرة خفيفة فى جنبك وتبتسم لك: قم يا واد روح المدرسة.. عاوز أنام يا أمه.. قم نامت عليك حيلة! ترفض نظرتها الحانية مبارحة ذاكرتك. تراها كأنها بجوارك الآن فى السيارة. كانت تحبك وكنت تحبها إلا أن العمر ضاع فلم تصارحها بهذا الحب.. هى لم تكن فى حاجة لتلك المصارحة.. كل ذرة فيها كانت تحبك" يا واد يا على انت ابن عمرى يا وله!".. كيف مضى العمر بها سريعا هكذا فانقضى وماتت صغيرة؟ آااااا يا على.. جمعت من المال ما جمعت.. سافرت إلى الدنيا كلها.. وعرفت من النساء والرجال من عرفت.. همست لنسوة المدينة كلهن وهن فى أحضانك ساعة العناق الحميم: "أحبك".. فكيف لم تقلها مرة واحدة لأمك وهى الوحيدة التى- بلا ثمن- أحببتك؟ ياااااااا يا على.. ياااااااا يا أيها الكلب.. كم قسا عليها قلبك حتى تحجّر. حتى فى أيامها الأخيرة- وهى مريضة تموت- قالت: أشوفه.. فاكتفيت بزيار خاطفة؛ زيارة غريب يتأفف من رائحة البول والديتول والضعف الإنسانى الشاحب المستلقى فوق فراش أبيض متسخ ويموت. ألقيت بأوراق النقد على الوسادة فى قرف وعندما تسربت من شفيتها الكلمات خافتة مهشمة الأحرف: "الدكتور شال لى صدرى كله يا على" لم يهتز فيك عصب ولا ارتجف لك جفن.. لم تكلف نفسك عناء ضم يدها إلى شفتيك لتقبلها؛ تلك اليد التى كم هدهدتك.. فقط غمغمت بألفاظ تائهة مشمئزة لا معنى لها. حتى كلمات التطمين ضننت بها عليها يا ابن الكلب! آااااااا كم أنت وضيع وقزم رغم الهالات المصطنعة

التي تضحك بها على الدنيا من حولك.. وسخ أنت رغم البدلة الجديدة ورابطة العنق اللامعة.. لست إلا حذاء عفنا بل أرخص من حذاء.. ها هي الجبانة توشك أن تنتهى.. بعد قليل سندخل الطريق السريع.. رغما عنك تتسال دموعك.. ويرتجف قلبك فتتشنج عضلات وجهك وتشيح به إلى هناك.. إلى المقابر.. حيث أمك.. آخر ما ترغب فيه الآن أن يرى عرفة السائق وجهك فى مرآة السيارة. تعرف أنه يراقب كل خلجة من خلجات جوارحك ويحاول اختراق رأسك ليعرف ما بها كى يسارع ليلوك سمعتك هناك مع الجميع، بالمؤسسة وبالمقهى وفوق صدر امرأته ساعة النجوى التالية للنشوة. لا لن ترى دموعى أيها الحقيير.. ضعفى لن يشاركنى فيه إلا أنا. لن تتركه يرى دموعك حتى لو كانت على أمك!

.. فجأة تصرخ: وقّف العربية يا عرفة.. وقّف! فيه إيه يا بيه؟ قلت لك وقّف يا حمار! يضغط مكابح السيارة مندھشا فتفتح الباب وتطلق ساقيك للريح.. تجرى.. تجرى.. فتدخل الجبانة حيث الظلمة الحالكة وأسراب العفاريت التى أيقظها صرير الفرامل فخرجت تتسكع بين صفوف المقابر.. كنت قد رأيته.. مريم. ورأيت النور يتصاعد كعمود دخان من قبر أمك.. نادى عليك الصوت فأسرعت تلبى النداء.. ورأيته.. مريم.. أسارع إليها أشتهى ضمها لتبوسنى بين عيني وتهمس لى: "عينك حلوة يا على زى امك!".. تلك ضمة لم أذوقها منذ أربعين سنة وحان وقتها الآن. ألقى بنفسى عليها فتردنى بكفيها غاضبة. مريم.. مالك؟ أنا على! تعال ادخل! تأمرك فتتعجب وتسألها مصعوقا: عاوزانى اخش التربة يا مريم؟ ادخل..! أتردد فتدفعنى بعنف.. أتدحرج فوق سلالم القبر فتقودنى السلالم إلى ساحة فسيحة. لم أكن أحسب أن القبور تحتها كل هذا الخواء.. الله الله.. إننى أعرف هذا

الدھليز. آآآآآآ.. أليس هذا دھليز بيت العجوانى.. بيتكم يا مريم؟ أتلفت حولى فعتاد عيناى ظلمة الامتداد اللانهائى المخيف فأرى نساء مقعيات مسنودات فى إعياء إلى الجدران متشحات بالسواد. كن يلطنن أصداغن وعيونهن غارقة فى الدموع.. أين أنا؟ ترفع إحداهن رأسها نحوى فأشعر بقلبى يرتعد. ما هذه الفتنة يا ربى؟ تجتاحنى قشعريرة شبق كنت قد نسيتها من أربعين سنة.. آآآآآ.. بشرى. أقترب منها فتبصق فى وجهى بصاقا لزجا لزوجة الغضب: امش من قدامى يا وسخ!! تدفن رأسها بين ركبتيها المنفرجتين فتتسرب شعرتان من تحت الطرحة وأشم رائحة الصابون المعطر. تجذبنى يدان كالحديد فأنظر وتصعقنى الصفعة: وانت كمان يا سناء؟ امش من قدامى يا وسخ! الآن أدركت. كل نساء الحارة جئن يعزيننى بطريقتهن! أرى هدى الراقية الرقيقة المثقفة بنت الناس حبيبة الجرامفون. أهول نحوها متوسلا طالبا السماح فتصرخ مشيرة بسبابتها فى تحذير: امش من قدامى يا وسخ.. إوع تقرب منى!

تقودنى مريم من يدى وتمضى بى فنبلغ حفرة عميقة شديدة الإظلام تدفعنى إليها فأتهاوى كحجر تكسرت فيه الضلوع.. وأراها.. كانت جالسة فوق كومة من الروث الجاف تثبت عينيها فى عيني وينسال من جفنيها دمع صامت يسيل فوق وجنتيها الصفراوين. أعرف ما تقول لى عيناك يا أمى: "أنت وسخ!" ينفطر قلبى فأتمنى لو كنت ميتا الآن لكن هل ينفع الندم وقد صعدت روحك إلى بارئها؟ تزحف بى مريم نحو أمى إلا أن أمى تتباعد.. أقترب فتبتعد.. أقترب فتبتعد.. أصرخ: "رايحة فين وسايبانى؟" يصعقنى ضوء السيارات يؤلم عيني.. ثم.. أحس بلمسة خفيفة الوطأة فوق كتفى:

- يا بيه.. يا بيه!

- فى إيه يا عرفة؟

- كفاية عياط بقى.. الموبايل نازل رنّ من ساعتها!

أنتزع الموبايل من يديه فيأتينى صوتها مؤنبا:

- آلو.. أيوه يا ستى.. حياتك الباقية..

- هو ما فيش حد أمه ماتت إلا أنت يا على؟

- إخرسى..!

أغلق الهاتف بغضب.. تعرف جيدا أن كلماتك ستصعقها .. وتعرف أنها سوف تتألم فى صمت . تلك هى المرة الأولى منذ زواجكما التى تسمع منك هذه اللغة الطافحة بالكراهية والزهق والضياح. إنها لا تعرف أنك- فى داخلك- تحملها مسئولية ما جرى بينك وبين أمك.. لكن هل كانت هى المسؤلة حقا.. أم أنها أنا نيتك وميراث الكراهية المعشش فى روحك نحو أبيك منذ الطفولة؟ ذلك الميراث الذى أمضيت عمرك تبنى حوله ستارا حديديا .. وفيما أنت عاكف على بنائه نسيت أمك وأخوتك وذكريات الفلاحة كلها.. وها هى الذكريات تتقافز أما عينيك كالشياطين وأنت فى الجبّانة.. زوجتك ليست المسؤلة يا على.. إن مشكلتك فيك أنت. تصحو من عكارة الذكريات المؤلمة على صوت عرفة:

- يا على بيه.. معالى الوزير على التليفون!

-

- حياتك الباقية يا ياسين!

-

- لآ جاى.. استتانى!

مبهوتا تسمع زعيق الفرامل من جديد.. وصرخة السائق الغاضبة: إبعد يا ابن الجزمة انت وهو من هنا.. تفتح النافذة وتتنظر فترى ثلثة من الصبية الحفاة المتسرلين بجلايب زرقاء ممزقة مرقعة وعلى وجوههم صفرة الموت خرجوا من القبور فتجمعوا وسط الطريق وراحوا يمطرون سيارتك بالحجارة.. يبلغ الحجر الزجاج فيتجمد فى الهواء ولا يصل إليك. تمنع النظر فى الوجوه فتعرفها وتفتح فمك على اتساعه.. آآآآآآ.. إنه ديستيفانو الرهيب وسيد ابن الفاكهانية الشلق وسناء وشرقاوى يقتربون منك فلا ترى لهم أعينا بل محاجر كهفية مظلمة لا حياة بها.. والأفواه حفر غائرة بلا أسنان.. والأنوف فتحات غطّاها المخاط . يمد ديستيفانو يده المعروفة التى أظفارها كالسكاكين.. يزعق فيك: إنزل من العربية يا روح امك! ترتعد.. فتصرخ فى عرفة السائق: إدهسهم.. إدهسهم كلهم يا عرفة..! ينظر إليك السائق فى المرأة متعجبا فى إشفاق.. ويتمتم: أدهس مين يا بيه اسم الله عليك؟ العيال دى كلها يا عرفة! عيال مين ياباشا.. مافيش حد.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! كيف لا يراهم؟ يضحك ديستيفانو فيتناثر بصاق ضحكاته على وجهك.. ويدمدم: كنت فين يا على وامك بتدور عليك. يقترب علاء منك يريد مصافحتك فترتعش أطرافك.. ومن وسط الجميع يسارع إليك أبوك غاضبا وفى يده العصا الخيزران الغليظة يريد أن يهوى بها على وجهك فتقبض على كتفى عرفة تهزه هزا وتهتف مرعوبا: إجرى.. إجرى يا عرفة.. تتراقص الأشياء أمامك ثم تختفى فلا ترى إلا الضباب وأشباح الماضى. يستغرقك ضحك هيسيتيرى يفجر أذنيك بينما مريم تنتظر إليك باكية فى عتاب موجه قطع أنياط قلبك!

أعرف تلك الحالة جيدا!

سوف ينفتح المخزن المتعفن الكامن هناك فى الركن المظلم من روحك وسيتسرب منه ذلك الخيط الخبيث من البخار يقطع طريقه على مهل فيحتل كل أعضائك يسعى لشلها.. وستشعر أنت بمفاصلك تؤلمك فلا تقوى على الحراك وستجد صعوبة بالغة فى ابتلاع لعابك الذى صار كعود يابس من حطب مكسو بالشوك.. وساعتها سيكون صعبا عليك الاستمرار فى سحب أنفاسك بانتظام فترتجف كفاك ولن تجد أى رغبة فى التحرك من مكانك ولا خطوة واحدة. كثيرا ما انتابتك تلك الحالة من الخواء والتشتت.. خاصة فى لحظات اليأس التام حين تفقد كل الأشياء فى ذهنك معناها.. وحتى البول المحبوس ساخنا فى مثانتك يوخزها بوخزات من نار لن تكلف نفسك- رغم الألم المبرح- بالنهوض لإفراغه وستبقى تتألم وتكر على أسنانك فى صمت. سوف تتحجر نظراتك وتثبت عيناك على نقطة واحدة وهمية لا وجود لها إلا فى خيالك التائه.. كأنك أعمى.. وسينتشر ضباب كثيف أمام العينين فتغيمان ولا تجدان الدمع فيتعذر عليك البكاء.. وعندئذ تبدأ الرعدة الجهنمية رحلتها بادئة بأصابع قدميك ثم ترتفع كالشعبان اللئيم لتحتل فقرات عمودك الفقرى؛ فقرة فقرة.. وساعتها ستحس بالبرودة القاتلة تدق ظهرك كالمسامير وترتعش.. وسيعقب ذلك كله عرق متمرّد ساكن تحت جلدك يأبى الخروج من مسامك ويظل يدغدغ منابت الشعر.. فترتعش أكثر.

ها قد بدأت الحمى يا على!

تتجاوز السيارة "رسميس" ونقترب من وسط البلد فترى نفسك فى شارع سليمان حيث السكون قابع هناك بجوار أبواب المحال والصمت نائم فوق

الأرصفة والسكوت متمدّد تحت أعمدة الإضاءة الخافتة الإنارة. لا أحد في الشارع الآن إلا أنت وعرفة السائق بإطارات سيارته المجهدة من عناء الطريق. تنقز الفكرة إلى رأسك كطوق نجاة ترقبته طويلاً؛ خلاص يا على.. المعركة انتهت وأن أوان الإياب.. حسنا.. سوف أتوب.. تعبت.. خلاص تعبت.. لا مزيد من المجاهدة أو المناهدة أو الاشتباك مع الحياة.. لا دسائس ولا مؤامرات ولا ملابطة بعد اليوم يا على.. كفاك نضالاً فإن قلبك لم يعد يحتمل وهامى أعصابك أمامك ترتعش.. كانت الحمى دائماً تهاجم روحك فكنت تهزمها إلا أنها هذه المرة سوف تهزمك. صوت جبار مدو معربد بداخلك ينبئك بذلك الآن: خلاص يا على.. المعركة انتهت! تنتظر إلى السائق المغلق العينين فى إعياء وينتأب وتهمس فى تعب ذليل:

- يا عرفة.. ودّينى السيدة نفيسة!
- ماشى يا باشا.. الفجر قرّب.. نصلى سوا إن شاء الله..
- لأ.. ودّينى.. وروح انت!
- بس يا باشا..
- إسمع الكلام!

يتعجب فلا يعلّق.. ويكتفى بهز رأسه.. يمضى يسب أباك وتدخل أنت إلى صحن المسجد مسكوناً بالوجل. لأول مرة سوف تصلى منذ سنين. لا شك فى أن حيطان المسجد وملائكته والمصلين يستغربون وجودك بينهم الآن أنت أيها العاصى الكاره للعبادات المطرود من رحمة ربك. تختلس النظرات فلا ترى أحدا تعرفه ولا أحد ينظر إليك. تشعر بالاطمئنان وتبتسم لنفسك فى مرارة؛ طبعاً.. بالتأكيد.. فمن هنا يمكن أن يتعرّف عليك أنت أيها النكرة الذى دفن أمّه الغاضبة عليه قبل قليل؟ تنتحى جانبا فترمى بجسدك المتهالك بجوار

أحد الأعمدة وتغطى وجهك بكفيك.. تغمض عينيك تضغطهما وتتذكر؛ متى كانت آخر مرة وطئت فيها قدماك سجادة مسجد يا على؟ من عشر سنين؟ لا بل أكثر. كان ذلك فى بلد الجبال الشاهقة والقات والخناجر الملتوية تحتضنها الأحزمة حول البطون عندما زرتهم هناك فدعوك- وسط الاجتماع- إلى صلاة الجماعة بأحد أروقة الوزارة.. يومها كذبت عليهم قلت إنك على وضوءك وصليت أيها العاصى المتبجح بغير وضوء. ياااااااه يا على.. منذ أن غادرت الفلايحة وأتيت إلى العاصمة وأنت لا تحب الصلاة فلم تحببك الصلاة. أبدا ما استهوتك المساجد يا على ولا أنت أحببت قط صوت المؤذن الذى كم أغضبتك حشرجته. تشعر بالاختناق من ضجيج الصمت بالمساجد ومن رائحة الهواء الممزوج بالبخور. تغضبك الوجوه المكحولة الجباه تحسبها خانعة أخنعها الفشل .. تصرخ فيهم روحك المملولة: أنتم أيها الفاشلون ما جئتم إلى هنا إلا لتداروا خيباتكم فى المواجهة.. لا.. لست مثلكم.. أنا الذى أدمنت التمرد والسير عكس التيار واقتربت بشرى عند أول قطرات للبلوغ.

لا.. لست واحدا منكم يا طريدى الحياة!

ترى المصاحف فتقفو روحك إلى قرآن من القرائن المصفوفة بعناية فوق الأرفف.. تمد يدك فترتد إليك اليد وهى مرتعدة.. يصرخ فيك هاتف بداخلك: "أما القرآن فلا.. فالنجاسة والقرآن لا يجتمعان يا على.. كف يدك". تغشاك الحسرة فتدور بعينيك فى سقف المسجد حيث الثريات الضخمة الفخيمة والمصابيح الملونة الخضراء وألواح الخشب العتيقة وآيات الخط الكوفى المتشابكة الحروف. رغم السكينة التى تلف المكان لم تجد أنت سكينة روحك يا على.. هيا فقم.. فالمسجد ليس مكانك وكفاك ادعاء.. انهزمت فجئت مهرولا إلى المسجد تبحث عن خلاصك.. لا.. لا خلاص لك هنا.. هيا تأبط

حذاءك وامض. أهمّ بالخطو فأسمع همهمة هناك فى محراب الجامع. انتسمّع بعناية فإخالنى سمعت هذا الصوت من قبل. أدقق النظر فى الرجل الجالس فى بطن المحراب وظهره لى وكله أبيض كأنه ضباب؛ جلبابه القصير أبيض وسرواله الذى لم يتجاوز ركبتيه إلا قليلا أبيض وشعره المجدول ضفائر تتسدل فوق كتفيه أبيض.. أحسّ وكأنه أحس بنظراتى تلفحه فالتفت إلىّ بسرعة خاطفة.. رآنى ورأيتّه.. فتجمد الدم فى عروقى وتسرب لعابى خطين من زاويتي فمى. أعرفه ويعرفنى. ينهض فى تودة ويسير نحوى بوجه كالتلج أبيض وبعينين ميتين ليس فيهما بياض ولا سواد وله لحية بيضاء تمتد حتى فتحة صدر جلبابه. يقترب منى فأريد الفرار إلا أن قدمى تأبيان أن تتحركا فتسمرت مكانى.. يلمس كتفى بأصابع كالمخالب ويهمس:

- مرحب يا أستاذ.. موش عارفنى؟

- مين؟ شرقاوى ابن الصقاروة؟

- جاى تتوب؟ توبتك عندى.. تعال!

- امش يا لعين.. منك أنت لا!

ترتج أركان المسجد بضحكته العاتية المجلجلة الملوغمة بالفحش والتهتك كضحكات الداعرين. يمد يديه المخلبيتين نحو عنقى ويفتح فمه فأشم رائحة الدم المخزون فى الشدقين. يصيبنى الهلع فيبرز من بين شفثيه الغليظتين نابان أزرقان كزرقة الموت يوشك أن يعقرنى فتردد جدران الجامع أصدااء الصرخة التى كالرعد أطلقها الواقف عند باب المسجد يخلع نعليه. تجمدت يدا شرقاوى فى الهواء وتقهرق إلى الخلف وراح يتضاءل وينكمش كخيوط من غبار ثم اختفى. تقدم عبد الستار نحوى حاملا نعليه بين يديه. صرنا أنا وصاحب الجمل وجها لوجه فدمدم بصوت خافت كالغضب: مريم باعنانى

ليك برسالة.. "توبتك غير مقبولة.. هيا امض!" أهول كالعميان السكارى يتخطفنى عمود فيلقينى لعمود وبعقلى فوضى هائلة. أحمل حذاء رئيس مجلس الإدارة الجديد اللامع. عند الباب تباغتك اللمسة الحانية على كتفك فيركبك الذعر وتلتفت للخلف وينعقد لسانك.. هذا عبد المولى بلحيته البيضاء السارحة فوق جلبابه وفى يده مسبحة.. كان يبتسم. رايح فين يا حبيب مريم.. تعال معايا. لأ..! تقبض على الحذاء بعنف وتجرى لاهثا تقفز من العتبة إلى الشارع. تؤلمك فجأة مغصة كالسكين فى أحشائك فتتذكر؛ آآآآآه.. أنت لم تتناول طعاما منذ يومين.. آآآآآه.. كم أنا جائع.. مضى يومان.. وهاهو الثالث قد بدأ ولم يدخل بطنك شىء.. آآآآآه.. يا ربى ما هذا الجوع؟ ينتفض الجسم كله انتفاضة تهز كيائك.. تتقلص أمعاؤك.. وتكز على أسنانك.. أين ستذهب الآن يا على؟ إلى البيت؟ لا.. إن وجه زوجتك هو آخر وجه ترغب فى رؤيته الآن.. ليس وأنت على هذه الحال.. حذار أن ترى ضعفك الآن. تعيد "المغصة" الطعن من جديد فتضغط أنت على بطنك بعنف وتميل على جدار الجامع تنقياً فلا تنقياً إلا سائلاً أصفر يخرج حارقاً يشق حلقومك شقا. متى كانت آخر مرة عرفت فيها جوعاً كهذا يا على؟

- جعان يا أمه!

- جوع "القملة" يلودك إنت واللى جابك.. ابن الكلب فايتنا جعانيين وبيتصرمح!

تخرج تضرب فى طرقات الفلاحة رائحا غاديا والجوع مسامير تمزق بطنك. لا تحتمل. تجرى تقودك قدماك إلى شارع السوق. تجول بعينيك فترى كومة البلح التى كالجبل تخفى خلفها البائعة المجللة بالسواد. بعيدا عن الفرشة تناثرت بلحات حمراوات براقة كالياقوت يسيل لها لعابك. بغير وعى

تمد يدك تكبش " كبشة" تخطفها وتجرى. تصرخ البائعة المتسريلة بالسواد
الآتية من الفلاحين وتجرى أنت.. وتجرى.. تقطع السوق. تبلغ شريط السكة
الحديد وتتهار. لا طاقة عندك للهروب بعد الآن. تنهالك فوق القضبان وتبكي
وتأكل.. تنتظر خلفك فى خوف. لا أحد. تمضغ سريعا.. تقضم .. لا تتم
المضغ فتبلع على عجل.. لا تشبع.. بل يزداد جوعك جوعا فوقه جوع. تجرى
لاهثا من جديد. تدق باب أم شفيق بتاعة المحوجة. ترتدى أمام الباب وتتلوى
فتراك. تنتظر فى عينيك فترى الجوع يخرج لسانه من فمك.. وترى الدموع
المتوسلة.. وروحك التى تكاد تطلع. تهمس متوسلا فى إعياء: جعان يا خالة.
يا كبد امك.. والنبي ما عندى إلا شقة العيش دى يا ابنى.. خدها يا حبيبى.
تنزوى جنب الفرن وتقضم.. ياااااااه.. ما أشهى الخبز الجاف وأنت تلتهمه
على جوع.. تبكى فلا تعرف؛ أمن الشبع.. أم من ابتسامة أم شفيق التى
أضاء وجهها نورا وقد أطعمتك!

.. تتجمع نقطة الضوء الخضراء على يسار المرأة.. تصوير دائرة وينقلت منها خيط رفيع؛ شعرة بيضاء. تنقب الشعرة سطح المرأة وتحبو نحوك. يكبر الخيط الأبيض يصبح حبلا أتلقه فأراني هناك فوق سطح البيت الكبير؛ محشورا بين كومتين من "دريس" جاف وبين ذراعَي سناء بنت رجب تتأمل باستغراب فتائل الشعر الأبيض المنتشرة وألقت ببياضها إلى الحاجبين أيضا. أقطع عليها استرسالها المندمئش. أقترب من أذنها اليمنى وأقتر فيها الكلمات: إحكى لى حكاية يا سناء. تحكى: شوفت إيه اللى حصل لجدى وصفية مرات عمى احمد؟ هالنى ما سمعت؛ لقد احترقا معا. كانت تحممه وغرقت فى سرحانها المبهور فنامت فى حضنه.. ونام هو الآخر.. شخّ الجاز فى "البابور".. شحّر البابور ثم انطفأ. قبل انطفائه أمسكت ناره فى الحاشية المهترئة وامتدت النار إلى السماء.. وجدوهما مشويين! تصمت.. تغيم عيناها تكاد تبكى: كانوا الاتنين عريانين.. تفكر كانوا بيعملوا إيه مع بعض يا على؟ أباغتها فأمد كفى أغلق فمها بعنف.. وأصرخ: عيب يا بنت رجب.. عمك كانت بتحميه يا حمارة!

مهزوما مطأطأ الرأس منكسرا ذليلا وتؤلمك بطنك من شدة الجوع والتعب.. تطوى حزنك تحت جناحيك. تدخل البيت متلصصا فتدلف إلى غرفة مكتبك وتغلق بابها عليك وتنتظر فى المرأة.. تقاجأ بالشحوب الذى لم تعرفه من قبل وبالخطوط الداكنة تحت العينين وبكثافة الشعر فى وجهك. يصعقك ما رأيت؛ إلى هذا الحد كبرت يا على؟ ما تلك الهالة البيضاء فوق رأسك؟ أهو الشيب؟ معقول؟ شبت فى يومين اثنين أم أن شيب روحك طفح على وجهك ورأسك فابيضاً؟ ترعجك فكرة الشيوخوخة فيهتز كيائك وترتعد خوفا. تحملق فى سطح المرأة فتلمح بقعة الضوء تتفجر فى أعلى يسار المرأة وترتحف نحوك ببطء. ترتفع دقات قلبك فتسمعها فى أذنيك. يقترب الضوء رويدا رويدا ويشغل كل النصف العلوى للمرأة.. فمن هذا الذى فى منتصف الدائرة؟ إنه أنت حافيا طفلا غارقة عيناه فى الدموع ومن أنفه ينسال خط رفيع أحمر فيبلغ الشفتين.. خيط من الدم.. فمن هذا الذى يطاردك يا على؟ ها أنت تضغط عينيك وتنتظر فى المرأة فتتعرف على العريد الذى يلاحقك.. إنه أبوك وبيده حزام الجلد المطاطى الأسود ذو الرأس المعدنية اللامعة. آآآآآآه.. هاهى مقدمة الحزام ترتفع إلى عنان السماء ثم تهوى فوق رأسك فتتفجر الدماء نافورة فؤارة.. ويصرخ فيك أبوك: ها تموت فى إيدى الليلة دى با ابن الكلب! يتجمع فى رأسك ويتصاعد غضب الأيام فيصير قبضة من فولاذ ويصرخ فيك الطفل الكامن فيك: إياك أن تستسلم له. تصرخ أنت فى طفل المرأة: هيا واجه خوفك.. لن يضربك بعد اليوم.. هيا استدر.. كن رجلا.. ينظر إليك طفل المرأة منزعجا مشوشا.. تصرخ: هيا يا غبى استدر ولا تخف. يستجيب فيتوقف عن الهروب ويتسمّر فى الأرض ويدير جسده

إلى المارد العريد المتحفر للانقضااض.. هيا افقر فوقه.. يطيعك.. فيطيح
بالأب الجبار ويطرحه أرضا. يخطف الحزام وينوى ضربه إلا أن يدا من
الغيب تمتد فتمنعك.. تصرخ: دعيني يا مريم! لا تسمعك وتسحب منك
حزامك وتمضى. تنظر فترى طفل المرأة راكعا بجوار جثة أبيه ويبكى.
تنسرب الكلمات من الشفتين كلهيب النار: لماذا فعلت كل ذلك بى؟ تثبت
عينيك فى المرأة وتضغط الجفنين فترى بقعة الضوء الأخضر تتمدد وتتسع
وتخرج إليك منها قطعة من المرمر عارية تقطر عسلا.. من؟ بشرى؟ تجتاحك
الرغبة تكوى مفاصلك وينتصب شعر رأسك. ما هذا الجمال الذى لم تره من
قبل؟ تمد يدك إلى المرأة تريد استعادة لحظات النعومة المفعمة بالبارفان
والتعرق وطعم اللسان الرطب.. ما هذا؟ إن الجسد البض يتداعى أمام عينيك
قطعا من لحم مهترى.. والشعر الذهب يتحول إلى خصلات من رماد..
والوجه إلى غصون وانتفاخات عبأها القيح.. والصدر الناهد ينكمش يغوص
بين الضلوع النائثة.. ومن العينين يسيل الصديد.. أهذه هى بشرى؟ كومة من
قيح ودمار ودمامة؟

تترك مكانك مهرولا تسعى للهروب فتمتد يدا مريم تعيدك إلى المرأة من
جديد. تثبت عينيك فى بقعة الضوء الخضراء التى أخذت الآن تتسع فترى
ديستيفانو جالسا فوق صدر الطفل النحيل الممصوص الوجه وينتحب ويسدد
لكماته إلى شفتيك فيدميهما ويزعق فيك الألم. ترى طفل المرأة يبكى ذليلا
فتهتز أنت من الغضب وتصرخ فيه: لا تستسلم.. هيا خذ حقا.. إن لم تأخذه
اليوم فلن تتاله أبدا! ينظر فى عينيك طفل المرأة مندهشا وتمد أنت إليه يدك
تنهضه فيتقدم. ما تلك بيمينه؟ أهى سكين؟ يرفع السكين ويغرسه فى القلب
الأنثى؛ قلب ديستيفانو.. ويجرى لاهثا نحوك. يعطيك السكين فتأخذه منه

تملؤك الغبطة. تخرج لسانك تلعق الدم.. آآآآآآه.. يا لها من حلاوة.. تلك حلاوة لم تتذوق مثيلا لها من قبل يا على.. يبتسم لك طفل المرأة وتبتسم له.. ثم يمضى.

.. من بعيد تراه قادما يتعثر فى خطواته؛ ببطنه العظيمة الممتدة للأمام، وعينيه الحمراوين الجاحظتين، ورأسه الأصلع الضخم كرأس ثور. يقترب منك فتعرفه.. الأستاذ المحنكر. تخترق ذراعاك المرأة وتقبض رأسه تضرب بها جدار الفصل ثم تحمله وتدور به كالنحلة وتهبط به إلى الحوش وتأمره فيملأ كفيه بتراب الحوش ويأكل. تأمره، فيخلع سرواله وتتهال على مؤخرته بعصا غليظة من خيزران.. تتركه ينن وتشبك يديك بيدى عاطف وتمضيان إلى الحديقة.. وتهمس: غنى يا عاطف! تثبت عينيك فى زاوية المرأة فترى بقعة الضوء تتسع وتكبر.. تصبح غرفة مظلمة.. فى ركن منها وابور جاز فوق الأرض يحترق وعلى ضوءه ترى الفراش، وفوق الفراش جثة؛ جثة الصقراوى العجوز.. وبجوارها صفية تتوح وتمزق شعرها وقد أراحت رأسها بين ساقى الجثة الهامدة. ترى أنت النار تنتشر فتتراجع إلى الخلف كى لا تحرق النار. تتسع بقعة الضوء.. فتلمح فى وسطها إلية الحاج مصطفى المكتنزة وماكينته الجبارة وقد التفت حول ساقيه وامتدت إلى عنقه كفرع نبات وحشى. كان يختنق. يبتهج على ويفتح ذراعيه يتلقف هنية ويبدآن فى الرقص على أنغام الجرامفون.. يصدح جرامفون هدى: "غلبت اصالح فى روحى علشان ما ترضى عليك!"

تثبت عينيك فى دائرة الضوء تضغط جفنيك فتكبر الدائرة وتكبر فترى طفل المرأة قابعا عند فوهة قبر.. ومن كفن أبيض تخرج إليك أمك مبتسمة.. تحتضنك. وتبكيان. تغيب فى البكاء فتسمع باب غرفتك يفتح ببطء. تلمح

ظلها فى المرآة. تنتظر فى بقعة الضوء الرائعة الاخضرار التى فى حجم رأس
الدبوس فى الزاوية العليا على يسار المرآة. تمنع النظر.. تكبر البقعة
وتتدد.. تتسع.. تملأ كل فراغ المرآة.. ومن وسط الضياء الساطع المنير
تأتى بردائها الأبيض.. تقترب.. يرتعش قلبك فتنبهر وتتهلل عيناك بالفرحة.
تدير رأسك إلى الخلف وتراها.. تجرى إليها.. تدفن رأسك فى صدرها وتمسح
هى بكفيها شعرك الملتهب بالشيب.. تغرق فى عينيها فتبتسم لك..
وتمضيان.. كانت تلك هى مريم!.